د. بشير عبدالله المساري

تأملات فكرية

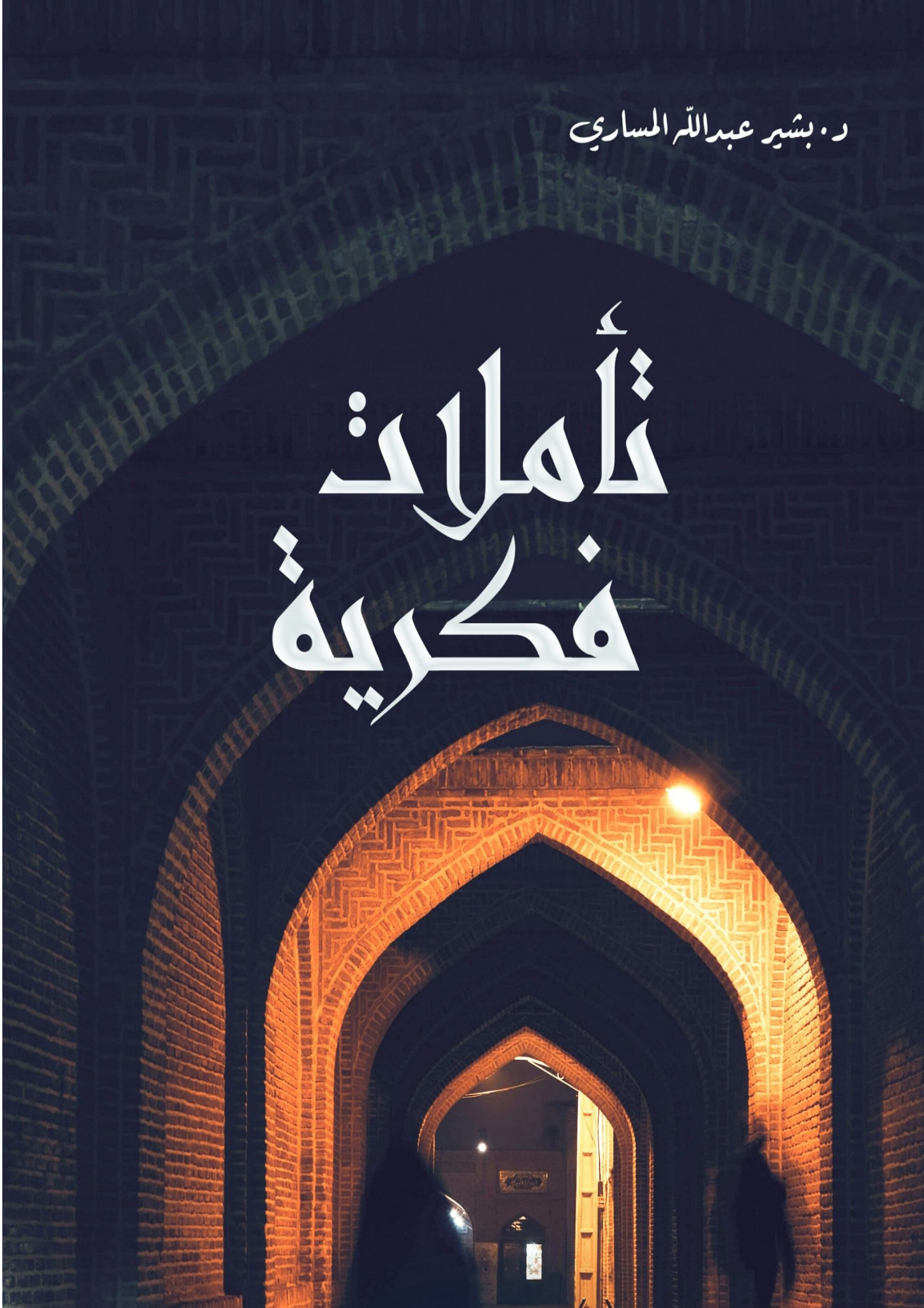

د. بشير عبدالله المساري

تأملات فكرية

1444هـ-2023م

حقوق الطبع محفوظة

المحتويات

مقدمة..... 9
أولا- تأملات في الخلق..... 11
رحلة الفيزياء من الشك إلى اليقين (1-3)..... 13
1-مقررات الفيزيائيين الأولى:..... 13
رحلة الفيزياء من الشك إلى اليقين (2-3)..... 17
2- مسألة العقل والروح:..... 17
رحلة الفيزياء من الشك إلى اليقين (3-3)..... 20
3- الإله والجمال:..... 20
التأمل في خلق السماوات والأرض (1-8)..... 23
1-الانتقال من مفردات بيئة مغلقة إلى آفاق الخلق الواسع:..... 23
3- رحلة مبسطة في مستعمرة الكون. 27
4- أعداد المجرات وما تحويها من نجوم. 30
5- الأرض كروية وتدور حول نفسها: 32
6- الأرض كروية وتدور حول نفسها. 34
7-الانهيار الكوني العظيم (القيامة)..... 37
8- بدء خلق الإنسان وفنائه..... 40
ثلاث آيات كانت عندي شبهات 42
ثلاث ظلمات سبق إليها القرآن 45
قانون الزوجية يساوي وحدانية الخالق..... 48
قانون البدء والإعادة يساوي البعث والنشور 51
عرض أعمال البشر يوم القيامة على البث المباشر 54

ثانيا- تأملات في القرآن الكريم 57
هل هناك قرآنيون؟ 59
كيف يضل أصحاب الأهواء الناس بالقرآن؟ 63
علماء وعلماء 69
هل تفسير القرآن متاح لغير المتخصصين؟ 74
الفرق بين العقل والقلب 81
هل الإنسان كائن أخلاقي أم كائن غريزي؟ 84
لماذا نزل القرآن عربيا؟ 88
لفتة في سياق عداء قريش للإسلام 94
تصوير لغة الجسد العدائية في القرآن الكريم 97
دين التحدي 101
ثالثا- تأملات في العبادة (أسرار الصوم) 105
السر الأول- (تغذية الروح): 107
السر الثاني- الاتجاه نحو المعنى: 112
السر الثالث- تحقيق مبدأ الطاعة والاستسلام لله عز وجل: 116
السر الرابع - غسل أدران الخطايا والآثام: 119
السر الخامس - موسم مضاعفة الأجر لاستحقاق الجنة: 124
السر السادس - التدريب على الانضباطية وتعزيز قوة الإرادة: 127
السر السابع- الانضباط الزمني والشعائري: 131
السر الثامن - لفت الانتباه إلى نعمة البسْط: 134
السر التاسع- لفت الانتباه إلى نعمة القبض: 138
السر العاشر- الإحساس بمعاناة الفقراء: 142
السر الحادي عشر- مواساة الفقراء بين الربح والخسارة: 145

السر الثاني عشر– المحافظة على الصحة الجسدية: 148
السر الثالث عشر– تحقيق الوحدة الشعورية بين المسلمين: 152
السر الرابع عشر– ربط السعادة بتحقيق النجاح. 155
السر الخامس عشر– تحقيق التقوى: 159
بين الأعياد الدينية والأعياد القومية..... 164
أساطير عذبت الإنسانية..... 167
رابعا- تأملات في التسخير 171
شؤون الدنيا وعمارتها في القرآن الكريم (1–4)..... 173
السعي في الأرض والملك: 173
1– التسخير والسعي في الأرض:..... 174
2– الأمن الغذائي: 177
3– البناء والزينة والجمال: 181
4– السياحة: 185
خامسا- تأملات في علم الاجتماع 193
تفكك الأسرة في الغرب – حقائق وأرقام 195
احذروا إعلام النموذج الكامل 201
الفردانية في الغرب..... 205
الفاحشة بين الألفاظ الخادشة والسلوك (المتمدّن)؟..... 207
هل لدينا ما هو أفضل من الحضارة المادية؟ 211
الحرية الدينية في الغرب بين الشعار والتطبيق 215
حساسية اليمني تجاه الآخر..... 219
فلسفة البخل والكرم..... 222
العدل بين أهل الدنيا وأهل الدين 225

التفكير العضلي 227
سادسا- تأملات في المعرفة 229
الدُّوار الميتافيزيقي في كتاب: 231
(الإسلام بين الشرق والغرب) 231
مغزى مصطلح المعروف والمنكر في الشرع 235
د.محمد عابد الجابري 239
نظرية القرائن النحوية التي أطاحت بنظرية العامل 243
تصفير أنماط التفكير 248
التكثيف الدلالي بين الإعجاز والتعجيز 252
اقرأ لكي تبقى وترقى 256
التحريض على التفكير 261
إضاءات فكرية 265
سابعا- تأملات في النهوض الحضاري 267
لماذا تقدم أولئك وتأخرنا نحن؟ 269
نحن بين الماضي والحاضر 273
التقدُّم بين الثابت والمتحول 278
اضطراب الحياة شلل في التفكير 282
معركة الكرامة الأولى 287
بَطَلُ الشعوب المستعبدة ومخلصها المنتظر 290
الدور الرسالي لرواد المعرفة 293
مقولة (نحن أمة لديها قابلية للاستعمار) خاطئة مائة في المائة 296

مقدمة

الحمد لله جزيل الحمد والشكر لله جزيل الشكر والثناء والصلاة والسلام على أستاذ البشرية ومعلمها الأول محمد صلى الله عليه وسلم بعد

فكتاب (تأملات فكرية) ثمرة قراءات تأملية في بعض آيات كتاب الله المنظور وكتاب الله المسطور، وشيء من التصورات الفلسفية للفكر الديني الإسلامي، وبعض أسرار إحدى الشعائر وهي الصوم، بجامع الصلة بينها وهو ظاهر عظمة هذا الدين، وسماوية حقائقه، وإعجاز دلائله، وتضمن تناولات في العلم والمعرفة، والنهوض الحاضري.

وهو ينتظم مع كتاب (تأملات سياسية) (وشبهات وردود) في ثلاثية تجانسية في الأسلوب ومحورية الرؤى، وخلاصة رصد نحو عقد من الزمن في شكل مواضيع نشر كثير منها في منصات التواصل المختلفة، فخرجت في وقت واحد لتكون مرآة زمانها، ومحاولات إسهام فكري لتوجيه مسارات الإنسانية المتدحرجة، التي حرضت الفكر على ترك إضاءات تأصيلية في الطريق، وكانت رؤى الإسلام هي القيم الاستبدالية التي لا يعلو بلاغة منطقها بلاغة، لأنها متجاوبة مع مكون ضمير الإنسان وفطرته السليمة، وذات رصيد وافر من الأدلة العقلية، والنقلية، والمشاهدة.

وهو – بعد– إبحار في أطراف شواطئ غير عميقة الغوص، وينتمي إلى فن الكتابات قصيرة النفس وهو مسبوق ببواكير رائدة مثل كتاب (وحي القلم) لأديب العرب مصطفى صادق الرافعي، ولعل هذا النمط يستهوي سياق الظرف الثقافي الذي واجه شلالا من الكتابات والوسائط المتعددة في زمن متلاحق كثير المفاجآت، فصارت الحاجة إلى أخذ من كل فن بطرف ألح لمعرفة تشخيص ما يجري.

والله أسأل أن يكون بذلك قد نال المبتغى، وأن يورق ظلا، ويزهر طيبا، ويخرج ثمرا نافعا، ويجعله مما ينال به رضاه إنه على كل شيء قدير.

المؤلف

د. بشير المساري

أولا- تأملات في الخلق

رحلة الفيزياء من الشك إلى اليقين (1-3)

1- مقررات الفيزيائيين الأولى:

ربما صح أن يكون العنوان أيضا (رحلة الفيزياء من اليقين إلى الشك) حيث انطلق علماء الفيزياء من القرن الثامن عشر ميلادي بمرجعية إسحاق نيوتن واثقين من قدرتهم على تفسير خلق الكون فيزيائيا، وتشكل ذلك الاتجاه وازداد ثقة في القرن التاسع عشر بعد إطاحة الثورة الفرنسية بسلطة الكنيسة، وبلسان حال يقول: لا إله أيها الكنيسة التي اضطهدت علماء الطبيعة باسم الرب بعد أن تعارضت اكتشافاتهم مع مسلماتها لبناء الكون الأسطورية .. لقد تكفل الفيزيائيون بالبديل العلمي للإله .. وبدأ ذلك بنظرية نيوتن التي تقول إن الكون محكوم بالمادة، ويتحرك وفق الضرورة الفيزيائية، أو الحتمية الميكانيكية، ولايحتاج لخالق، وشاع شعار (المادية العلمية أو الميكانيكية) أو (الفلسفة التحليلية) التي لاتؤمن إلا بالعلم التجريبي .. ولقد تبجح بهذه القاعدة العلمانيون والملحدون حينا من الدهر، وكان قائدهم في ذلك كارل ماركس، وهيجل، وإنجلز وآخرون، فإن كان لهذا الكون من إله فهو العلاقات الفيزيائية الناظمة هكذا انطلق تصورهم .. والتشبيه البسيط لهذا المفهوم آلات المصنع التي تحرك بعضها بعضا لتخرج منتوجا ما، لكن دون أن يسألوا عن حتمية وجود منشئ ومدير أول لهذا المصنع.

واستمرت النظرية المادية حتى نهاية القرن التاسع عشر لتتبعثر بعد ذلك وتتناثر أشلاء من مطلع القرن العشرين وانتهى الماديون إلى حالة من الوجوم المطبق، وبدأت أصوات علمية تتحدث عن العقل المحرك الذي هو عند المؤمنين (الخالق).

وسبحان القائل: (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق).

فما لذي حدث؟ نعرف ذلك من عرض مرتكزات الماديين لتفسير المادة التي سقطت من أيديهم بدون أدنى ضجيج بعد أن كانوا قد صكوا بها سمع العالم وكانت بداية سيرها ومنطلقاتها على النحو التالي:

أولا – الكون موجود بالأزل وسيبقى سرمديا وليس محدَثا حتى يكون له محدِث.

ثانيا– الكون مغلق مصير بالضرورة الميكانيكية، وكونه مغلقا أي يمكن معرفة حدوده ومعرفة أصغر جسيم فيه، وهو الذرة التي أخذت بما فيها من الكترونات ونيترونات شكل نظام

المجموعة الشمسية تدور حول النواة .. أما حافة الكون وحجمه فيمكن الوصول إليه وفلسفة أسراره، فلاشيء أمام علماء الطبيعة يغيب، ونادت بأنه لا يمكن الحديث عن تأملات خارج معامل البحث ونتائج التجريب.

ثالثا– الزمن مطلق بمكان ثابت، وهو عام للكون كله، فلو وضعنا ساعة مركزية للكون لسار عليها دون اختلاف، وبالتالي ضبط الزمان والمكان في متناول العلم الطبيعي.

رابعا–كل شيء خاضع للتأثير المادي قال هنري مارجينو :"إن العقيدة الأساسية للمذهب المادي أن الحقيقة كلها تكمن في المادة .. " [1] فالسلطة الأولى هي لمكنيكا المادة التي تتحكم في كل شيء، وما يتحكم في الإنسان هي المادة أيضا بما فيها الغرائز، فعلم الوظائف يفسر الأشياء بضرورات مادية غرائزية ولامجال لحرية الاختيار، والعقل محكوم بالمادة لا حاكم لها ودوره محايد كالآلة الحاسبة، فلا اعتبار للعقل ولا للإرادة ولا وجود للروح .. ومنظومة القيم البشرية من اختراع البشر لأنها غير خاضعة للتفسير المادي.
(وهذا بلغة تقريبية مبسطة ليكون في متناول القارئ العادي، وطبقا لمحصلة لغة متابع من خارج علماء الطبيعة).

وفيما يلي نتائج الدراسات والأبحاث التي غيرت الفرضيات السابقة، وأصبحت شيئا من الماضي، وبالتالي فشل المادية العلمية التي كانت قد وعدت بتفسير الخلق تفسيرا ماديا فيزيائيا ميكانيكيا وانتشر الإلحاد جراء ذلك.

نتائج المحور الأول:

انتهت نظرية أزلية وسرمدية الكون أولا بنظرية الانفجار العظيم الذي توصل إليها العالم الفيزيائي جورج غاموف عام 1948 عن طريق رصد تمدد الكون المطرد حيث لاحظ (أدوبن هابل) أن تباعد المجرات عن بعضها يزداد يوميا، وأنها كانت يوما ما مجتمعة، فدل ذلك على أن الكون حادث غير أزلي، ولابد للمادة من بداية .. ولكن هل استطاعوا معرفة طبيعة الكون قبل حدوث الانفجار؟ "إن حالة الكون في اللحظات الأولى للانفجار العظيم مبهمة وغير مفهومة، ولا تزال مجالاً للبحث. كما لا تقدم نظرية الانفجار العظيم أي شرح للحالة الأولية قبل الانفجار العظيم، بل تحاول تفسير نشأة وتطور الكون منذ تلك اللحظة

[1] - العلم في منظوره الجديد – تأليف روبرت أغروس وجورج ستانسيو ترجمة: د. كمال خلايلي – عالم المعرفة – 1989م ص16).

الأولى بعد الانفجار؛ إذ بالانفجار يبدأ الزمان والمكان، ولا ترى الفيزياء زمنا قبل الانفجار العظيم، فقد بدأ به الزمن من وجهة نظر الفيزيائيين" [1].

وثانيا ثبت عدم صحة الأزلية أيضا بتحول المادة" فالمادة تتحول إلى طاقة والطاقة تتحول إلى مادة . وقابليتها للتحول تعنى أن بقاءها في هيئتها المعَّينة كان معتمداً على ظروف خارجة عن ذاتها، فلما زالت تلك الظروف زالت تلك الهيئة.إذن، فهي ليست معتمدة في وجودها على نفسها ومن ثم تستحيل أن تكون آلية. وكل ما يتحلل ويتحول فليس بأزلي غير حادث بل هو بالضرورة حادث " [2].

إذن الكون حادث ولابد لكل حادث من محدِث نتيجة علمية فيزيائية بقانون العلة والمعلول، فلاشيء يوجد من العدم، فالعدم لايأتي بوجود، كما اتضح أن الزمن حادث لأنه لازمن بلامكان فانتهت نظرية الأزلية وانتهت آلية المادة وهناك يد تحركها.

المحور الثاني:

ومثلما أن معرفة كيف كان الكون قبل أن يكون مجهول، أو ضمن فرضيات متضاربة، فإن حدود الكون ونهايته بعد 100عام من الدراسة أيضا مجهولة، فغاية ما توصلوا إليه أن هناك مجموعات شمسية تشملها مجرات، المجرات تشملها مجموعات عنقودية في ترليون مجرة، ثم لايعرفون مابعد ذلك قالوا (كون غير منظور(إذن حجم الكون ومداه ونهايته ماديا خارج سيطرة العلم والفيزياء، فيصعب قراءته وتفسيره فيزيائيا أيضا .. وجاءت ظاهرة الثقوب السوداء التي "يمكننا أن نرى أثرها على ما حولها، ولكننا لا نعرف كنهها تماماً فهي موجودة و أساسية لا يمكن تفسير الظواهر دونها، ولكنها مع هذا غير خاضعة للتحكم الإنساني ولا نفهم كنهها تماماً (وهذا يقود إلى) أن السببية الصلبة المطلقة التي لا يزال يتمسك بها بعض علماء الإنسانيات في القرن العشرين، خصوصاً في عالمنا العربي، لم يعد لها سند علمي، فهي نتاج علم القرن التاسع عشر، الذي اكتشف الجميع كبرياءه الساذج، وإدعاءه الأجوف بأن ما هو غير معروف سيتم معرفته، وأنه في خلال ثلاثين عاماً– كما قال أحد العلماء آنذاك –سيعرف الإنسان كل شيء .ولكن الإله ستر وحمى الإنسان من الاختفاء (كما يبشر الفلاسفة الماديون من البنيويين وفلاسفة ما بعد الحداثة)." [3]

---

1 – موسوعة الويكيبيديا.

2 – موقع معرفة marefa. org.

3 – نفس المصدر السابق.

والشيء ذاته فيما يتعلق بأصغر جسيم فشلوا في معرفة كنهه، فإذا قد عرفنا أن الكيلو يساوي 1000 جرام، والجرام 1000 مليجرام، فالمليجرام 12 مليار ذرة، والذرة تفوق النواة بمليون مرة، والنواة تفوق الإلكترون ب100 مليون مرة وكله على وجه التقريب، وثم جسيمات أولية أخرى كالكوارك والنيترون عالم ذري كوني لم يتمكن العلماء من رصد نظام علاقته، فهي علاقات موجية عشوائية وحركة الذرة لاتتبع نظاما محددا، وقانون الفيزياء قائم على الحجم والشكل والعدد فصار أصغر جسيم غير قابل للتعريف وخارج القياسات العلمية، "وظهر أن ثمة وجوداً لا مادياً للطاقة الذرية هو الوجود الموجي. (تماما كالضوء) يتصرف في مواضع تجريبية باعتباره مكوناً من جزيئات وحزما ضوئية (فوتونات)، وأنه في مواضع تجريبية أخرى يتصرف باعتباره مكوناً من موجات (و قد قال أحد علماء الطبيعة متهكماً: في يوم السبت و الاثنين والأربعاء نُعرِّف الضوء بأنه جزئيات، ثم يصبح موجات بقية الأسبوع) [1].

والخلاصة " إن الجسيمات الصغيرة التي يتكون منها كل شيء تحكمها الفوضى التامة" [2] وليست المسألة نقص معلومات بل علمية نتيجة شبه نهائية فبان بذلك عجز العلماء وازدادت الحيرة واتسع الوجوم ..

المحور الثالث:

ثم جاءت نظرية النسبية لانشتاين وحطمت نظرية الزمن المطلق، فكوكب المشتري زمانه مختلف وعطارد كذلك، وكل مكان ينتج زمانه الخاص، فخرجت مسألة قياس الزمن عند العلماء فضلا عن نسبية السرعة التي تتحدد بالرائي وظروف بيئته.

1 – نفس المصدر السابق.

2 – موسوعة الويكيبيديا.

رحلة الفيزياء من الشك إلى اليقين (2–3)

2- مسألة العقل والروح:

أ- العقل:

"لا وجود إلا للمادة، وأن الأشياء جميعا قابلة للتفسير بلغة المادة فحسب" [1] كان ذلك هو منطلق المادية العلمية القديمة، حيث نظرت إلى العقل كعنصر مصيّر بالغرائز ومحايد كالآلة لادور له، ثم ثبت بعد ذلك أنه عنصر فوق القياس المادي يقوم بعمليات منطقية مستقلة عن تأثير المادة.

فما أهمية أن يصل الكثير من علماء الفيزياء والطبيعة إلى الإيمان بوجود العقل والروح والعواطف الإنسانية ثم إلى القول بالعقل المدبر الذي هو الله سبحانه وتعالى؟

تكمن الأهمية في إبطال نظرية المادية العلمية التي لاتؤمن بشيء خارج القياس المادي، وقاعدة المادية الحتمية تعني إبطال الشرائع وأركان الدين، فلا إله ولا ملائكة ولا يوم آخر ولا عقل حاكم، ولا قيم، ولا روح، مالم تخضع كلها للتجريب وقد ثبت هذا استحالته.

والنظرية الجديدة تؤكد وجود العقل المستقل، يقول بنفيلد: "العقل يعي ما يدور حوله، وهو الذي يستنبط ويتخذ قرارات جديدة، وهو الذي يفهم ويتصرف كما لو كانت له طاقة خاصة به، وهو يستطيع أن يتخذ القرارات وينفذها، مستعينا بمختلف آليات الدماغ" وبناء على الأدلة سالفة الذكر لا يرى بنفيلد أي أمل في النهج المادي للنظرة القديمة إزاء العقل فيعلن : " إن توقع قيام آلية الدماغ العليا، أو أي مجموعة من ردود الفعل، مهما بلغت من التعقيد، بما يقوم به العقل، وبأداء جميع وظائفه أمر محال تماما" [2] يقول إن محاولة معرفة نشاط العقل وقياسه محال.

و"إذا لم يكن العقل من صنع المادة كما تؤكد النظرية الجديدة فهذا يعني أن له حياة خاصة به ومستقلة عن المادة، بحيث يكون هناك سلع روحية وسلع مادية على السواء، ونحن نعني بالسلع الروحية القيم الأخلاقية والفكرية والجمالية" [3]. ولقد لا حظ علماء وظائف الأعضاء شيئا عجيبا يتعلق بوظائف العقل حيث إن عدسات الكاميرا تثبِّت المرئيات وتنزلها

---

1 – العلم في منظوره الجديد ص 15 .. وهو الكتاب الذي اعتمدنا عليه في هذه المنشورات وهو كتاب لعالمين في علم الطبيعة، سبقا في الحلقة السابقة.

2 – المصدر السابق ص 40.

3 – المصدر السابق ص 83.

في شكل صورة، لكن عدسات عين الإنسان نفسها ليست هي التي تثبت الصورة كعدسة الكاميرا، والدليل لو أن العين رأت أسدا والإنسان في حالة إغماء مثلا فلن ترسل إلى الجهاز العصبي بوجود خطر، لأن الذي يترجم الصورة ليست العدسات اللاقطة بل العقل بطريقة لايمكن فهمها، كما أن العين لا ترسل صورا إلى الدماغ بل ترسل عبر عشرة ملايين مخروط ومائة مليون قضيب نبضات إلى الدماغ مجهولة المعطيات ماديا، رغم التغيرات الفيزيائية والكيميائية التي تحدث، ومع أن الدماغ الذي هو مجال العقل لونه رمادي وفي مكان مظلم اللون، إلا إنه يترجم هذه النبضات إلى ألوان لاتحصى وأشكال وأحجام وحركات لا لاتُحدّ ولا تُعدّ؟ إذن في العقل يتم الوعي والإدراك بماهية المرئيات لا في العين .. فما هو هذا العقل وكيف يترجم هذه الأعداد الهائلة من الصور والأشكال؟ ذلك مالم يتوصل إلى فهمه علماء الطبيعة .. يقول العالم اكلس إن "عملية الإدراك ذاتها تنشأ بطريقة مجهولة تماما عن المعلومات المنقولة بالرموز من شبكية العين إلى الدماغ" [1] إن المادة وحدها لاتستطيع أن تفسر الإدراك الحسي" [2] :" والعقل والإرادة لايسيطران على الجسم فحسب بل يسيطران على الانفعالات ويبطلانها عند الضرورة" [3] :" وقد أعطى اكلس للعقل كمكوّن معنوي مثالا رائعا بالكتاب، فما هو الكتاب؟ يقول ما معناه إن تحليل الكتاب ماديا لايعطي ماهيته، فالكتاب ماديا كتلة من ورق .. والورق من ألياف يضاف إليه شيء من الصمغ وخيوط ربط وحِبر، غير أن هذا لايكفي لتعريف الكتاب فلايزال المحتوى الذي هو أهم من الحامل المادي وهو ما لايمكن قياسه، فقد يكون الكتاب ثمينا جدا وقيمته المادية زهيدة والعكس، فالناس لاتشتري الورق بل المحتوى الخارج عن الماديات.

ويقاس عليه أن العقل غير الدماغ، فالدماغ حامل يمكن قياسه ومعرفة أقسامه أما العقل فلايمكن قياسه، ولذلك حين يفقد الإنسان عقله فإنه لايفقد شيئا من دماغه فما لذي فقده؟ إنه العقل ذو الفاعلية المستقلة الذي هو فوق المادة .. وإذا قد فشلوا في إخضاع جزء بسيط من الخلق للمادية العلمية فكيف ينتظرون من المادة أن توصلهم بالتجربة إلى خالق كل شيء؟!.

ب- الروح:

لقد كان العلماء يرون إن التغيرات المادية الفيزيائية عن طريق الدماغ هي التي تسبب الأفكار لا العكس حيث إن العقل يفنى بعد الموت والمادة لاتفنى، وهذا الاستنتاج يشمل الروح أيضا .. ولا يخلو هذا من مغالطات، فإذا كانت المادة لا تفنى فكيف فشلوا في تفسير الموت

---

1 – المصدر السابق ص 28.

2 – المصدر السابق نقلا عن العالم اكلس ص29.

3 – المصدر السابق ص 66.

فيزيائيا؟ فالجسد الميت باق وهو الطرف المادي في الكائن الحي، فما الذي ذهب منه حتى يموت؟ لاتستطيع معامل التجريب أن تخبرنا عن السبب ماديا، ولو عرفوا لعالجوا ذلك الجانب المادي وقهروا الموت .. وقد يكون المتوفي شابا يتمتع بالحيوية والصحة المثالية لكنه يموت فما الذي فقده يا علماء المادة والمعمل والتجريب؟ .. فلْتستقدموا أفضل الأطباء وأفضل العقاقير الطبية ولْتعيدوا الحياة إلى جسد ميت .. إن ما فقده المتوفي ليس عضوا ماديا بل فقد ما لاتملك الفيزياء أن تخضعه للتجربة إنها (الروح) التي يجهلونها لأنها من أمر ربي (وَيَسأَلونَكَ عَنِ الرّوحِ قُلِ الرّوحُ مِن أَمرِ رَبّي وَما أوتيتُم مِنَ العِلمِ إِلّا قَليلًا) [1].

الروح التي أنكروا وجودها هي جوهر الإنسان وليس الجسم المتحلل والمتحول، ولو كانت غير موجودة أو ثانوية لما مات الجسد إذ يمكن مواجهة كل احتياجاته المادية .. ومثلما أنهم فشلوا في قياس الموت فيزيائيا لأنه خارج ميكانيكية الأفعال لم يستطيعوا فيزيائيا تفسير ماهية النوم (وهو الموت الأصغر) فالنائم الغارق في نومه لاتزال حواسه .. غير أن الذي ينام وعيناه مفتحتان لايرى بهما إدراكيا، وقد لايسمع بأذنيه المفتحة الصوت المسموع، ومثل ذلك باقي الحواس لأن الحواس وهي جزء مادي تعطلت فما لذي حدث؟ الذي حدث هو مالا تستطيع الفيزياء ولا العلم التجريبي أن يخضعه للقياس إنها أيضا الروح التي انشطرت حال النوم إلى شطرين كما قال تعالى: (اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حينَ مَوتِها وَالَّتي لَم تَمُت في مَنامِها فَيُمسِكُ الَّتي قَضى عَلَيهَا المَوتَ وَيُرسِلُ الأُخرى إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ في ذلِكَ لَآياتٍ لِقَومٍ يَتَفَكَّرونَ) [2] لذا انتهى المطاف بالعلماء المعتبرين إلى الاعتراف ببقاء العقل والروح بعد الموت يقول عالم الأحياء أدولف بورتمان Alf Portunam) :" ما من كمية من البحث على النسق الفيزيائي أو الكيميائي يمكنها أبدا أن تقدم صورة كاملة للعمليات النفسية والروحية والفكرية"[3] " ويعلن بنفيلد يا له من أمر مثير، أن نكتشف أن العالم يستطيع بدوره أن يؤمن عن حق بوجود الروح"[4]. وإذا كان العقل والروح غير ماديين فلا شك أن هاتين الملكتين على حد تعبير اكلس " لا تخضعان بالموت للتحلل الذي يطرأ على الجسم والدماغ كليهما [5].

---

1 – [الإسراء: 85].

2 – [الزمر: 42].

3 – المصدر نفسه ص 40.

4 – المصدر نفسه ص 41.

5 – المصدر نفسه ص 41.

رحلة الفيزياء من الشك إلى اليقين (3–3)

3- الإله والجمال:

أطلق نيتشه مقولة : « موت الإله » واشتهرت على نطاق واسع مقولة « نيتشه » حول « موت الإله » التي وردت في كتابيه « العلم المرح » و « هكذا تكلم زرادشت »" [1] وجاءت بعدها مقولات من نحو أن الإنسان هو الذي خلق الله لحاجته لتفسير الكون، ولم يخلق الله الإنسان لأنه غير موجود، وترتب عليه أن الإنسان لايحتاج إلى إله لأن ميكانيكية الأفعال هي التي تفسر الوجود.

وقد سبق القول بأن نظرية نشوء الكون بعد اكتشاف الانفجار العظيم، انتهت به فرضية أزلية الكون تماما.

وهنا دحض جديد للضرورة الفيزيائية بما لا تفسره قوانين الفيزياء وهو (الجمال).

لجأ الفيزيائيون إلى القول بميكانيكية الأفعال كما سبق ذكره لتفسير وجود المخلوقات "وحجتهم في ذلك أن الكون آلة تدير نفسها بنفسها وبالتالي لاتحتاج البتة إلى أي سبب فوق الطبيعة" [2] وتعني أن الحاجة إلى الشيء يفسر وجوده وكفى، فعين الإنسان كمثال يقتضيها الجسم، إذن لاتسأل عن من أوجدها، لقد أوجدتها الضرورة(؟!) هكذا انطلقوا في تفسير وجود المخلوقات، كقولك إن وجود مختبر في المستشفى يفسره طبيعة وظائف الطب، فهذه العلة تكفي عندهم للسؤال عن من أوجد المختبر(؟!) وعليه فجميع الآيات التي تضافرت على وجود حياة آمنة من أجهزة جسم وشمس وهواء .. الخ هذه كلها ضرورات فيزيائية تقتضي بعضها بعضا، مع أنه لابد من العلة الأولى بالبداهة، وأن التهرب من العلة الأولى غير علمي بتاتا كما سبق، فلاشيء يوجد بلا موجِد فلايزال للمشفى والمعمل مهندس وصانع .. ومع ذلك لو سلمنا جدلا لعلة ميكانيكية الأفعال فلن يستطيعوا تفسير وجود أشياء لاتقتضيها الضرورات المادية، ولاتفسر بها بتاتا مثل (الجمال) لايستطيعون أن يفسروا ماديا سبب هندسة المخلوقات هندسة جمالية بديعة، بمعنى كان يكفي لضرورة البقاء أن يكون لدى الإنسان حاسة سمع

---

1 – ينظر العلم في منظوره الجديد ص 295.

2 – المصدر السابق ص 54.

وبصر وشم .. الخ لكن من أين جاء جمال تركيب الأعضاء وحسن ترتيبها في الجسم؟ فالضرورة تقتضي حواسا وحسب .. إذا كانت المسألة مجرد الضرورة يمكن أن نجد البصر وقع في مكان بعيد عن السمع .. والسمع في زاوية ما من الجسم، وحاسة الشم وقعت صدفة في مكان آخر، مثلما أن مختبر أي مستشفى ممكن أن يكون في أي زاوية منه، ليؤدي وظيفته وحسب، فمن وراء ذلك التركيب والترتيب الجمالي في الخلق؟! وكذلك توزيع أعضاء كل كائن حي متناسق ومنظم، كما قال الخالق: (ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت) غير أن الإنسان يفوقها جمالا وكمالا، فمن جعله في أحسن تقويم بحيث لو طلبنا من أمهر رسام أن يرسم كائنا أحسن شكلا من الإنسان لما استطاع؟

أضف إلى ذلك إبداعات تجدها في أصغر الأشياء، كالفراشة مثلا فتلك الرسومات التناظرية المتساوية التي تزينت بها لاتفسرها الضرورة الفيزيائية بل عقل مدبر ويد مبدع وحكيم، فقد تعيش فيزيائيا بلا رسومات فمن ترك عليها جماله وإبداعه؟ وقل مثل ذلك على حيوانات مثل حمر الوحش والثعابين، والخنافس، والطيور، وجميع أوراق الشجر، والزهر، وألوان الثمر .. وكل فاكهة ذات إبداع تنسيقي وتخطيطي ولوني متميز، ورائحة خاصة وذوق خاص .. إن التفاعلات الفيزيائية تستجيب للضرورة فقط ولا تعرف الجمال ولا سنن التنويع.

على أن من أودع الجمال في كل تلك المخلوقات يعلم أنها تعكس البهجة وتترك في النفس المتعة والسعادة، وهذه قضايا أيضا تجريدية لاتخضع لمعامل التحليل، فلا دور للعلم التجريبي فيها، وبذلك عُلم أن هناك عقلا مدَبّرا وصانعا ماهرا كما بات يقول بعض هؤلاء الطبيعيين أنفسهم، واسم هذا العقل عند المؤمن (الخالق) سبحانه وتعالى.

جاء في كتاب العلم في منظوره الجديد الذي هو منطلق حديثنا "الجمال في الحيوان والنبات والجماد، وعلى ذلك يبدو أن الجمال المشاهد في الطبيعة ناشئ من علة لا تحكمها الضرورة، ولكن لديها مع ذلك سبب يفسر تصرفها . وهذه العلة هي عقل، ومن ثم فإن هناك عقلا مسؤولا عن جمال الطبيعة . وهذا العقل القائم وراء الطبيعة يطلق عليه كل الناس اسم « الله » .. والبشر يلحظون يد الله في ندفة الثلج، وفي غروب الشمس، وفي حقل الأعشاب، وعظمة الجمال وجلاله يحملان توقيع الله الذي لا شبهة فيه" [1].

ويربط المؤلفان الخلق بالأهداف الحتمية التي تجعل وجود الإنسان مبنيا على تضافر ضرورات متباعدة فالهواء كمثال والجاذبية والماء وعناصر الغذاء والشمس .. الخ بعيدة عن إدارة الجسم فوجودها استجابة عقل مدرك وصانع حكيم .. ولاعلاقة لميكانيكية الأفعال بها

1 – المصدر السابق ص 72.

لعدم تأثر وجود كل نوع بالآخر إلا عن طريق مدبِّر " لأن المادة لا تستطيع من تلقاء نفسها أن تهدف إلى أي شيء . ومـــن هـــنـــا فالنظرة الجديدة تقود مرة أخرى إلى الاعتقاد بوجود عقل يوجه الكون بأكمله وجميع نواميس الطبيعة وجميع خواص المادة إلى غاية . ونحن نطلق على هذا العقل اسم الله "[1].

ويقول ديكارت في الجزء الرابع من كتابه المشهور « حديث الطريقة » :"إن الأشياء التي نتصورها بكثير من الوضوح والتميز كلها صحيحة لا تستقيم إلا لأن الإله كائن وموجود"[2].

يقول الفيلسوف الألماني « مارتن هايدغر» معبرا عن مأزق العلم الطبيعي:" لم يعد من الممكن أن يخلصنا إلا إله، السانحة الوحيدة التي بقيت لنا .. "[3].

– مسألة منظومة القيم:

لقد كان من كوارث المادية العلمية التي أتت على البشرية بالدمار والتحلل الأخلاقي هي قولهم إن منظومة القيم الفاضلة أيضا لاوجود لها بما أنها غير قابلة للقياس والتجريب.

والنتيجة صارت القيم الأخلاقية وخاصة السلوك الشخصي في حكم المطلق بلاضابط ولا قانون، فأهدرت قيم مثل الشرف، والكرامة، والعفة، والفضيلة، أهدرت وتسفل الإنسان، وقُدّست بعدها الماديات، وبهذه النظرية الشيطانية جرت الذات وراء الملذات، وأطلقت شعارات مادية مجنونة مثل قول ميكافيلي (الغاية تبرر الوسيلة)، وأبيدت شعوب بأكملها بلا إحساس من ضمير ولا رادع من أخلاق وذلك من أجل الحصول على المادة.

فكيف تأتّى للبشرية أن تتحلل من إنسانيتها وتدعي عدم وجود أخلاق؟ .. ماذا لو أهدرنا أيضا قيما هي مرتكز للحياة كالصدق، والوفاء، والأمانة هل ستبقى هناك حياة مستقيمة؟! ..

أخيرا: لقد سيطر على علماء الطبيعة كِبر العلم، وغرور الادعاء مع أنهم إنما يحبُون صغارا في أعتاب علم الله الواسع الذي قال: (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا).

1 – المصدر نفسه (ص 64).

2 – المصدر نفسه (ص 200).

3 – المصدر نفسه (ص 302).

التأمل في خلق السماوات والأرض (1–8)

1-الانتقال من مفردات بيئة مغلقة إلى آفاق الخلق الواسع:

في بيئة فقيرة حيث الصحراء والجدب فلا ماء ولا نماء ولا روافد حضارة ولا تاريخ علمي متوارث ولا مدارس فلسفية، بل ولا تكتل بشري منظم بسلطة مسؤولة ومؤسسات ضابطة لنظم الحياة .. في هذه البيئة الأمية والفقيرة نزل أعظم كتاب على قلب رجل أمي أيضا لا يقرأ ولا يكتب ليحول البيئة إلى أقدس أرض ومصدر إشعاع فكري .. وأهلها إلى خير أمة .. ودينها إلى ظاهر على الدين كله .. فسارت عليه الأمة بمنهج حياة صحيحة العقيدة .. سليمة العبادة .. محكمة الشريعة .. قويمة السلوك.

قبل ثقافة القرآن كانت مفردات الحياة بدائية ومفاهيمها وتصوراتها لا تتعدى حديث الذات والملذات والتغني بأمجاد القبيلة المحاربة .. والغزوات الناهبة .. والتباري في الشعر الذي تعكس مضامينه سذاجة مقومات الحياة وإنما هي الفروسية .. والأطلال الدارسة .. والغزل والنسيب والخيل والحمر الوحشية .. وفصائل الغزلان والخباء .. والسيف والقوس والرمح .. أدوات بسيطة .. أمة أمية تعيش على هامش حياة الحضارات الأخرى كالصين وفارس والروم .. وفجأة ينزل هذا الكتاب العزيز وفيه علم كل شيء .. من أسرار الحياة وهدفها .. إلى مكنونات الخلق وإبداعه .. إلى علاقة الفرد بنفسه وبكل ما حوله .. إلى فلسفة البدء والمعاد ومنظومة قواعد الحياة وقوانينها.

يتحدث عن أصل الخلق ونظامه من الذرة وما دونها إلى المجرة وما فوقها .. يتحدث عن السماوات وأبراجها .. والجبال وأوتادها .. والبحار وظلماتها .. إلى الأنهار، والأكمام، والأشجار، والثمار .. إلى أطوار خلق الإنسان وخروجه من بين الصلب والترائب في شكل ماء مهين .. إلى النطفة، إلى العقلة، إلى المضغة إلى العظام إلى اللحم، إلى مرحلة الاستواء في خلق جديد وتتبع رحلة الإنسان من حياة فانية إلى حياة خالدة ..إنه يرسم خارطة تصور متكاملة عن هدف الخلق وما قبل الخلق وما بعده الخلق وأسرار الخلق وبشكل معجز في شموله .. ودقة وصفه .. وعمق تصوره .. وجمال أسلوبه.

إن هذا التحول الهائل الذي أتى به القرآن لهو بحد ذاته شيء معجز إذ إنه نزل في بيئة صفرية من كل هذه التصورات، ثم يزداد مراتب تيقن إعجازه عندما يستمر إلى زمن الاكتشافات فتجده كتابا أحكمت آياته، فلا تتصادم مع الحقائق العلمية وقد كان بدهيا لو كان القرآن صناعة بشرية أن تتبخر آياته في العصر الحديث، ولكننا نجد هذا الكتاب المقروء يلتقي

مع الكتاب المشهود فينطقا بصوت واحد أن مصدرهما إله واحد .. كتاب مقروء لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .. وكتاب مشهود وهو الكون الذي جاءت نواميسه لتؤيد كلام الله تعالى وتؤكد حقائقه .. ومع كل ذلك نجد التحدي قائما (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) [1] (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا) [2].

ويتجه الخطاب لغير هذه الأمة بوعد الله الحق في إقامة الحجة على الكافرين الذين سيأخذون بأسباب العلم ويكتشفون حقائق آيات الله: (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)[3]. (وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) [4].

ويخطئ من يظن أن الإعجاز متوقف عند الحقائق العلمية، بل والحقائق الاجتماعية ومنظومة القيم الإنسانية، وفي أساليبه البلاغية، وعلى تعاقب الأيام والليالي تبحث الآلاف من الرسائل العلمية في أسراره ولن تنقضي كما جاء من كلام سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في وصف القرآن:" ...فيه خبر ما قبلكم، ونبأ ما بعدكم، وفصل ما بينكم ... لا يشبع منه العلماء، ولا يخلق من كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه ..."[5].

---

1 – [البقرة : 23].

2 – [الإسراء : 88].

3 – [فصلت : 53].

4 – [النمل : 93].

5 – رواه الترمذي وغيره.

التأمل في خلق السماوات والأرض (2-8)

2-نظرية نشوء الكون.

-آخر نظرية رائجة لنشوء الكون تسمى الانفجار الكوني العظيم big bang تتحدث عن أن الكون كان مجتمعا على بعضه قبل نحو 14 مليار سنة .. وأن حجم هذا الكون قبل أن يتعرض للانفجار كان من الضآلة يساوي صفرا .. وبدرجة من التكثيف والجاذبية والحرارة العالية بحيث تتجاوز قوانين الفيزياء فلا يمكن أن تخضع لحسابات البشر .. ثم تعرض هذا الجرم لانفجار كوني هائل تشظى إلى نجوم ومجرات وخلف أدخنه وسديما .. وأن أقدم الأدلة الرصدية وأكثرها صراحةً في إثبات فعالية نظرية الانفجار العظيم هو رصد تمدد الكون واستمراره وفق قانون هابل (مُمثّلاً في الانزياح الأحمر للمجرات) والمراد أن النجم إذا كان يبتعد عنا فإن طيفه الضوئي ينحرف نحو اللون الأحمر .. ويشير ذلك إلى أن المجرات تبتعد عن بعضها البعض .. ومعنى هذا أن المجرات تتسع وتتباعد عن بعضها بقانون ثابت وهو ما تعنيه كلمة (موسعون) في الآية الكريمة؟ كما يؤكد ذلك أن للكون بؤرة انفجار أولية، ثم ينطلق ليحدث هذا التباعد الفلكي الذي يفوق في مداه حدود التصور.

ولابد أن هذا التمدد الناتج عن ضغط الانفجار سيصل إلى مدى معين ثم يتوقف ليعود بحركة انسحاق عكسية ينفرط معها عقد نظام الكون ويعود كما كان مجتمعا من جديد ..

يقول العالم الجيولوجي الدكتور زغلول النجار: إنه بعد هذا التمدد ومع طول الوقت وتباطؤ سرعة التوسع الكوني مع الزمن، تتفوق قوة الجاذبية على قوة الدفع، فتأخذ المجرات في الاندفاع إلى مركز الكون بسرعة فائقة مكتسحة ما بينها من مختلف أنواع المادة والطاقة، فينكمش الكون ويتكدس على ذاته ويطوى كل من الزمان والمكان حتى تتلاشى كل الأبعاد وتتجمع المادة والطاقة المنتشرة في أرجاء الكون في نقطة واحدة متناهية في الضآلة تكاد تصل إلى الصفر أو العدم، ومتناهية في الكثافة والحرارة إلى الحد الذي تتوقف عنده كل قوانين الفيزياء المعروفة، أي يعود الكون إلى حالته الأولى؛ (مرحلة الرتق).

وهذه الإثباتات العلمية تؤيد ما جاء به الوحي وبدقة إعجازية متناهية .. أما أن هذا الكون كان مجتمعا وفي درجة من الضآلة بحيث يساوي صفرا فذلك بعد مرحلة الخلق وهذا الاجتماع نجده في قوله تعالى : (أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ...)[1] وعن هذا الفتق نتج الغبار والأدخنة السديمية كما حدثنا به العلماء وأجهزة

1 - [الأنبياء : 30].

الرصد وهو في قول المولى (ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ) [1] وهذا القول بعد مرحلة الفتق والسماء مائجة بالدخان كما نفهمه من تفسير الإمام الطبري رحمه الله قال "يقول جلّ ثناؤه: فقال الله للسماء والأرض: جيئا بما خلقت فيكما، أما أنت يا سماء فأطلعي ما خلقت فيك من الشمس والقمر والنجوم، وأما أنت يا أرض فأخرجي ما خلقت فيك من الأشجار والثمار والنبات، وتشقَّقِي عن الأنهار ..

-وأما أن هذا الكون يتمدد ويتوسع فإننا نجد ذلك في قول الله: (وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ)[2] .. وأما أنه سيعود مرة ثانية مجتمعا فذلك ما نجده من قوله تعالى (يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَا ۚ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ)[3]. وقال (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ) [4]. وقال تعالى (وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ) [5] ويكون هذا بعد الانهيار العظيم للخلق وقيام القيامة قال المولى: (إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ)[6] (إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ* وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ) [7] (وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ) [8]. فتحشر الخلائق تكون على أرض غير الأرض هي أرض المحشر وهي الساهرة لعلها والله العالم متكونة من إعادة تشكيل بناء السماوات والأرض نجد ذلك في قول المولى (يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ ۖ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ) [9]. والآن من يقول كلاما كبيرا كهذا في أصل النشأة وبدء خلق الوجود سوى الكبير المتعال؟ وهل كان سيوجد توافق إعجازي كهذا لو كان من عند غير الله وصدق الله إذ يقول (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا).

1 - [فصلت : 11].
2 - [الذاريات : 47].
3 - [الأنبياء : 104].
4 - [الزمر : 67].
5 - [القيامة : 9].
6 - [الانشقاق : 1].
7 - [الانفطار :1- 2].
8 - [التكوير : 11].
9 - [إبراهيم : 48].

التأمل في خلق السماوات والأرض (3-8)

3- رحلة مبسطة في مستعمرة الكون.

إن أكثر من ألف وثلاثمائة آية (1300) في كتاب الله تتحدث عن خلق السماوات والأرض والنجوم والدعوة للتفكر فيها، هذا الكم الكبير من الآيات لمن ولماذا أنزلها الله؟

أليست لي ولك من أجل التفكر فيها وفي الذي بناها ورفع سمكها وسواها؟ قال تعالى: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ* الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) [1] وقال (قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ...)[2] وقال: (أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ) [3].

وجعل النظر في هذا الخلق طريقا إلى الإيمان .. وضرب لذلك مثلا بتأملات أبي الموحدين إبراهيم-عليه السلام- (وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ) [4] وهذا الحشد من الآيات الحاثة على التأمل تشير بوضوح إلى أن بإمكان البشر أن يصلوا إلى نتائج علمية في خلق الكون .. وأن الدعوة للتأمل فيه لن تنتهي إلى عبث ..

ولقد توصلت الدراسات فعلا إلى حقائق وأرقام فلكية حول منظومة الكون هي من العظمة والدقة بحيث تقود إلى يد القدرة الإلهية المتصرفة في الخلق والتدبير.

تصف الآيات القرآنية السماء بصفات العظمة في الخلق: (أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ ۚ بَنَاهَا*رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا) [5] والإنسان مقارنة بخلق السماوات والأرض لايعدو في حجمه شيئا: (لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) [6].

وتتحدث الآيات كثيرا عن النجوم وأطوارها تكويرها وانكدارها وطمسها وهويها ومواقعها .. وأقسم الله بها في غير موضع ولا يقسم الله إلا بعظيم.

---

1 - [آل عمران].

2 - [يونس : 101].

3 - [ق : 6].

4 - [الأنعام : 75].

5 - [النازعات :27- 28].

6 - [غافر : 57].

*** حجم الأرض وبعدها مقارنة ببعض النجوم.**

إن الناظر في حجم كوكبنا الأرضي مقارنة بحجم النجوم والمجرات سيتحصل على فارق المسافات الخرافية بين خلق ضئيل كحبة رمل ملقاة في صحراء واسعة من النجوم يعيش عليه مخلوق كما يعيش مكروب فوق ظاهر الكف لايرى بالعين المجردة اسمه (الإنسان)، ومع ذلك يتفلت هذا المخلوق عن نواميس انتظمت في سلكها السماوات والأرض مذعنة لمن فطرها .. (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ...)[1].

إن الفرق ليتجاوز حدود التصور بين محل إقامتنا الأرض بالمقارنة مع نجوم أخرى فحجم الشمس كمثال يكبر حجم الأرض بمليون ومائتين ألف مرة .. فلو رميت الأرض في جوف الشمس لما شعرت بشيء دخل جوفها .. أما نجم الشعرى الذي ذكره الله بقوله (وأنه هو رب الشعرى) فيزيد حجمه على حجم الشمس بثمانية أضعاف .. وهناك نجم اسمه قيطس Deneb kaitos. يكبر نجم شمسنا ب63مليون مرة.

– وينقل لنا الدكتور الفاضل محمد راتب النابلسي مقارنة بين الشمس ونجم آخر يسمى (بيت الجوزاء) فيذكر أن هذا النجم يكبر شمسنا بمائتين وأربع وسبعين مليون مرة لذلك هذا النجم أكبر من أرضنا بثلاثمائة وخمس وخمسين تريليون مرة .. وإذا أردت أن تقرب صورة الفرق بين أرضنا وهذا النجم العملاق ضع في التصور كرة قدم أمام جبل هائل – لا أدري– أو جبال هائلة من الكرات بعدد هذا الرقم الخرافي المهول.

–كم تبعد هذه النجوم عنا؟

تبعد الشمس حوالي 150 مليون كم من الأرض. أمَّا أقرب نجم للشمس، واسمه (قنطورس القريب)، ويبدو مثل رأس الدبوس؛ فهو يبعد حوالي 40 ألف بليون كم من الأرض. وتحتاج أسرع الطائرات النفاثة إلى مليون سنة لتصل إلى أقرب نجم! لكن حتى هذه المسافة الكبيرة ما هي إلا واحد من مليار من المسافة التي نحتاج لنقطعها إلى أبعد نجم ..

أما أعمار النجوم فقد يصل عمر النجم إلى 15 مليار عام .. ومعظم النجوم قد يصل عمرها إلى مليار وعشرة مليار سنة .. هذه النجوم مستعرة عالية الحرارة قد تزيد عن 2000درجة مئوية ومكوناتها حوالي 75% هيدروجين و 22% هيليوم وآثار من عناصر

---

1 – [الحج : 18].

أخرى .. إنها كتل متفجرة هائلة ومرعبة بحيث قد يصل لسان لهب التفجير الواحد إلى 150 ألف كم في السماء.

التأمل في خلق السماوات والأرض (4-8)

4- أعداد المجرات وما تحويها من نجوم.

يعد النجم وحدة صغيرة من وحدات مكونات عمارة الكون .. فلا يزال أمامنا الوحدات الأكبر المجرات التي قد تشمل المجرة الواحدة مئات المليارات من النجوم ..

فمجرتنا درب التبانة التي ننتمي إليها تقول الأرقام أن عدد نجومها التي نراها تزين صفحة السماء هي ما بين 200-400 مليار نجم .. ناهيك عما يتبعها من كواكب وما يتبع الكواكب من أقمار.

أما المجرات العملاقة فيقدر الفلكيون أن عدد نجوم أحدها قد يصل إلى (ترليون) نجم مثل مجرة الاندريوميت أي عشرة أمامها اثنا عشر صفراً وحجمها يصل إلى نصف مليون سنة ضوئية.

فكم عدد المجرات التي تشكل الكون المنظور؟

يقول الفلكيون في تقدير عدد مجرات السماء أنها قد تصل إلى نحو ترليون مجرة تقريباً وأبعد المجرات التي تم تصويرها تبعد حوالي 10 إلى 13 بليون سنة ضوئية ..

حسنا وهل يسجل هذا الرقم الترليوني للمجرات التي قد يصل عدد نجوم أحدها إلى ترليون أيضا نجم أقول هل تسجل مجموع ما يكوّن السماء ونستطيع القول إن الفلكيين قد وصلوا بذلك إلى حافة الكون؟؟

الجواب. لا.فهذا الحديث دائر عن الكون المنظور في محيط السماء الدنيا فقط .. وما لم يستطيعوا الوصول إليه في السماء الدنيا أسموه (الأفق الكوني المظلم) لا يعلمون ما فيه ولا ما وراؤه.

مرة ثانية هذا الحديث دائر فقط في الكون المنظور من السماء الدنيا وأن هذه السماء نفسها لم يتوقف اتساعها قال تعالى:(وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ)[1] وأن هناك ملايين النجوم والمجرات تلد وتتشكل باستمرار .. سبحان الله ! فماذا يشغل الإنسان هذا الذي سخر له الله ما في السماوات والأرض من حيز يذكر في هذا الكون الواسع والملك العظيم؟ ..

---

1 - [الذاريات : 47].

يقول صبري الدمرداش إن هذا الكون وما يحويه من المجرات والنجوم والأفلاك يشبه مكتبة بداخلها داشيليون كتاب .. في كل كتاب داشيليون سطر .. في كل سطر داشيليون حرف .. فيها حرف وباستحياء يشار إليه برأس الدبوس لنجد فيه كرتنا الأرضية ..

في هذه الكرة مخلوق كمكروب صغير في ظاهر الكف لايرى بالعين المجردة اسمه الإنسان هذا الإنسان نظر إلى نفسه يوما بإعجاب (فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى) [1]وقال(... مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي ...)[2].

لنختم حديث خلق السماء ونقول: ويظل في محيط علم الله وحده مكونات السماء الثانية إلى السماء السابعة ..

على أن خلق السماوات السبع ليس بشيء بالنسبة للكرسي قال النبي عليه الصلاة والسلام " يا أبا ذر ما السماوات السبع من الكرسي إلا كحلقة في فلاة [قال تعالى: (... وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ...)[3] فالكرسي وسع السماوات والأرض .. وفضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلقة " رواه بن حبان والبيهقي. ولقد صفه الله بأنه عظيم (قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ) [4](اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ) [5]

وانظر هذا العرش العظيم الذي يحوي الكرسي ويحوي السماوات السمع والأرض يأتي يوم القيامة يحمله ثمانية من الملائكة قال تعالى: (وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ) [6] كيف لعقل أن يتصور ثمانية من خلق الله يحملون كل هذا الملك؟

-إن الخلق العجيب والملك العظيم والبناء السميك الواسع الذي لم ينفلت ولم يختل توازنه من يحفظه؟ وأي قوة قاهرة هذه التي تمسكه من أن يهوي على بعضه أو تتيه؟ قال المولى تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا ۚ وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ ۚ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا) [7].

---

1 - [النازعات : 24].
2 - [القصص : 38].
3 - [البقرة : 255].
4 - [المؤمنون : 86].
5 - [النمل : 26].
6 - [الحاقة : 17].
7 - [فاطر : 41].

التأمل في خلق السماوات والأرض (5-8)

5- الأرض كروية وتدور حول نفسها:

ذكرت كلمة (الأرض) في القرآن الكريم أربعمائة وخمس وأربعون مرة، شملت الحديث عن بداية خلقها حتى فنائها ... وكل هذا الكم الكبير من التناول لطبيعة الأرض لا نجد هامش تعارض مع حقيقة من الحقائق العلمية المتعلقة بطبيعة خلقها وشكلها .. وكانت أبرز الحقائق المكتشفة حول الأرض التي غيرت التصورات هي شكلها الكروي أو البيضاوي ودورانها حول نفسها.

-وقد احتار بعض علماء الدين الإسلامي في التوفيق بين هاتين الحقيقتين وبين آيتين في القرآن يدل ظاهرهما على وجود تناقض مع كروية الأرض ودورانها ..

الآية الأولى هي قول الله: (وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ) [1]فهي تبدو متعارضة مع التكوير .. وقوله تعالى (أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا ...)[2] وآية أخرى في سورة غافر (64) وتبدو متعارضة مع حقيقة الحركة والدوران .. ولذلك وقبل أن أسرد باقي الأدلة المتطابقة مع هاتين الحقيقتين من الجدير شرح مفهوم الآيتين الكريمتين اجتهادا بقدر من يمدني المولى من فيض توفيقه.

أولا- قوله تعالى (وإلى الأرض كيف سطحت) هذه الآية تناقش من زاويتين ...

الأولى: إذا كان المراد بالنظر الكلي إلى شكل الأرض كله من المدار الخارجي فإن الآية تدل على كروية الأرض لا على أن لها سطحا وسقفا وحافة .. فلو قالت الآية ... وإلى سطح الأرض .. وليس النظر إلى الأرض كلها كيف سطحت لكان المعنى أن لها سطحا وللسطح سقفا وللسقف حافة فهي إذن بهذا المعنى مسطحة لا كروية .. لكنها قالت (وإلى الأرض [كلها] كيف سطحت) أي أن ظاهر الأرض جميعا كله سطح .. وهو ما يعني أننا لن نرى غير سطح .. فلا يوجد حافة لها ولا سقف .. فشمال الأرض سطح .. وجنوب الأرض سطح .. وشرقها سطح .. وغربها سطح .. وكل مكان فيها سطح ..

---

1 - [الغاشية : 20].

2 - [النمل : 61].

إذن الأرض كروية مثلها مثل كرة القدم كل ظاهرها سطح .. والله تعالى إنما يذكرنا بهذه النعمة إذ رغم كرويتها إلا أن كل مكان فيها مسطح صالح للسكنى فالذي في جنوب الكرة لا يسير عليها مقلوبا رغم كرويتها ويبني ناطحات السحاب فلا تتبعثر وتهوي لأن الأرض عنده أيضا ممهدة ممتدة مدحوة كما قال (والأرض مددناها) (والأرض بعد ذلك دحاها) .. ولو لم يكن هذا هو بحد ذاته نعمة لما كان لذكر التسطيح وجه .. هذا إذا كان المراد النظر الكلي أما إذا كان المراد بالنظر الجزئي الذي يظهر أمام الإنسان كما يدل على ذلك الآية التي سبقتها (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت) والخطاب عام فلن يظهر للرائي الرؤية المباشرة منها سوى أنها مسطحة .. وبالتالي لا تناقض فمن المستحيل رؤية كروية الأرض بالعين المجردة والمباشرة.

- معنى قرار الأرض:

كذلك قوله تعالى: (أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً ...) [1]هو أيضا دليل على أنها متحركة غير ثابتة وأن الله جعلها قرارا لانحس بها رغم دورانها وسرعتها الخرافية فهذا السكون هو نعمة من الله ذكرنا بها لنشكره عليها .. ولو لم يكن هذا هو معنى الآية فإنه لا مناسبة للحديث عن نعمة في جعل الأرض قرارا إذا كانت أصلا مستقرة من أساسها .. ولو قال لك البناء: أذكر فضلي عليك أن بنيت لك بيتا مستقرة لا تتحرك ولا تميد فلن يكون لهذا الكلام معنى لأنه ليس من طبع البيوت الحركة وليست صنيعة تستحق الذكر وإنما يقال ذلك إذا كان من طبعها الحركة ثم جعلها قارة غير مضطربة .. وفي موضع آخر يشبه المولى الأرض كالناقة الذلول كما قال سبحانه: (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ) [2] أي: امشوا آمنين رغم حركتها وكلمة (الذلول) يطلق على الدابة المستأنسة فمثلما أن الدابة التي من طبعها السير قد تجمح وتضطرب وتتفلت من زمامها كذلك الأرض هي متحركة وتدور فثبتها الله بأسباب ونواميس فجعل العيش عليها آمنا نبني ونسكن ونشيد الجسور العملاقة والمنشآت الضخمة ولا نحس على ظهرها بغير الأمان ولقد ثبت الله حركتها بالجبال حتى لا تميد من تحتنا قال تعالى (وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ ...)[3].

1 - [النمل : 61].

2 - [الملك : 15].

3 - [النحل : 15].

التأمل في خلق السماوات والأرض (6-8)

6- الأرض كروية وتدور حول نفسها.

بالإضافة إلى ما سبق من الأدلة في التأملات السابق هناك الكثير من الآيات القرآنية التي تشير بوضوح إلى كروية الأرض أو بيضاويتها ودورانها.

فالجبال التي يحدثنا القرآن الكريم أنها نصبت لتثبيت الأرض المتحركة كي لا تميد بنا .. يخبرنا أن هذه الجبال مع المجموع الكلي لخلق الأرض متحركة بحركتها: (وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ۚ ...)[1].

نعم. فالجبال كتروس السيارة تثبتها من التفكيك بسبب حركتها السريعة ولكنها تسير مع سير السيارة وتتجه معها أنى اتجهت.

ثم إن هذا السير السريع والتعاقب الثابت أمام الشمس قد ينفلت ويتوه فينتج عنه ابتعاد الأرض عن الشمس وتنتهي الحياة فيذكرنا المولى أنه يمسك السماوات والأرض أن تزولا:(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا ۚ وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ ۚ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا) [2].

هذا الإمساك بيد القدرة الإلهية يشير إلى وجود حركة أيضا قابلة للانفلات عن فلكها المرسوم .. إن الأرض كالطائرة تسير في خط سير مضبوط بقيادة حكيمة لا تتوه أو تنحرف عن خط سيرها ولله المثل الأعلى ..

ومن أدلة الحركة المتعاقبة تعبير التكوير بين الليل والنهار (... يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ...)[3] والتكوير كما يقول أهل اللغة هو الجمع والتدوير وكورت العمامة أي دورتها وجمعتها .. فالليل يلف حول الأرض خلف النهار والنهار يلف حول الأرض خلف الليل ويستمران يعقب بعضهما بعضا دون أن يسبق أحدهما الآخر لأنهما ناتجان عن دوران الأرض حول الشمس: (لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ۚ

---

1 - [النمل : 88].

2 - [فاطر : 41].

3 - [الزمر : 5].

وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) [1] .. (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) [2].

إذن نحن أمام أفلاك سابحة ومدارات ثابتة وإسناد السباحة لليل والنهار إشارة إلى دوران الأرض .. وليس عندنا إزالة ومحو .. إذ لو كانت الأرض مسطحة غير كروية وثابتة لظهرت الشمس مرة واحدة على الأرض جميعا وانتهى الليل مرة واحدة .. ولامعنى لوجود سباق بين نور ظاهر وظلام مطموس ..

وأن يكون هناك سباق لا ينتهي وتعاقب لاينقطع كما سبق وكما قال الله في آية أخرى (... يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا ...)[3] فإنه لا يكون إلا بسبب وجود دوران كروي مستمر أمام مصباح يكون سطح الكرة المقابل مضاء وخلفها مظللا فإذا تحركت الكرة حدث التعاقب بين ضوء المصباح وظله .. ويكون التظليل والإنارة متدرجا بتدرج الحركة شبهتها الآية الكريمة في سورة يس بالسلخ (وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ) [4]والسلخ يكون متدرجا يبدأ بنقطة ثم يتدرج حتى آخر نقطة كما يسلخ الجزار جلد الشاة وبهذا المعنى تنتهي فكرة الظهور فجأة والاختفاء فجأة.

ويقرب من تعبير السلخ الولوج قال تعالى: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ...)[5]والمعنى أن الليل يولج (يدخل) ودخول شيء في شيء وخروج الشيء من الشيء يكون متدرجا قال تعالى:(وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا) [6].

أي أظلم وأخرج من الليل النور علما أن الأصل في الكون الظلام .. ومنه قوله تعالى: (والليل إذا عسعس * والصبح إذا تنفس) الليل يبدأ بالعس متدرجا والصبح يبدأ بتنفس الضوء متدرجا .. فالليل يسير خطوة خطوة ولايهجم مرة واحدة قال المولى: (وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ) [7] يسري، أي: يمضي تأكيدا لانتفاء فكرة الظهور الكلي المفاجئ.

-ولذلك كثرت مطالع الشمس فلايوجد لها مطلع واحد وظهور واحد بل لكل أرض مطلع مستقل تظهر له الشمس .. وكمثال .. اليمن مطلع .. والمغرب مطلع .. وأمريكا مطلع

---

1 - [يس : 40].
2 - [الأنبياء : 33].
3 - [الأعراف : 54].
4 - [يس : 37].
5 - [لقمان : 29].
6 - [النازعات : 29].
7 - [الفجر : 4].

.. واندونيسيا مطلع .. وهكذا بقية الأقطار قال تعالى: (فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ) [1] (رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ) [2].

ويدخل تحته قول المولى: (رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ...)[3] فالمراد مشرق ومغرب كل منطقة على حدة أما قوله: (رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ) [4]

فالمراد مشرق ومغرب الشتاء ومشرق ومغرب الصيف، كما أن مشرق بلدة هو مغرب أخرى والعكس ولا تعارض كما يقول المفسرون.

فإذا كان في آسيا ليلا فإنه في أمريكا نهارا والعكس ولذلك عندما تحدث الله عن قيام الساعة التي تأتي بغتة ذكر احتمال وقوعها ليلا أو نهارا فقال: (... حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا ...)[5] إذ لايخلو أن يكون نصفها ليلا والنصف الآخر نهارا بسبب كرويتها وذكر الزمن هنا لتأكيد شمولها جميع سكان الأرض.

1 – [المعارج : 40].
2 – [الصافات : 5].
3 – [المزمل : 9].
4 – [الرحمن : 17].
5 – [يونس : 24].

التأمل في خلق السماوات والأرض (7-8)

7-الانهيار الكوني العظيم (القيامة).

• تحدثنا آيات القرآن الكريم أن الله تعالى رفع السماء بميزان يحفظ بناءها قال تعالى: (وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ)[1]. وحبكها بما نراه من توزيع مدهش للنجوم والمجرات قال تعالى: (وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ) [2].

وأن هذه التشكيلات النجمية تزين السماء بمئات المليارات من الوحدات النجمية العملاقة وتسير في خطوط سير ثابتة .. وأفلاك مرسومة .. لا تتداخل فيما بينها .. ولا يسبق بعضها بعضا.

ولقد استمر هذا البناء الثابت والموزون والمنتظم في السير قائما بمهمة التسخير منذ 14 مليار سنة كل ذرة فيه طائع لله خاضع لإرادته.

ثم ماذا؟

قال تعالى : (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ * وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ) [3].

لقد سبق في المشيئة الإلهية أن كل شيء مآله إلى الفناء (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ *وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ) [4]

وكل محدث يفنى .. والعلماء يقررون أن هذا الكون بعد حدوث الانفجار الكوني العظيم big bang سيتعرض إلى التدمير وسيعود مجتمعا كما كان.

فمع حدوث هذا الانفجار تعرض الكون إلى قوة دفع أمامية كأي مادة انفجارية دافعة تدفع بالمادة إلى أعلى .. وأن هذا الدفع الانفجاري يتعرض حاليا للآتي ..

الأولى: حالة تعاكس مع قوة الجذب نحو مركز الإنفجار.

---

1 - [الرحمن: 7].

2 - [الذاريات:7].

3 - [القمر:49- 50].

4 - [الرحمن:27].

الثانية: حالة تناقص مستمرة إلى أن تصل إلى درجة الاستواء بين قوة الدفع وقوة الجاذبية المعاكس للعودة مجددا نحو المركز.

الثالث: حالة انتهاء قوة الدفع تماما لصالح قوة الجذب وهنا يحدث الانهيار العظيم لبناء السماوات والأرض ودمار الحياة والانسحاق الشامل لعمارة الكون.. فمتى ما أذن الله بنهاية هذا الكون وانفراط عقد نظامه رفع يد القدرة التي تمسك به .. ونفخ بإذنه صاحب الصور في الصور نفخته الأولى: (فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ*وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً* فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ*وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ) [1].

فينفرط عقد نظام الكون وتصبح السماء ذات الحبك واهية منفلتة الأركان .. محطمة الأعمدة .. فتنشق وتنفطر وتتبعثر النجوم والكواكب ..

وإن آيات القرآن الكريم لتبرز لنا لوحة متكاملة لأحداث هذا الانهيار الكوني الهائل لمئات المليارت من المجرات ومئات المليارات من النجوم يقول المولى جل جلاله: (إذا السماء انشقت* وأذنت لربها وحقت) (إذا السماء انفطرت* وإذا الكواكب انتثرت) (يوم تمور السماء مورا) وتكشط من مكونات بنائها (وإذا السماء كشطت) فتغادر النجوم أفلاكها ومساراتها المرسومة ويقصف بعضها بعضا وتنفصل وتجتمع كل هذا والناس يشاهدون مسلسل الدمار الكبير فتصبح الأفئدة هواء وتتحير الأبصار (فإذا برق البصر * وخسف القمر*وجمع الشمس والقمر*يقول الإنسان يومئذ أين المفر) .

وتغزو السماء سكان الأرض بعاصفة من الجبال والأجرام المرسلة بعد زوال السقف المحفوظ وهو الفراغ المداري الذي كان يمنع تساقطها .. فتصبح الأرض كالسفينة الهائمة في لجة البحر تضربها الأمواج من كل جانب أو كالقنديل المعلق بالعرش تهدهده الرياح العاتية [2]) فتزلزل الأرض زلزلة عظيمة وتنشق من قطر إلى قطر .. ولا يبقى موضع أصبع في الكون إلا وهو مجال فناء وتدمير ..

* وتمتلئ جنبات الكون بدوي الصور الذي يصخ الأسماع ويقرعها بعنف شديد قال الله تعالى :(القارعة* ما القارعة*وما أدارك نا القارعة*يوم يكون الناس كالفراش*وتكون الجبال كالعهن المنفوش).

---

1 - [الحاقة:16].

2 ينظر كتابنا رحلة قبل الرحيل ص51 دار ابن حزم- بيروت ..

أما هذه الجبال العملاقة فتتطاير كالصوف وهو قوله تعالى: (وتكون الجبال كالعهن المنفوش) بعد أن تنسف نسفا كما في سورة طه: (ويسألونك عن الجبال* فقل ينسفها ربي نسفا*فيذرها قاعا صفصفا لاترى فيها عوجا ولا أمتا) ومنها ما يصبح كتلال الرمل (كثيبا مهيلا) لعل ذلك بفعل الأجرام السماوية التي تغزو الأرض فتزلزلها وتدكها دكا وتسوي كل شيء في قاع واحد.

*وتتعرض البحار والمحيطات للانفجارات الهيدروجينية التي تتجاوز حدود التصور البشري

ويقدر المهتمون بتوجيه الآيات الكريمة أن ذلك قد يكون بسبب اقتراب الشمس وارتفاع حرارة الأرض .. أو بفعل تفجر قيعان البحار وتوفر حرارة فرنية عالية وتعرض إحدى ذرات الماء الثقيل لضغط هائل يؤدي إلى تفجرها.

وايا كان السبب فالقرآن الكريم يحدثنا عن حقيقة تعرضها للتفجير قال تعالى:(وإذا البحار فجرت) وقيل بل ستموج وتغادر أخاديدها وتغرق الأرض لكن ترجيح التفجير يؤيده آيات أخرى كقوله تعالى:(والبحر المسجور) (وإذا البحار سجرت) .. والتسجير الإشعال ومنه سميت السيجارة.

*وهكذا ينهار الكون ليعود كما بدأه الله أول مرة قال تعالى: (يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَا ۚ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ)[1].

وقال:(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ) [2].

والآيات تدل على أن أحداث الساعة ستستمر حتى قيام الناس لرب العالمين يوم النشر والحشر.

1 - [الأنبياء:104].

2 - [الزمر:67].

التأمل في خلق السماوات والأرض (8-8)

8- بدء خلق الإنسان وفنائه.

قال تعالى في البدء:(أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا) [1]: (هل أَتَىٰ عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا) [2] وقال في المعاد: (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ) [3] بين البدء والإعادة سيرة حياة أكرم مخلوق خلقه الله جاء في آخر فصل من فصول الدنيا قبل فنائها وليس إلا له خلق الله السماوات والأرض .. إنه خلق عظيم لمهمة عظيمة ولكن بقصة موجزة وصغيرة.

-جاء الإنسان من صلب أبيه بصحبة نحو 200 مليون خلية منوية في قذفة واحدة كلها ماتت وانتهت كلا شيء إلا هو اختاره الله لشرف عبادته .. ويحدثنا المولى عن أطوار خلق الإنسان في ظلمات ثلاث وبشكل من التناول الإعجازي الدقيق والعميق بحيث لايسع العقل المنصف سوى أن يركع في محراب آياته. اسألوا علماء الأجنة والتشريح عن هذه الآيات التي تناولت أطوار خلق الإنسان هل هي خطأ أم صحيح 100%؟؟؟ قال تعالى: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ* ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ) [4]. فلو كانت خطأ لتسببت في الكفر الجماعي للمسلمين ولكانت مدخلا أي مدخل لكلام يتحدث عن أسرار دقيقة لاعلاقة له بالنتائج العلمية التشريحية من قريب ولا من بعيد .. وإذا كانت صحيحة 100% فلماذا لا تسلمون وتخضعون لمن هذا كلامه؟؟

-لولم يكن في القرآن إلا هذه الآيات لكانت هي الفيصل بيننا وبين الكفار والملحدين والعلمانيين .. إما أنها خطأ فبينوا وجه الخطأ فيها أو أنها صحيحة سبقت الاكتشافات العلمية ب 1400عام فليس أمامكم من عذر سوى الخضوع للخالق .. كانت النظرية الغربية تقول إن الإنسان ينزل في مني أبيه مكتمل الخلق بعينين وأنف وقلب .. ألخ لكن بحجم صغير جدا ثم يكبر ويكبر مع مرور الوقت حتى إذا بلغ أشهرا تسعة ثقل على بطن أمه وسقط .. وها هو الإنسان في الآية الكريمة يبدأ نطفة بعد تلقيحها ببويضة الأم فتصبح (نطفة أمشاج) لن أتحدث

---

1 - [مريم : 67].

2 - [الإنسان : 1].

3 - [المؤمنون : 115].

4 - [المؤمنون :12- 14].

عن جدلية y x كبتل اسمول والمسئول عن نوع الجنين الذي خاض فيه أيضا النص القرآني لأن الكلام فيه يطول .. ثم يصبح كعلقة يعلق بجدار الرحم .. ثم يتحول إلى هيئة مضغة الطعام .. إلى أن يكتمل خلقه.

-السؤال الآن هذا الخلق في الظلمات الثلاث تم تزويده بأجهزة لا علاقة لها إطلاقا بمحل المنشأ (الرحم) .. زود فيه بعينين ليرى بهما ولسان ليمضغ به وشفتين لينطق بهما وخلق الله له يدين ليبطش بهما وقدمين ليمشي بهما .. لا ليستخدمها في حياة الرحم بل ليستخدمها في حياة قادمة يحتاج فيها لأن يرى ويسمع ويأكل ويتكلم ويبطش ويسير!!!

-فمن هذا الذي عرف أنه سيغادر بيئته هذه إلى بيئة أخرى تقتضي هذا التدبير؟ وسيترك حياته هذه إلى حياة أخرى يحتاج معها إلى كل هذه الأجهزة؟؟؟؟؟ من فعل كل هذا؟ هل هي الأم؟ أم الأب؟ أم الطبيب؟ أم خلق هكذا من غير شيء (أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ) [1](أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ*وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ* وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ) [2] .. ثم بعد تزويده بالأجهزة وتلبيسه بالجلد أنشأه الله خلقا آخر بأحسن صورة وأحسن شكل الآن تأمل في جمال خلق عينيه وحاجبيه، ورمشيه، وأذنيه، وكل شيء فيه، لو أحضرنا أمهر فنان بأحسن الألوان والريش وطلبنا منه أن يرسم صورة أحسن من الإنسان خلقا وهيئة وجمالا .. هل يستطيع؟ (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ) [3]. ويطل على الدنيا ليبدأ مباشرة بممارسة متطلبات هذه الحياة الجديدة فيتنفس ... من أين جاء له التنفس التلقائي ويلتقم ثدي أمه .. من أخبره أن غذاءه في هذا المكان وأن الحصول عليه يكون بطريق المص إنه الذي (خلق فسوى* والذي قدر فهدى) .. بل من أوجد الحليب في ثدي أمه مباشرة ثم إذا بدأت مرحلة الاستغناء عن طعام الثدي بدأت الأسنان تنمو منوعة من آلات التمزيق والتقطيع والطحن وبدأ الاستعداد للأكل ومضغ الطعام والاستغناء عن الأم التي قدمت له الغذاء المناسب لعوده الطري .. فمن الذي زوده بالأسنان في هذه المرحلة إن لم يكن هو الله رب العالمين؟؟؟؟ على أن هذه التناولة لا تساوي شيئا أمام الحديث عن الإعجاز الكلي لخلق الإنسان.

بسم الله الرحمن الرحيم: (وَفِي أَنْفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ) [4].

---

1 - [الطور : 35].

2 - [البلد:8 - 10].

3 - [التين : 4].

4 - [الذاريات : 21].

ثلاث آيات كانت عندي شبهات

تقرأ الآية في القرآن وربما تحيرت فيها وفي معناها، وقد تعيش معك كشبهة وموضع استشكال، أو بقيت عليك مشتبهة إلى أن يأتي الوقت الذي يجلي ما غمض فيها ويبرز أنوار إعجازها، وهنا لابد من القول أن من غير اللازم الإيماني فهمك لكل شيء في الدين، والحصول على تفسير لكل شيء، بل قد يموت المؤمن قوي الإيمان ولديه نصوص مشكلة سواء في القرآن الكريم أو في السنة المطهرة، ذلك أن الكثير من الآيات قد تكون مرتبطة بسياقات زمنية لم يحن وقتها بعد وهو معنى قوله تعالى: (وما يعلم تأويله إلا الله) وأنا واحد من ملايين المؤمنين الذين أشكل عليه فهم آيات إشكالا ظاهريا، فلم يقارب العقل كنه معناها حتى صارت بالبحث من المحكمات بعد أن كانت من المتشابهات .. من ذلك ثلاث آيات جليلة نسوقها كالتالي:

** **الآية الأولى** قول الله تعالى : (وَأَرسَلنَا الرِّياحَ لَواقِحَ فَأَنزَلنا مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَسقَيناكُموهُ وَما أَنتُم لَهُ بِخازِنينَ) [1].

فما أكثر ما توقفت عند قوله: (وما أنتم له بخازنين)؟ فالماء يمكن تخزينه في الخزانات وفي السدود .. والأرض تخزن في جوفها أحواضا لملايين السنين، وكان قد صادف أن قرأت منقولا عن أحد الشيوعيين إبان حكم جمال عبد الناصر تعليقا له على افتتاح السد العالي ما معناه: ها نحن خزنا الماء لمن قال (وما أنتم له بخازنين) فزاد ذلك من قلق التساؤل.

حتى وجدت لعالم مصري كلاما إعجازيا حول الآية أعادني إلى سياقها (فأسقيناكموه) فالآية تتحدث عن خزن الماء في جسم الإنسان لا في الطبيعة، أما التخزين في الطبيعة فوارد كما تدل على ذلك الآية: (وَأَنزَلنا مِنَ السَّماءِ ماءً بِقَدَرٍ فَأَسكَنّاهُ فِي الأَرضِ وَإِنّا عَلى ذَهابٍ بِهِ لَقادِرون) [2]، قوله (فأسكناه) دليل إمكان تخزينه في الأرض، أما جسم الإنسان فلايخزن شيئا منه زائدا عن الحاجة إطلاقا، فما زاد عن حاجته هناك ست عشرة طريقة للتخلص من الزائد مثل: البول .. العرق .. الدموع .. بخار التنفس .. الخ ومتى زاد الماء ينبه جهاز الإشعار بالحاجة إلى التفريغ فورا، بخلاف الزيادة في الطعام فهو يأخذ وقتا للهضم وإن زادت الوجبة

---

1 – [الحجر: ٢٢].

2 – [المؤمنون: ١٨].

عن حدها؛ أما الزيادة في الماء فإنها لاتتأخر لأن بقاءها سيفسد توازن عناصر الجسم من بوتاسيوم .. جلكوز .. أملاح .. الخ

والمسؤول الأول عن التخلص من الماء الزائد في الجسم هو المخ، والقلب، والكبد، والكلى، فإذا مرض جزء من المخ أو حدث هبوط في القلب، أو تليف في الكبد، أو فشل في الكلى حدث استسقاء، وانتفخ الجسم بالماء لعدم القدرة على التخلص منه، واختل توازن عناصر الجسم، كما يختل توازن عناصر كوب الشاي فيفسد إذا زادت نسبة الماء على بقية النِّسب.

** **الآية الثانية** قوله تعالى: (وَهُوَ الَّذي يُرسِلُ الرِّياحَ بُشرًا بَينَ يَدَي رَحمَتِهِ حَتّى إِذا أَقَلَّت سَحابًا ثِقالًا ...)[1]. وفي آية أخرى: (... وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ) [2].

فكان تساؤلي عن السحاب تكون ثقيلة؟ ونحن في المناطق الجبلية نجد الضباب ينزل يزحف بلا وزن ولا جرم، ولو كان ثقيلا وذا وزن لسحق القرى وهدم البيوت، وهاهي الطائرة تخترق السحب فلا يعيقها، فكيف يكون السحاب ثقيلا ولاوزن له .. أيوزن الهواء؟.

ثم جاءت الدراسات والعلم لتقول إن الغمامة الصغيرة قد تزن من الماء ما يصل إلى 200 طن، أما السحب الركامية فقد تزن الواحدة 1 مليون طن .. وأين وجه العجب إذا كانت تمطر أحيانا فتخلف بحرا من الماء ربما أغرق المدن، وسيولا جارفة لو وزنت لكانت مئات الآلاف وربما ملايين من الأطنان .. ولكن لماذا لانحس بها سحابا؟ إنه لمن لطف الله أن الماء إذا تبخر صار أخف من الهواء فلو احتفظ بوزنه لما ارتفع، ثم لو ارتفع وسقط كتلة واحدة دون تجزئة لسحق الإنسان وخرب المعمور، فكان نزوله أيضا في قطرات إعجازا ودليل عناية ولطف.

** **الآية الثالثة:** قوله تعالى: (بَلى قادِرينَ عَلى أَن نُسَوِّيَ بَنانَهُ) [3].

كان تساؤلي فيها عن اختصاص البنان بذكر القدرة على إعادتها، فلا هي أصعب تركيبا من القلب والسمع والعين مثلا ولا أهم منها، فالإنسان يستطيع أن يعيش بلا ذراع فضلا عن البنان، وأسهل من أن يعيش بلا بصر أو سمع .. غير أن اطلاعي على خصائص البصمة وقضية هوية كل فرد في استقلال تعرجها كشفرة خاصة به تُميزه عن ملايين البشر، بين سر ذكر البنان لدي، والبنان بخاصة لأن الوجوه، والأطوال، والأحجام الآدمية تتشابه كثيرا وربما

---

1 – [الأعراف: ٥٧].

2 – [الرعد : 12].

3 – [القيامة: ٤].

صعب في دول كالصين، واليابان، وكوريا، وأفريقيا، وبعض دول الغرب التمييز بسهولة بين مئات المتشابهين، والشيء نفسه في تشابه التوائم لكن بصمة الأصابع العشر هي عالم الفرد المستقل الذي يميزه عمن سواه.

قد يقال فإن لكل فرد في قزحية العين أيضا بصمته المستقلة وكذلك الصوت، والجواب: أن بصمات الإنسان كثيرة ولكنها غير عملية كبصمات الأصابع، فبصمة العين تحتاج إلى بيئة خاصة لتوثيقها ومطابقتها، وأهم عيوبها أنها لاتتم إلا بتعاون الفرد نفسه، وثانيا تنتهي بلحظة وفاة الإنسان، بينما تبقى بصمة البنان بعد خروج الروح وفي المتناول في أي وقت بلا تقنيات خاصة.

وعليه فهذه البصمات الفردية سيعيدها الله يوم القيامة لأصحابها دون أن تتغير أو تتكرر لتكون إحدى حجج الله على العبد يوم القيامة، مثلما كانت أحد مصادر الاستدلال في الدنيا.

لقد ذكرتني هذه الغوامض في النصوص إلى الأجيال السابقة الذين قرؤوها بتسليم تام دون أن يجدوا لها تفسيرا، وكانت كفايتهم أن يقولوا: الله ورسوله أعلم ونحوه .. حتى تجلت لنا في العصر الحديث، فكانت هذه الآية خطابا خاصا بنا: (وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا ...) [1].

إنها تمثل عدل الله فإذا كان في زمن الوحي معجزات نبوية ثبّتت من إيمان الصحابة، وإذا كان في حياة التابعين معاينة لنبوءات عن وقائع ستقع، كالفتوحات والتمكين ونحوها، فإن لنا أيضا في عصر الاستضعاف معجزاتنا الخاصة.

وهذا يكشف لنا سبب عدم تفسير النبي صلى الله عليه وسلم القرآن للصحابة؛ لأن كثيرا منها قد لاتحتملها عقولهم، فتولى الله مسؤولية بيانها في قوله: (ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ) [2].

1 – [النمل : 93].

2 – [القيامة : 19].

ثلاث ظلمات سبق إليها القرآن

إن آيات القرآن الإعجازية أبعد من أن تُحدّ بحدود، ولكني أتناول أقربها إلى فهم القارئ منها الآيات التي تحدثت عن ثلاث ظلمات لم يكن إلى كشفهما سبيل بغير وسائل اعلم الحديث وهما: ظلمة البحر اللجي، وظلمة السماء، وظلمة الرحم، وذلك كالتالي:

1-ظلمة البحر اللجي:

** الظلمة الأولى ظلمة البحر اللّجي في قوله تعالى: (أَو كَظُلُماتٍ في بَحرٍ لُجِّيٍّ يَغشاهُ مَوجٌ مِن فَوقِهِ مَوجٌ مِن فَوقِهِ سَحابٌ ظُلُماتٌ بَعضُها فَوقَ بَعضٍ إِذا أَخرَجَ يَدَهُ لَم يَكَد يَراها وَمَن لَم يَجعَلِ اللَّهُ لَهُ نورًا فَما لَهُ مِن نورٍ) [1].

البحر اللجي: هو البحر العميق، وعادة يكون في المحيطات، ولم يكن في وسع الإنسان قبل استخدام الأوكسجين أن ينزل في البحر إلى عمق أكثر من 20 مترا، لأنه أولا لايستطيع البقاء دون تنفس لأكثر من ثلاث دقائق، وثانيا لن يستطيع كذلك الإنسان المعاصر أن يتجاوز بدون غواصة مسافة 30 مترا لأن ضغط الماء في هذا العمق يعادل أربعة أضعاف الضغط الجوي، وعندئذ يذوب غاز النتروجين في الدم ويؤثر على عمل المخ، أما إذا تجاوز هذه المسافة فإن الضغط سيهرسه .. وتنعدم الرؤية تماما على بعد 10000متر المسافة التي لاتصلها سوى الغواصات، علما أن أعمق منطقة في المحيطات تصل إلى نحو 11 كم، ولا تصلها إلا غواصات ذات مواصفات خاصة لشدة ضغط الماء الهائل.

أما سبب انعدام الرؤية فيعود إلى الظلمات الثلاث في الآية الكريمة، وظلمات أخرى تسمى ظلمات الألوان كما سيأتي قال تعالى: (ظلمات بعضها فوق بعض)

أولا – ظلمات الموج (إذا تموّج الماء الساكن تكسر بسببه الضوء):

-الظلمة الأولى ظلمة الموج الداخلي للبحر اللجي ولم يكتشف إلا سنة 1973م عبر الأقمار الصناعية، حيث وجدوا عبر الاستشعار جبالا من الأمواج الداخلية، وترتفع أمواجه من 10 أمتار إلى 100متر، وهذا الموج الداخلي غير الموج السطحي الذي نراه.

والسبب في وجود موجين في بحر واحد، هو اختلاف خصائص البحر العميق عن السطحي، يعود إلى كثافة ملوحة البحر العميق واختلاف الحرارة، وأضرب لذلك مثالا

---

1 – [النور: ٤٠].

تصويريا للتقريب، لو أضفنا ماء فوق مادة الديزل (السولار) في خزان بنسابة واحدة فسيبقى لكل مادة خصائصها، ولو حركنا الخزان سيكون للديزل تموج خاص به، وللماء تموج خاص به.

– ثم تليها ظلمة الموج الخارجي السطحية التي يتكسر أيضا بسببها الضوء النافذ، ويساعد على تعتيم الروية تحت الماء.

– ثم ظلمة السحاب، وعادة ما تغطي المحيطات سحب كثيفة ناتجة عن الأبخرة المتصاعد بفعل حرارة الشمس .. فتجتمع معنا ثلاث حوائل تحجب الضوء.

– ظلمات الألوان البحرية:

يضاف إلى ما سبق من ظلمة البحر اللجي ظلمات الألوان، فلو افترضنا أن بحّارا غاص في البحر ومعه سبعة ألوان في مربع زجاجي وهي على الترتيب: اللون الأحمر .. البرتقالي .. الأصفر .. الأخضر .. الأزرق .. النيلي .. البنفسحي، وتسمى الموجات اللونية السبعة، فكل لون سيختفي عند عمق معين.

وعلى ترتيب العالم المصري/ صبري الدمرداش [1] فاللون الأحمر سيختفي عند عمق 20 مترا .. وعند عمق 80 مترا سيختفي اللون البرتقالي .. وعند عمق 100 متر سيختفي اللون الأصفر .. وعند عمق 240 مترا سيختفي اللون الأخضر .. وعند عمق 580 مترا سيختفي اللون الأزرق .. وعند عمق 800 متر سيختفي اللون النيلي .. وعند عمق 1000 متر من سطح البحر لن يرى الرائي شيئا (ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها) لأن هذه الألوان هي ألوان الطيف السبعة التي تشكل الضوء.

وحين تحدث الله عن (ذا النون) عليه السلام قال: (.. فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ ...)[الأنبياء : 87] فلم تكن ظلمة جوف الحوت وحدها بل ظلمات.

2– ظلمة السماء:

الأصل في السماء الظلام، حيث يلف الكون ظلام دامس، ولا يخرق ظلام الكون إلا نجم ملتهب هنا أو هناك، لذلك يمثل الضوء 5% فقط من حجم الظلام .. وهذه الحقيقة تكلم عنها القرآن الكريم، ولم يكن في وسع الإنسان أن يكتشف هذه الحقيقة إلا في عصر المراصد والأقمار الصناعية.

---

1 – في برنامج (أكثر الناس) الأسبوعي الذي كان يديره الدكتور الداعية محمد العوضي على قناة الرأي الكويتية منذ 2012م.

وعند صعود الإنسان في (الفضاء) الخارجي وجد نفسه غارقا في ظلام دامس .. ورأى الشمس نجما من النجوم، فالنهار الذي نعرفه لايتعدى الغلاف الجوي، فإذا تجاوزناه لا يعقبه نهار، قال تعالى : (ولَو فَتَحنا عَلَيهِم بابًا مِنَ السَّماءِ فَظَلّوا فيهِ يَعرُجونَ* لَقالوا إِنَّما سُكِّرَت أَبصارُنا بَل نَحنُ قَومٌ مَسحورونَ) [1] سكرت أبصارنا: أي أظلم عليها فلم تعد ترى شيئا، قال ابن كثير: سدت أبصارنا، وعن ابن عباس: أخذت أبصارنا، وقال الكلبي: عميت أبصارنا.

والآيات في هذا كثيرة، فما اجتمع الليل والنهار في آية إلا وكان الليل الأول والنهار معطوفا عليه وذلك لأصالته، ومن أدلة ذلك قوله ثناؤه: (... يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً ...)[2] فالليل الشامل يطلب النهار الحادث سريعا كأنما خاصية السيطرة والإحلال له لا للنهار .. ومنه (وَآيَةٌ لَّهُمْ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ) [3]شُبّه الليل بالشاه لأنه الأصل، وأما النهار فيزول عن الليل ويسلخ عنه كما يسلخ جلد الشاة بتحول النجم الذي أحدثه ويبقى الظلام (فإذا هم مظلمون).

3- ظلمة الرحم:

وهي مستودع الرحم، الذي يقع تحت ظلمة البطن، وظلمة المشيمة، وظلمة الرحم قال تعالى: (.. يَخلُقُكُم في بُطونِ أُمَّهاتِكُم خَلقًا مِن بَعدِ خَلقٍ في ظُلُماتٍ ثَلاثٍ ...)[4] والعجيب أن هذه الظلمات تحدث عنها القرآن الكريم بالتفصيل، ولم يندّ منها وصف واحد عن الحقائق العلمية الحديثة، فتحدثت الآيات عن أطوار خلق الجنين في هذه الظلمات الثلاث بتصوير متناه ودقة لا مزيد عليها، تجاوزت في دقتها أوصاف علماء الأجنة، فمن ماء، إلى نطفة، إلى علقة، إلى مضغة، إلى عظام، إلى لحم فكساء اللحم بالجلد، وعند اكتمال هذه الأطوار في الشهر السادس يكون قد اكتسب الروح، وبات خروجه ممكنا (ثم أنشأناه خلقا آخر) وهو خلق الجنين بمواصفات مناسبة لحياة لا علاقة لها بحياة الرحم .. حياة أخرى تحتاج إلى قدمين للسعي .. وإلى يدين للبطش .. وإلى عينين للنظر وإلى لسان للكلام والمضغ، فمن أوجدها في الرحم وعلم ضرورتها لحياة أخرى سوى الله (فتبارك الله أحسن الخالقين).

---

1 - [الحجر:14- ١٥].

2 - [الأعراف : 54].

3 - [يس : 37].

4 - [الزمر: 6].

قانون الزوجية يساوي وحدانية الخالق

كل شيء في الوجود محكوم بقانون الزوجية والثنائية التكاملية .. من الذرة وما دونها إلى المجرة وما فوقها .. قال المولى تعالى: (وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ...) [1] هكذا يقول القرآن الكريم وهكذا يقول العلم الحديث .. ما معنى ذلك؟ وما نأخذ منه؟

تعني الزوجية أن كل شيء مخلوق له طرف مقابل يكمله، فالذرة من قطبين سالب وموجب .. من البروتونات قطب موجب، والالكترونات قطب سالب .. هذا على مستوى الجماد .. والذرة هي المكون الأول لعالم الجماد، وتتكون خلية الإنسان المولود الأوى من الحيوان المنوي للأب والبويضة من الأم، من 23 كروموزوم من الأم ومثلها من الأب، فيكون مجموع مكونات الخلية من الوليد من الكروموزومات 46، فيحمل المولود الصفات الوراثية (DNA) من كلا الأبوين، أي أن أحدهما لايستقل بمكونات المولود.

وتشمل الزوجية كل المخلوقات الحية من ذكر وأنثى، فيشمل الحيوان: الرجل والمرأة الأسد واللبوة .. الحمار والإتان .. الثور والبقرة .. الناقة والجمل .. ويسري القانون على الحشرات وما هو دونها قال تعالى: (وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَىٰ) [2]. كما يشمل هذا الشجر والنبات: (سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ) [3] (أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ) [4].

وإننا لنجد الزوجية على مستوى المعنويات .. حق وباطل .. خير وشر .. حب وبغض .. إيمان وكفر .. صدق وكذب..إلخ

وعلى مستوى الجهات شرق غرب .. سماء أرض .. بحر يابسة ..

وعلى مستوى المقاييس طويل قصير .. بدين نحيف .. وهلم جرا.

فماذا نأخذ من تركيب الحياة على نظام الزوجية؟

أولا- الزوجية تعني أن وجود قيمة الشيء مرهون بطرف آخر .. فصار لا معنى للشيء إلا بوجود نقيضه .. ولذا قالوا بضدها تعرف الأشياء .. فلولا الظلم ما عرفنا شيئا اسمه العدل ولاتعشقنا وجوده .. ولولا القبح ما عرفنا شيئا اسمه الجمال ولا تغزلنا به ..

---

1 - [الذاريات: 49].

2 - [النجم: 45].

3 - [يس: 36].

4 - [الشعراء: 7].

ولولا التعب ما عرفنا قيمة الراحة ولاحمدنا الله عليها .. ولولا الظمأ ما عرفنا قيمة شربة الماء الباردة ولا قدرنا نعمة الله عليها وهكذا ..

ثانيا– إن نظام الزوجية تعني أن كل طرف من الذكر والأنثى ليس مستقلا بنفسه في بدء خلقه ولا في بقائها .. فكل من الزوجين مفتقر للآخر، ولو لم يوجد أحدهما لما كتبت للآخر الحياة.

ومعنى ذلك أن كل المخلوقات لم يخلق أي منها نفسه ومن باب أولى لم يخلق غيره .. فلو خلق نفسه لخلقها كاملة غير مفتقرة لطرف آخر يكمله، ولما ترك نصفه وديعة طرف معادل، ولما ألجأ نفسه لقانون الاحتياج هذا .. فنحن نجد على مستوى الإنسان أن مكان الحيوان المنوي في أصلاب الرجال الطرف الذكر .. ومكان البويضة في ترائب النساء الطرف الأنثى، فالإنسان مشطور بين جهتين متساويتين فمن فرقه؟ ثم من جمعه؟ ثم من أوجده بعد ذلك من الطرفين؟ ثم من قسم الوظائف بين الزوجين نصفين بحيث لا يستغني أي من الطرفين عن الآخر.

ولو سلمنا بنظرية التطور الداروينية لكان السؤال عن كيفية حدوث التوافق اللحظي في الإيجاد بين الحيوان المنوي والبويضة .. ولنقل إنها خلقت الطبيعة الذكر أولا فكيف جاءت إليه الأنثى؟ وكيف عرفت الطبيعة أن هذا المخلوق لايزال له طرف آخر فوضعت له جهازا تناسليا مرسلا للتخصيب، وتركت جهازا تناسليا مستقبلا مع الأنثى التي جاءت لا حقا؟ وأبقت مع الأنثى الرحم الذي سيتكون فيه النسل، وزودتها باللبن في ثديين ليس في الطرف الأول الذي أوجدته الطبيعة في مرحلة سابقة؟

ثم كم المدة التي احتاجها الذكر حتى صنعت له الطبيعة الزوجة إذ لو تأخر مجيء الأنثى لمات الطرف الذكر؟ فنظرية التطور تفترض للانتقال من مرحلة إلى مرحلة ملايين السنين، ثم لو وجدت في حياته فكيف جاءت إليه؟ لمَ لم تخلق أيضا صدفة في أي مكان آخر فلا يهتدي أحدهما للآخر؟

وهذه التساؤلات وعشرات من مثلها تشمل الإنسان وكل أشكال الحيوانات، والحشرات فكلها مكونة من ذكر وأنثى؟ فكيف حدث لها هذا التوافق العجيب بين الزوجين في زمن الخلق، ومكان الخلق، وفي تقسيم الوظائف؟ هذا إذا قلنا إنها خُلقت هكذا اعتباطا؟ ثم كيف عرفت الطبيعة الخرساء أن استمرار أحدهما لن يتم إلا بالتقاء الطرفين عن طريق شهوة غرائزية؟ كيف أوجدت هذه الرغبة الغريزية فأودعتها في الطرفين؟ وكيف صممت لهذا جهازا. مرسلا عضوا ذكريا وهذه جهازا مستقبلا. الرحم؟ إن من يقول إن ذلك كله قد حدث

صدفة في الزمان والمكان والتوزيع الدقيق الإعجازي لمئات الوظائف التكاملية فهو مجنون وعليه فكل الكفار والملحدين مجانين لا عقل لهم خرافيون لا احترام عندهم لعلم.

ومن يقول إن ذلك لايمكن أن يأتي صدفة لأن العقل يرفضه تماما فلا شيء في الوجود يوجد إلا وله موجد ولا مصنوع إلا و وراءه صانع فهو عاقل ناطق بعين الحكمة .. وعليه فكل المؤمنين بوجود خالق هم عقلاء وتفكيرهم تفكير راق .. لأنهم يستبعدون أن تخلق الجمادات زوجين منفصلين لكل طرف خصائصه المستقلة، ثم لا تكتمل الحياة النموذجية إلا بالتقائهما .. فكيف لاءمت الجمادات بين تلك الخصائص؟! ثم كيف تخلقهما عاقلين ولا عقل لها؟ لهما مشاعر ولا مشاعر لها؟ يسمعان ويبصران ولا سمع ولا بصر لها؟ ففاقد الشيء لا يعطيه.

من هنا فإن قانون الزوجية يقول بأن طرفا ثالثا عاقلا سميعا بصيرا مبدعا حكيما هو الذي خلق الشيء من شقين منفصلين ثم ألف بينهما ليستمر النسل .. ولايصح أن يشمله قانون الزوجية مسلمة قطعية لأنه سيكون بدوره ضعيفا ومفتقرا إلى غيره والناقص لا يخلق كاملا، ولو كان له طرف معادل يكمله لكان الطرفان قد جاءا بعناية طرف آخر كامل ثم لن يكتب له البقاء لأنه جاء من لا شيء وسيذهب إلى الفناء ما لم يترك نسلا وهكذا تستمر الحلقات المفرغة وبالتالي فخالق كهذا هو نفسه مخلوق .. بل يجب أن تكون صفات الخالق هي الفردية المكتفية بذاتها .. المستغنية عن غيرها .. غير الخاضعة لقانون الزوجية وهو ما وصف نفسه بواحد أحد، أي لاثاني له .. لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد .. أي لا طرف آخر يكمله وإلا فله خالق خلقه مفتقرا .. وذلك هو الله تعالى .. بسم الله الرحمن الرحيم (قل هو الله أحد *الله الصمد*لم يلد ولم يولد*ولم يكن له كفوا أحد) [1].

1 - [الإخلاص:1- 4].

قانون البدء والإعادة يساوي البعث والنشور

قال تعالى: (إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ) [1] وقال: (... كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ) [2].

كل شيء يبدأ من نقطة ليعود إليها مجددا .. فالكون ومكوناته يبدو خاضعا لديناميكية متجددة .. وحلقة دائرية تبدأ من دوران مكونات الذرة حول النواة .. ودوران الأقمار حول الكواكب .. والكواكب حول النجوم .. والمجموعات الشمسية حول المجرات .. والمجرات تدور في الفضاء الأرحب .. وهذا الخضوع الكوني لقانون الله الثابت هو بحد ذاته عبادة واستسلام.

والمسلم أيضا ينتظم في سلك عبادة الدوران هذه مع بقية الكائنات ويتجلى ذلك أكثر في عبادة الحج حيث يبدأ بمنسك طواف القدوم وينتهي بطواف الإفاضة (الوداع).

والطواف بحد ذاته دوران عبادي يبدأ بنقطة وينتهي عند نفس النقطة عكس دوران عقارب الساعة تماما كما تطوف النجوم والأجرام السماوية.

قال تعالى في سورة الأنبياء: (كل في فلك يسبحون) وقال في سورة يس: (... وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) [3] وكلمة (كل) تفيد الإحاطة والشمول أي كل شيء خاضع لدوران البدء والإعادة وكما سيأتي أيضا في آيات أخرى.

يذهب ثاني أكسيد الكربون الذي نتنفسه إلى الأشجار لتمتصه ثم تعيده إلينا أوكسجينا .. كجزء من قانون البدء والإعادة، والسماء ترجع إلى الأرض .. ماذا ترجع؟ .. والأرض تعكس إلى السماء .. ماذا تعكس؟ قال تعالى (وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ * وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ) [4] البخار يتصاعد إلى طبقات الجو العليا الباردة ثم يتكثف لترجعه السماء ماء إلى الأرض من جديد .. ثم يتصاعد مرة أخرى بخارا ليعود ماء وهكذا .. والأرض تعكس الحرارة إلى السماء في النهار فيتم تخزين الحرارة في جو السماء فإذا غربت الشمس أرجعت السماء الحرارة إلى الأرض ليلفنا بالدفء .. فربما وجدنا بعد غروب الشمس الرشح أكثر مما نجده قبلها .. السماء ترجع أشعة الشمس بعد طلوع الشمس والأرض تعكس الأشعة النازلة لتعود

---

1 - [البروج: 13].

2 - [الأنبياء:104].

3 - [يس : 40].

4 - [الطارق:11- 12].

منعكسة إلى العين لترى الأعين الأجسام من حولها .. والأرض تعكس الموجات الراديوية إلى السماء عبر الأقمار الصناعية والسماء ترجعها إلى الأرض فنستقبلها بلواقط التلفاز والهاتف والمذياع فترجع إلينا الصور والأصوات المرسلة.

ومن قانون البدء والإعادة يذكر المولى تعالى أنه سيعيد الكون كما كان مجتمعا يوم القيامة كما سبق معنا .. قال تعالى: (أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ...) [1] رتقا: أي مجتمعا في كتلة واحدة، ثم حدث الفتق والإنفجار وهو تبعثر الخلق المجتمع وتشظية ليعود كما كان مجتمعا بقانون البدء والإعادة قال (كما بدأنا أول خلق نعيده) إنه قانون عام وثابت يقول تعالى في سورة العنكبوت: (أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ...)[2].

ومن قانون البدء والإعادة أنه تعالى يعيد الحي ميتا والميت حيا .. فالبذرة الميتة يخرج منها شجرة حية .. ومن الشجرة الحية تتخلق وتعود البذرة الميتة.

من كل ذلك نصل إلى النتيجة: إذا كان قانون البدء والإعادة يشمل كل شيء فإن نفس القانون ينطبق على الإنسان .. فالإنسان خاضع لنظام البدء والإعادة، كالبذرة فهو يموت بعد أن كان حيا ثم يعود حيا بعد أن كان ميتا قال المولى: (... كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ) [3] بدأنا حياتنا على الأرض وستعود حياتنا في الآخرة وسيخرجنا الله أحياء من عجب الذنب .. البذرة الإنسانية الميتة تماما كما يخرج النبات من البذرة الميتة، انظر إلى هذا التشبيه والربط في قوله تعالى: (يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ) [4] وقال (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) [5]. (فَانْظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) [6].

وكما ينزل المطر على النبات الميت فيعود حيا بإذن الله كذلك يوم القيامة ينزل على الخلائق في مدافنها مطرا كمني الرجال يرتفع اثني عشر ذراعا في السماء، ثم يتشكلون في

---

1 – [الأنبياء: 30].

2 – [العنكبوت:19– 20].

3 – [الأعراف: 29].

4 – [الروم: 19].

5 – [فصلت: 39].

6 – [الروم: 50].

مصارعهم كما يتشكل النبات .. ثم تشقق الأرض عنهم سراعا كما تشقق عن النبات سواء بسواء قال تعالى: (يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ) [1].

هذه هي آيات الله الواضحة البينة في تناظر علمي وتشاكل خلقي في قانون واحد وصدق الله: (تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُون) [2].

ليس بعث الإنسان بعد موته إلا قانون من قوانين الله الثابتة فأين وجه الغرابة والعجب إذن إن يبعث الله الإنسان حيا من جديد؟

إن الخالق إذ ينزل أخباره عن مآلات الإنسان فإنه لا ينزلها مجردة ليكون الإيمان بها عن طريق الإذعان القهري، ولكنه يربطها بقوانينها المدركة والمعاينة بحيث يقيم الحجة ويكون الإيمان مستقرا في القلب عن طريق مسلمات العقل لا عن طريق رصيد العواطف التي هي مرتكز الكثير من أصحاب الديانات الأرضية فتكتفي بجملة أساطير وخرافات متناقلة، فأن يكون الإسلام ديننا فتلك نعمة تفوق نعمة الوجود فما قيمة وجود يصير جسر عبورنا إلى جهنم فله الحمد عدد ما أحاط به علمه، وخط به قلمه، وأحصاه كتابه.

1 – [ق: 44].

2 – [الجاثية:6].

عرض أعمال البشر يوم القيامة على البث المباشر

قال عز وجل: (وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً) [1] بعد انفراط عقد نظام الكون وقيام القيامة .. وعودة الإنسان حيا خضوعا لقانون البدء والإعادة كما ذكرت في الموضوع السابق، يحشر الله الخلائق بعد البعث والنشر في أرض جديدة لاعلاقة لها بأرضنا هذه، وصفها رسول الله –صلى الله عليه وسلم– بأنها" أرض بيضاء عفراء كقرصة النقي ليس فيها علم لأحد"[2] قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه:" لم يعص الله عليها ولم يراق عليها قطرة دم" إنها أرض مبدلة قال تعالى:(يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُواْ للّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ)[3].

وبتبديل الأرض ينتهي ذلك التراسل الدلالي الذي كان يمكن أن يتم بين العبد وذكريات مراتع ومرابع عاشها في الدنيا لعلها كانت تزيل عنه وحشة الغربة لو بقيت .. وتشعره بتبادل الذكريات الجميلة لو استمرت .. وتؤنسه بقصص حياة آفلة لو وجدت .. لقد تغير هاهنا كل شيء .. قانون الزمان والمكان .. ونواميس الخلق والمدارك .. الأرض غير الأرض .. و(اليوم) عند ربك كألف سنة من أيام الدنيا .. وصار طول الإنسان ستين ذراعا كطول أبيه آدم يوم خلق .. ويعود إلى الله بسمع شديد .. وبصر حديد قال تعالى: (أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ...)[4] أي ما أشد سمعهم وما أحد بصرهم يومئذ.

وينصب المولى في يوم (... كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ) [5] وهو(يوم الحساب) – ينصب محكمة العدل الإلهية بكل خصائص المحكمة العادلة .. وشروط القضاء العادل .. فعندنا الحكم العدل وهو الله سبحانه وتعالى.

وعندنا الميزان ينصب.

وعندنا المحاسَب (العبد).

وعندنا جميع أدلة الاثباتات.

---

1 – [الكهف : 49].

2 – رواه البخاري برقم (6521).

3 – [إبراهيم : 48].

4 – [مريم: 38].

5 – [المعارج : 4].

وعندنا الصحف المدونة عليها الأعمال .. والبث بالصوت والصورة.

وعندنا الشهود من كرام كاتبين. ومن شهادة الأماكن مجال المعصية .. وشهادة الجوارح.

وعندنا صدور الأحكام في كتب يتم استلامها باليمين أو بالشمال من وراء الظهر.

وعندنا في الوقت ذاته حق العبد في الدفاع المفتوح عن نفسه .. بما فيها حتى الجحود والإنكار (وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ * ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ) [1] (يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ...) [2]

إنهم يدافعون عن أنفسهم ويقسمون بالله ما كانوا مشركين؟؟؟ .. شيء عجيب !! وكأن الله تجوز عليه الحيلة والخداع تعالى الله عن ذلك .. على أن عدالة الله لا تأخذهم بعلمه وحده فهو الحاكم ولا يكفي علم الحاكم وحده بالأدلة .. بل لابد من الشهود.

وإننا لنجد كل طرق الإثباتات للوصول إلى مرحلة إصدار الحكم ومنها العرض الحي للأعمال .. فهذا دليل الصورة: (... وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ...) [3] وهذا دليل الصوت: (... ولَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) [4]. (هَٰذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)[5]. قال ابن عباس رضي الله عنهما "يوضع الكتاب يوم القيامة (فيتكلم) بما كانوا يعملون"[6]. وقال القرطبي (ينطق عليهم).

وقال كعب:"إذا كان يوم القيامة رفع اللوح المحفوظ فلم يبق أحد من الخلائق إلا وهو ينظر إلى عمله" [7].

قد يكون العرض عبر نسخ التوثيق التسجيلي كما نجد اليوم كما تقول الآية: (إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون).

وقد يكون عبر عرض مسيرة الحياة الدنيا بأكملها .. ذلك أن العلم الحديث أثبت أن كل حركات الإنسان تبقى صورا عالقة وتحتاج فقط إلى لاقط من نوع خاص.

---

1 – [الأنعام :22– 23].

2 – [المجادلة : 18].

3 – [الكهف : 49].

4 – [المؤمنون : 62].

5 – [الجاثية : 29].

6 – ينظر تفسير ابن كثير على الآية :7 من الأعراف.

7 – أخرجه الطبري في تفسير الآية 49 من الكهف.

ولتقريب الصورة فإن الإنسان قد يصل إليه ضوء نجم بعد بلايين السنين التي قطعها في الهواء، وربما يكون النجم نفسه قد اندثر من ملايين السنين ولكن ضوءه باق لم يندثر ولم ينته .. وقد يرون صورة انفجار نجمي وصلت بعد بلايين السنين، وقد يكون النجم انتهى بعد وصول الصورة من ملايين السنين.

يقول صبري الدمرداش: لو افترضنا أن رجلا يعيش خارج كوكبنا على بعد 1435عاما ستكون صورة معركة بدر قد وصلته اليوم لو أمكنه رؤيتها وكان له قوة إبصار حاد مع أن المسلمين والكفار قد ماتوا منذ ذلك التاريخ إلا أن صورة المعركة وأحداثها لاتزال سابحة في الفضاء.

ولأن الإنسان يوم القيامة هو في قانون تركيبه غير إنسان اليوم يكون صاحب حواس مختلفة ربما وصلته صور كاملة لمسيرة حياته مباشرة إلى أرض المحشر قال تعالى: (لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ) [1] كشفنا عنك غطاءك يكون بهذا المعنى أزلنا ضعف قدرتك الأرضية وبصرك اليوم أحد مما كان ومثله: (أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ...)[2] أي: ما أقوى سمعهم وأحد بصرهم يوم القيامة!! صيغة تعجب.

وقال تعالى (يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ...)[3] قال المفسرون (أمدا بعيدا) أي مكانا بعيدا في غاية البعد كما بين المشرق والمغرب .. وهذا يعزز من فكرة المشاهدة المكانية التي تصل باختراق مسافة الهواء وبالنظر المباشر .. فيتمنى أن لو كانت أعماله السيئة في مكان هي من البعد بحيث لاتصل إليه .. ولكنها تصل إليه (وما ذلك على الله بعزيز) [4].

1 – [ق : 22].

2 – [مريم: 38].

3 – [آل عمران : 30].

4 – ينظر للمزيد كتابنا رحلة قبل الرحيل ص (208) دار ابن حزم ومكتبة الارشاد ط 2005م

ثانيا- تأملات في القرآن الكريم

هل هناك قرآنيون؟

القرآنيون: اتجاه أو طائفة فكرية تزعم أنها لاتؤمن إلا بالقرآن لاغير، ولا تؤمن بسنة النبي صلى الله عليه وسلم .. وقد تزعمها في العصر الحديث رجل بريطانيا الهندي أحمد خان 1898م.

غير أني أسأل: هل هناك قرآنيون حقيقة؟

الجواب: قطعا لايوجد قرآنيون، إذ لو كان هناك قرآنيون (حقيقة) لكانوا أكثر الناس تمسكا بالسنة، والتزاما بطاعة الرسول؛ لأن القرآن يأمر بذلك ويحث عليه بصور مختلفة من مبتدئه إلى منتهاه .. فلايوجد قرآنيون في واقع الأمر، بل يوجد مثيرو شبهات أو جهلة وغوغائيون، استهوتهم مسألة القرآنية كتقليعة فكرية جديدة تتفلسف لتشعر نفسها أنها تحمل للناس جديدا.

وسواء سموا أنفسهم قرآنيين أو سمتهم مواقفهم فلا يخلو أن يكون منهم موظفون يتاجرون بالمبادئ ويتبضعون بشرف الكلمة وسمو الرسالة .

على أنهم يستدلون بقوله تعالى: (وكل شيء فصلناه تفصيلا) و(ما فرطنا في الكتاب من شيء).

والجواب: أن هذا في الكليات، وأما الجزئيات فقد ترك الله للإنسان دورا يقوم به، وكمثال فقد فصل الله الحديث في كتابه عن التكاليف الشرعية، فذكر الصلاة والصيام والزكاة والحج والصوم والوضوء .. لكن القرآن لم يتناول صفات كل ذلك وجوانبها التطبيقية .. مثلما تكلم عن خلق الإنسان وخلق السماوات والأرض المعجز وترك مسألة كشف مكونات كل ذلك لعقل لإنسان، فلم يكن المولى ليعطل دور الرسول الذي هو قرآن يمشي على الأرض، ولم يكن القرآن ليعطل عقل الإنسان ويقوم هو بالتفكير له في كل شيء .. فهو كتاب هداية ومنبع أصل النور.

وثانيا: يرددون فرية أن الحديث دون بعد قرنين من وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم أي في عهد البخاري .. والحقيقة أن الجمع والتدوين بدأ في عهد الخلفاء وأمهات المؤمنين، وكانت لصحابة كابن عباس وأبي هريرة وابن مسعود رضي الله عنهم وغيرهم مجالس لرواية الحديث .. ثم ظهرت مؤلفات موسوعية سبقت البخاري مثل موطأ مالك، ومسند أحمد بن

حنبل، وكان في نحو 27 ألف حديث ومصنف عبد الرزاق الصنعاني في نحو 21 ألف حديث وأثر .. بينما كل أحاديث البخاري (2602) من غير تكرار، ولم يتفرد البخاري عمن سبقه من الأحاديث بروايات بالقدر الذي تجعله مثار كل هذه الضجة، بل أحاديثه موجودة في الأسانيد أخرى .. والذي تفرد به البخاري هو طريقة التصنيف الذي التزم ما وافق شروطه لصحة الحديث فقط لاسوى.

*** والآن لنناقش تلك الأدلة القرآنية التي لم يصل إليها (القرآنيون) لأنهم ربما لايقرؤون القرآن بتدبر أو يقرؤونه ولكن ليحرفوا الكلم عن مواضعه.

أولا – نسأل القرآنيين: ما هي حجتكم يوم القيامة إذا حاججكم الله بآيات رفضتم الأخذ بها في اتباع رسوله والتي منها: (أطيعوا الله ورسوله) (أطيعوا الله والرسول) (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول) (ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا) (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) (من يُطِعِ ٱلرسُولَ فَقَد أَطَاعَ ٱللَّه وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرسلناك عَلَيهم حَفِيظا)[1]. (وإن تطيعوه تهتدوا) ونصوص غيرها كثير .. ما هي حجتكم في رد هذه الأوامر الواضحة التي تشرك طاعة الرسول بطاعة الله وتؤكد على أن هناك طاعتين ومُطاعين لا مُطاعا واحدا .. دون تقييد طاعة النبي بقيد أو شرط؛ لأن كلامه في التشريع وحي .. كيف سيجادلون عن أنفسهم ليت شعري؟

لقد وردت التوجيهات في طاعة رسول الله بصور لغوية عدة لنفي الشبهات التي علم الله أن ثمة طاعنين سيثيرونها.

ودعونا نضرب لذلك مثلا ولله المثل الأعلى .. لو أن سلطانا أرسل عامله إلى الناس قائلا له، قل لهم يطيعوني ويطيعون أوامرك .. أخبرهم إن كان للسلطان عندكم مكانة فمكانتكم عنده أن تسمعوا كلامي ولا تخالفوني .. ثم وجه لهم خطابا مباشرا .. أطيعوني وأطيعوا عاملي فيكم .. لا تعصوني ولا تعصوا عاملي .. ما جاءكم به عاملي فنفذوه وما نهاكم عنه فاجتنبوه .. إذا أطعتم عاملي فطاعته طاعة لي .. أرسلته إليكم لكي يعلمكم ويبين لكم مرادي ويقوم سلوككم وهو لكم ناصح وبكم رؤوف رحيم وو .. الخ فهل بعد كل هذه التوجيهات والتأكيدات يعقل أن يقال لعامل السلطان لن نتبعك ولن نتبع إلا أوامر السلطان مباشرة! .. إن تصرفا كهذا لهو عصيان لأوامر السلطان نفسه، ورد لتعاليمه، وليس فيه تبجيل قط لأوامره

1 – [النساء: 80].

المباشرة، بل فيه تمرد عليها ورفضها وعدم الاعتداد بها .. فالقرآنيون هؤلاء برفضهم لسنة رسول الله صلوات ربي وسلامه عليه وتعاليمه قد تحدوا أوامر الله وأبطلوا تعاليم كتابه، وهذه هي النتيجة المطلوبة من دعوى القرآنية.

ثانيا- إن كلام الرسول في التشريع وحي من الله .. وهل يعقل أن يشرع من تلقاء نفسه، بدون توجيه من الله هل يمكن أن يفتري على الله ويحدد بلا وحي من السماء ركعات الصلاة وأيام الصوم وكيفية الحج وحدود الشرع وأنواع السلوك وغير ذلك مما لم ينص عليه القرآن؟!، والنبي لا سابق علم له بفرائض الله، وفاقد الشيء لايعطيه، بل علمه ربه وهداه فقال: (وعلمك ما لم تكن تعلم) (ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان) (ووجدك ضالا فهدى).

إذن السنة التشريعية وحي قال تعالى: (وما ينطق عن الهوى* إن هو إلا وحي يوحى) يجليه قوله: (وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة ..) وأغلب المفسرين أن الحكمة هي السنة، وإلا ما هي (الحكمة) هذه التي عطفت كثيرا على (الكتاب) في التنزيل (الكتاب والحكمة)؟ فإذا قد علمنا أن الكتاب هو القرآن فالحكمة هي السنة، ثم لنتأمل قوله (وأنزل) فالسنة وحي منزلة أيضا بأي صورة من صور الوحي ومنه بواسطة جبريل عليه السلام (وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى* عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى)[1] وهل يعقل أن يشرع رسول الله في العبادة والشريعة والسلوك، ويفصل الشعائر والمناسك من تلقاء نفسه؟ حتى سجدة السهو لا يمكن أن يشرعها دون وحي من الله، قال تعالى: (وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ)[2] (أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ ..)[3] فمن رد سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد رد الوحي ورد الإسلام.

ثالثا- يذكر المولى أنه نزل إلى النبي صلى الله عليه وسلم القرآن ليبينه للناس: (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم) فكيف نتلقى عن رسول الله البيان من غير أثر منقول؟ وهذا البيان جاء في صور منها: تفسير ما أبهم في الكتاب، وذكر ما سكت عنها من الأحكام، فالإسلام ليس مجرد صحف تضمنت مواعظ ووصايا، بل جاء نظريا وحركيا بنموذج إنساني حي ممثلا بهدي الرسول الكريم، ونص القرآن على جانبه التطبيقي في أكثر من آية منها (هُوَ

1 - [النجم :3- 5].
2 - [الحاقة : 47].
3 - [الشورى : 21].

ٱلَّذِى بَعَثَ في الأميين رسولا منهم يتلوا عَليهم آياته ويزكيهم وَيعلمهم ٱلكتاب وَٱلحِكمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبلُ لَفي ضلال مبين) [1].

فهذا هو القرآن الكريم يقول إن مهمة النبي ليس مجرد القيام بدور تسليم وتسلُّم لكتاب مغلق من الله وينتهي دوره، بل يتعدى في البلاغ إلى تلاوته وتزكية أتباعه وبيان ما في الكتاب وما جاء به من تطبيقات، ومن حق كل مسلم في كل زمان أن يعرف تلك الأنشطة التبليغية ليطبقها على حياته، ويعرف خصائص الخُلق العظيم الذي كان عليه فيتمثلها .. فوق أن القرآن قد يشير إشارات عابرة عن مواقف جدلية ودعوية وجهادية ولم يفصلها أو يسرد أطرافها وملابساتها مثل قصة (زيد) وقصة (الذي تولى كبره) وقصة (ابن أم مكتوم) وقصة (ثاني اثنين) ووالخ ومئات الوقائع والأحداث لم يفصلها القرآن الكريم وجاءت بها السنة والسيرة .. ولو جاء الدين أحكاما مغلقة لقال المبطلون: إن هذا الدين قد ألغى فاعلية الإنسان وجاء من عالم المُثل قفزا على واقع مختلف، فهو لايمثلنا ولا يعرف ملابسات حياتنا .. وسيظل الشيطان حاضرا باعتراضه ولن يعدم أولياء له ينشدون نشيده .. في حين لن تجد من يعترض على أخبار فلاسفة اليونان والرومان والهند والصين حتى لو لم يُعثر لهم سوى على أخبار متناقلة وحكم متناثرة، لأن هؤلاء لا مصلحة للشيطان من شغل وقته معهم، فالقرآنيون وغير القرآنيين يتقبلون ما ينقل عنهم بقبول حسن، إلا محمد بن عبد الله معلم البشرية الأول لأن لهم من هدم هدية مآرب ينتظر الشيطان إنجازها.

1 – [الجمعة: 2].

كيف يضل أصحاب الأهواء الناس بالقرآن؟

يبدو العنوان مستفزا ولكن الله هو الذي قال ذلك: (... فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ ...) [1] فأصحاب الزيغ المائلون عن القصد .. من السهل عليهم توظيف بعض آيات القرآن المتشابهة توظيفا (يفتن الناس عن الحق) لخدمة مصالحهم وأهوائهم .. ويكون ذلك بالقرآن الكريم لمن أراد أن يتلاعب بمقاصده، وذلك باتباع طريقة منهجية فاسدة في التفسير والاستدلال .. وهو استخدام أسلوب الاجتزاء وعزل النصوص عن بعضها في الموضوع الواحد المختلف مقاماته .. فإما أن يأخذوا جزءا من الآية ويحجبوا بقيتها .. أو يقرؤوها كاملة ولكنهم يخفون عن ضحاياهم مقاصدها وسياقاتها .. ومواضع الاستدلال بها .. وأسبابها وظروفها .. وأقوال أهل الذكر فيها، أو يقرؤون الآية كاملة لكنهم لا يأتون بنظائرها التي فيها تفسيرها، مثل أن يستدلوا بقوله تعالى : (وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) [2]. ولا يأتون بآية مقيدة لها من مثل: (وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ) [3] فأدلة النصوص فيها العام والخاص .. والمطلق والمقيد .. والمجمل والمفصل .. والمبهم والمفسر وهذه قواعد لا محيد عنها لأي مفسر.

ولأن الإسلام دين واقعي نجد في السياسة الشرعية اللّين الشدّة .. والسلم والحرب .. فيه الموادعة مع العدو وفيه المدافعة وفيه المبادأة .. فيه المودة مع غير المسلم وفيه المَبرّة .. فيه الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة وفيه المفاصلة والمقاطعة .. ولكل حالة مجالاها الخاص بها .. فليس كله في الإسلام حربا وهدما وفناء كما ورد في بعض أسفار التلمود مثلا .. وليس كله مواعظ لين وعفو وتسامح على نحو ما جاء في مواعظ الإنجيل، كما جاء في إنجيل (متى 5:39) أما أنا فأقول لكم: لا تقاوموا الشر بالشر، بل إذا لطمك على الخد الأيمن فحوله الآخر

1- [آل عمران 7].

2- [البقرة : 244].

3- [البقرة : 190].

أيضا"[1] .. ولكنه دين واقعي وسَطِي .. فلِلّين مواضعُه التي لا غنى عنها .. وللشدة مواضعها التي لا غنى عنها .. لكن أصحاب الأفكار العُنفية التكفيرية مثلا يذهبون إلى نصوص الشدة وفقط .. ليأخذوا من أدلتها كفايتهم .. فيتوقفون عند آيات القتال .. والمقاطعة .. وتبكيت الكفار والمخالفين .. وتعنيفهم والغلظة عليهم .. ثم يُسْقِطُون الأدلة على واقع قد لا يكون هو واقعها .. وينزلونها منْزِلا قد لا يكون هو منزلها .. ويحمّلونها من التأويل ما لا تحتمل .. ويلزمونها من المقاصد ما لا يلزم .. ويتركون مقارنتها بآيات السلم مع المخالفين وضرب المواثيق .. وعدم الاعتداء .. والمجادلة بالتي هي أحسن .. والتأليف لهم .. والبر بهم .. والعفو عنهم .. وإطعام الأسير منهم .. الخ

ولأن الناس إنما يسترخصون الحياة في سبيل القِيَم والمُثلِ العليا كالدين الذي هو عند المؤمنين أثمن ما يملكون فإن أصحاب الأهواء كثيرا ما ينطلقون من الدين إلى أهدافهم كقيمة عليا وفي البيئات الجاهلة تحديدا .. فيختصرون به المسافات .. ويَضْمنون به تفاني الاتباع وإخلاصهم وتجردهم؛ لأن عملهم لله فلا يحتاج أحيانا إلى مقابل دنيوي .. ففي الجنة خيرُ عوض لمن لا يجدون الإغراءات المادية الكافية في الدنيا.

**** أكثر الآيات توظيفا:**

وبحسب جماعة من جماعات العنف آيتان من كتاب الله لا أكثر لتكفير المسلمين أنفسهم .. واستحلال دمائهم .. وأزعم أن توظيف هاتين الآيتين بشكل غير بريء هما جوهر العنف الديني اليوم .. إذ صار لهما من الفاعلية والتأثير ما هو أمضى من أي سلاح فكري آخر .. ففي دورات تعبوية خلال أسبوع واحد تستطيع أي جماعة أن تحصل منهما على جيش فدائي يقتل ويضرب كالمجنون بكامل الرضا والحب والاندفاع .. أما أولاهما فقول الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) [2] تأمل قوله (ومن يتولهم منكم فإنه منهم) ما معنى (فإنه منهم) ومتى يكون ذلك؟

1- وقد وردت نصوص تتضمن ثقافة الإبادة ليس هنا مجالها.

2- [المائدة 51].

وأما ثانيهما فقول الله تعالى:(... وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ) [1] ففي هاتين الآيتين ضمانة أكيدة لإخراج المسلمين كافة من الملّة بتأويل متعسف .. وقلب المعنى على وجهه .. وعزل الآيتين عن الآيات الأخرى المخصصة لها أو المفصّلة .. فيكفيهم في تفسير قول الله: (ومن يتولهم منكم فإنه منهم) يكفيهم بعض الاستشهادات على موالاة الكفار من صور ولقطات مثلا تثبت لقاء زعماء مسلمين مع زعماء كفار .. أو إبرام صفقات ومعاهدات كان رسول الله يقيمها مع الكفار من قبل .. أو التذكير بمواقف حدث فيها التراخي عن نصرة مسلمين مستضعفين، أو تبادل السفراء مع دول غير محاربة.

هذه هي استدلالات الحركات الهدامة على تكفير الحكام ثم لا تُظهِر للمستهدفين مواطن الإعذار (كما سيأتي) بل تجعل ظاهر النصوص أدلة كافية صالحة للتعميم .. وعليها تكفِّر الحكام .. ثم لا يكون الذين يقاتلون مع الحكام أو الراضين بسياساتهم أو الساكتين عنهم إلا كفارا مثلهم .. يستحقون القتل بدليل كلام الله أيضا كما يقولون: (لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ...) [2] .. فإذا ما فرغوا من غرس فكرة الارتداد عن دين الله للعامة والخاصة، شرعوا بالجانب التضحوي عن طريق استدعاء آيات التجارة مع الله، وبيع النفس والتجرد من علائق الدنيا فما عند الله خير وأبقى .. (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة) (وللآخرة خير لك من الأولى) والذي يرغب في إبرام صفقة بيع رابحة مع الله فهذا الله يقول: (إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللّهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) [3] وهم مع ذلك على وعد أكيد من الله بالنصر فيقولون: أليس الله هو القائل: (إن تنصروا الله ينصركم) ؟ ثم يقولون: لم يطالبنا من الإعداد بغير الاستطاعة أيا كانت متواضعة أليس هو القائل: (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) ؟ ومهما عظمت قوة أعداء الله فالله يقول: (وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله) ويقول: (الذين قال لهم الناس إن

1- [المائدة 44].

2- [المجادلة 22].

3- [التوبة : 111].

الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل* فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء ...) [1]ثم يقولون لأتباعهم نحن لا نقول بأهوائنا .. ولا بكلامٍ هو من بَناتِ أفكارنا .. بل نقول لكم ما قاله الله: (ومن أحسن من الله قيلا) (ومن أحسن من الله حديثا) (فماذا بعد الحق إلا الضلال) وينتهون بالقول: إن من يشك في كلام الله ووعد الله ووعيده،وقدرة الله على نصرة أوليائه وهزيمة أعدائه، فقد كذَّب الله وصدق أعداءه، وهذا خطر عظيم على إيمان المؤمن وسلامة معتقده .. انظر هذا النوع من الاستدراج الأسلوبي الخطير من أهل الزيغ في إضلال الناس وفتنتهم عن دينهم بتوظيف كتاب الله .. كبني إسرائيل الذين كانوا يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض .. ويتاجرون بآيات الله لقاء ثمن قليل.

**** ولنأتِ للجواب على هذا كله وعلى النحو التالي:**

أولا – الحكام المسلمون الذين استحللتم قتالهم بالجملة هل هم لا يتولون الله ورسوله والمؤمنين مبدئيا؟ وكيف تأكدتم أنهم وَالوا أعداء الله – إن والوهم حقيقة وليس مجرد تبادل مصالح مشروعة– هل والوهم بسبب تقيّة مُلجئة كما قال الله: (لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ) [2] ؟ فلا يجوز تكفير مسلم لا يزال يعلن ولاءه لله ورسوله والمؤمنين ولم يعلن حربه الصريحة مع الأعداء ضد الدين، والمقترن بكفر بواح، لكن يجب قول كلمة الحق في وجه الظلمة منهم والاستعداد بالتضحية لإحياء مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومنها الفعاليات السلمية .. ثم هل عدم نصرة المستضعفين من المسلمين كان بسبب أن هؤلاء الحكام صاروا يقاتلون إلى جانب الكافرين فربطوا مصيرهم بمصيرهم مثلا؟ أم أنهم فقط تركوا قتال الكافرين لصالح المستضعفين بسبب ميثاق أو هدنة بينهم وبين الكافرين كما قال الله: (... وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ ...) [3] .. ثم هل مجموع المسلمين الذين استحللتم دماءهم يحادُّون الله وسوله فعلا ويحاربون دينه كما تستدلون؟ أم يحبون الله ورسوله ويتولونهم .. ويبغضون

1– [آل عمران:173– 174].

2– [آل عمران 28].

3– [الأنفال 72].

أعداء الله وأعداء رسوله؟ هل لا يزالون يؤمنون بالإسلام عقيدة وعبادة وشريعة وسلوك؟ أم أنهم قد غيروا المِلّة .. وحرّفوا القبلة .. وعلّقوا الصُّلبان .. وأطلقوا الزنانير .. وسموا أبناءهم بأسماء الكفار كما اشترط علماء المسلمين لتكفيرهم؟

قد يقال إنما يفعلون تلك الطاعات نفاقا؟ والجواب: النفاق لا يكون إلا من خوف فيخفي المنافق من الدِّين خلاف ما يبطن .. فمِمّن يخافون؟ فعموم المسلمون لا يعبدون الله في السر ثم يذهبون في الخفاء للإضرار بالإسلام وإرصادا لحربه والتخابر ضده، وضد أنفسهم مع الكافرين؟ فأين الأدلة الواضحة التي لا لبس فيها على ذلك؟ فإذا كانت هذه المظاهر الكفرية قد صارت سلوكا للمسلمين عندئذ كفرِّوهم واستحلوا دماءهم، فلم يعودوا مسلمين بل أعداء محاربين .. أمَّا والجواب بـــ(لا) فإن قتالهم واستحلال دمائهم كفر .. مع التوافق على أننا نعيش زمن الحكم الجبري والعاض والظلم، والنفاق والعمالات، الذي ترك الناس غثاء كغثاء السيل ولكن تكفير أهل الملة شيء آخر .. غير أن النبي اشترط لنزع يد الطاعة (الكفر البواح) واشترط العلماء أن التغيير سيفضي إلى الأحسن لا إلى الأسوأ.

** أما استدلالهم بالآية الثانية وهي: (ومن لم يحكم بما أنزل الله **فأولئك هم الكافرون**) فإن دليلهم على عدم الحكم بما أنزل الله هو ما يرونه من استبدال بعض الحكام بعض القوانين الوضعية ببعض أحكام الشريعة .. وعدم تطبيق العدالة الاجتماعية كاملة .. أو عدم تنفيذ بعض الأحكام الشرعية على أصحاب القضايا الجنائية مثل قطع اليد وقتل القاتل وجلد الزاني والسكران.

والجواب: التعطيل مع الإيمان بالنص الشرعي معصية، ولا يكون كفرا إلا عندما يرده الحاكم ولا يؤمن به .. فإذا حدث ذلك خصه حكم الارتداد ولا يعم الناس .. فضلا عن ذلك أن التعطيل جاء في جزء يسير من الشريعة ولم يحدث إنكار كلي بها .. ولا يحل الخروج على الحاكم بدون كفر بواح لأن الخروج على الحاكم بمعصية جزئية قد يأتي بمناكر أعظم وهي استحلال الدماء والأموال وتدمير مقومات الحياة .. على أن الذي يحكم بكفر الحاكم هم أهل العلم الذين يدركون حدود الدين ومحارمه.

ثانيا- إذا ترك الحاكم الظالم والجائر بعض الأحكام فلاتزال المجتمعات الإسلامية في سائر الأمصار تطبق الشريعة في حياتها .. كأحكام المواريث، والنكاح، والطلاق، وطريقة دفن الموتى، ويطبق الثقافة الإسلامية، في السلام، والطعام، واللباس، ويقيم الشعائر التعبدية .. الخ وإذا كان الله قد أبى أن يقال لشخص إنه غير مؤمن ولا يزال يطبق جزءا من الثقافة الإسلامية وهي السلام كما قال: (... وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا ...) [1] فكيف يُكَفّر من كانت حياته وثقافته وصلاته ونسكه لله رب العالمين؟

ولا شك كما سبق أن جُلّ حكام المسلمين اليوم صارت قلوبهم مع الأعاجم .. وصار حكمهم حكما جبريا .. ولكن معالجة المعاصي والقصور ليس بتدمير أمتنا وإهلاك الحرث والنسل .. كما ليس البديل عن قتال الحكام الظلمة بالسكوت عنهم ونفاقهم .. بل البديل هو جهاد الكلمة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبالمعارضات السلمية الحضارية التي تصلح ولا تفسد، مهما ضحى الدعاة والمصلحون في ذلك؛ لنأمن غضب الله القائل: (وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون).

1- [النساء 94].

علماء وعلماء

أ- علماء حدثني عقلي:

ب- علماء ألهمني ربي:

التورع صفة المؤمنين، وإحدى أهم صفات الورع في القول عن الله هو التوقف عند كلام الله وسنة رسول الله فنحن أمة النص، وما لم يرد نص قطعي الورود قطعي الدلالة فللعقل فيه متسع مع مراعاة ضوابط البحث ومنهاجه.

ولقد انتشرت ظاهرة التفسير العقلاني للقرآن الكريم .. وظاهرة أخرى ادعاء التفسير اللُّدني الذي يختص الله به أناسا دون غيرهم، فلا يرون حاجة لعلماء متخصصين، ولا لضوابط مرجعية من لغة .. وبلاغة .. وأسباب نزول .. واختلاف قراءات .. ومطلق ومقيد .. وعام وخاص .. ومجمل ومفسر، تلك المرتكزات التي يقوم عليها علم التفسير كونه جماع كل العلوم، فالله قال: (قرآنا عربيا) فكل علوم العربية وما يتعلق بظروف تنزيله لازم من لوازم التفسير، فالمفسر بالرأي لا رأي له بلا علم وقواعد استنباط تعينه على الترجيح ففاقد الشيء لايعطيه، فالرأي له أيضا مستند من وسائط لا معدى عنها .. وقد ذكر الله أن من القرآن المحكم ومنه المتشابه.

نعم هناك آيات متحصل فهمها للعوام وهي التكاليف التي يحاسب عليه العبد يوم القيامة مثل قوله تعالى: (أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) (لايسخر قوم من قوم) ففهم ظاهرها لايحتاج إلى كبير علم، رحمة بالناس وتيسيرا .. غير أن الآيات المتشابهات أكثر من آيات الحلال والحرام، والمتشابهات مراد الله بقوله: قال تعالى: (وَتِلْكَ الأَمْثالُ نَضرِبُها لِلنّاسِ وَما يَعقِلُها إِلَّا العالِمونَ) [1]. قال (وما يعقلها إلا العالمون) وليس أيا كان، فلكي يعقل العقل نظراته يحتاج إلى علم ومنهج سير، فبعض الآيات تخاطب الخاصة، وبعضها تخاطب العامة، وبعضها معلقة بظروف وأزمان لم تحن بعد.

(إن في ذلك لآيات للعالمين) (فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون) (فاسأل به خبيرا) (ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم) ذلك أن الآيات المتشابهات تأملية بحثية استقرائية.

وهذا ما سنتناوله بالنقاش العلمي القرآني الهادئ ومن المولى تعالى نستمد العون.

---

1 - [العنكبوت: ٤٣].

أولا- علماء حدثني عقلي:

وهم الذين حمَّلوا العقل وحده مهمة تفسير الآيات بلا قواعد ضابطة، ظنا منهم أن القرآن عربي وهو للعربي سهل المتناول .. غير أنه لو سئل أحدهم في اللغة ما عندك في معنى نحو هذه المفردات: باخع .. ضيزى .. غاسق .. وقب .. وصيلة .. حام .. الهيم .. يعمهون .. فارض .. الخ ومئات من أمثالها؟ لقال أمهلني حتى أعود للمعاجم .. إذن فليضع علامة صح على ضابط اللغة.

ولو قُدم لذوقه البلاغي سؤال واحد وفي أول كلمتين من سورة الفاتحة : (الحمد لله ...)لماذا جاءت بهذه الصيغة ولم يقل صيغة أخرى مثل: حمدا لله .. أو أحمد الله .. أو لله الحمد .. أو شكرا لله .. أو أشكر الله .. أو أثني على الله رب العالمين .. لماذا (الحمد لله) أفصح من كل هذه الصيغ في هذا السياق؟ وأين مكمن الفرق بلاغيا وما يترتب عليه؟ فالله لم يتحد به الإنس والجن إلا بإعجازه ومنه الإعجاز البياني، وذلك معنى (قرآن عربي مبين)، أي على أتم البيان وأفصحه .. سيقول لك إنني لا أعرف الفرق .. إذن فليضع علامة صح على علم البلاغة.

لن أتحدث عن دلالات التقديم والتأخير .. والحذف والذكر .. والمطابقة والمخالفة .. والإعمال والإهمال .. وما يتصل بعلم المعاني .. والبيان .. والبديع .. والأسلوب الخ التي ألف في ظواهرها القرآنية آلاف الكتب وبحثت فيها آلاف الأطروحات العلمية.

وبحسبك أن تسأله في أسباب نزول آية واحدة كقول الله : (وَإِذ تَقولُ لِلَّذي أَنعَمَ اللَّهُ عَلَيهِ وَأَنعَمتَ عَلَيهِ أَمسِك عَلَيكَ زَوجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخفي في نَفسِكَ مَا اللَّهُ مُبديهِ وَتَخشَى النّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخشاهُ فَلَمّا قَضى زَيدٌ مِنها وَطَرًا زَوَّجناكَها لِكَي لا يَكونَ عَلَى المُؤمِنينَ حَرَجٌ في أَزواجِ أَدعِيائِهِم إِذا قَضَوا مِنهُنَّ وَطَرًا وَكانَ أَمرُ اللَّهِ مَفعولًا)[1].

فمن هو زيد في الآية؟ وما معنى أن الله ورسوله انعما عليه؟ وما المقصود بأمسك عليك زوجك ومن زوْجُه؟ وكل جملة في الآية لها معنى تأريخي خاص، وبُعد اجتماعي ترتب عليها حكم شرعي .. ما تقول في ذلك؟ سيقول لا أدري دعني أنظر في أسباب النزول لكي أرد على تساؤلك .. إذا فليضع أمام هذا الضابط علامة صح كذلك.

ولنأت إلى مثال واحد في باب القراءات من عشرات المواضع في القراءات العشر المختلفة .. جاء في سورة هود آية 41 قراءة: (بسم الله مَجرَاها ومُرسَاها) وفي قراءة: (بسم

---

1 - [الأحزاب: 37].

الله مُجريها ومُرسِيها) يترتب على اختلافهما توسع دلالي كبير يثري المعنى فما هو؟ الجواب: سيكون الله أعلم .. إذن فليعلّم على علم القراءات علامة صح.

وسؤال في النحو كقول الله في سورة فاطر: (إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ) فمن يخشى مَن؟ إذا قيل إن الله يخشى العلماء، فذك خطأ قد يفضي بصاحبه إلى الكفر، فحاشا لله أن يخشى أحدا .. ولن نعرف المسند إليه الحكم إلا بقواعد النحو .. فليضع أمام هذا العلم علامة صح أيضا.

وبدون علم التفسير قد يقع المفسر في محاذير حيث يقتضي من المفسر معرفة السياقات المقالية والمقامية المختلفة والفروق الدلالية، فمثلا كيف يفرق بين آية 9 من سورة المزمل: (رب المشرق والمغرب) وآية 17 من سورة الرحمن: (رب المشرقين ورب المغربين) كرر كلمة رب وأتى بالمشرق والمغرب مثنيين، وآية 40 من سورة المعارج: (فلا أقسم برب المشارق والمغارب) بالجمع .. صحيح أن التأمل الفكري فيها قد يخرج بتعدد دلالي لكن أيضا علم السياق العام ليس عنه غنى.

ولا متسع للتمثيل لبقية الضوابط وهي كثيرة .. وبالتالي فغير المتخصص لا غنى له عن أقوال المفسرين المعتبرين، حتى وهو ينظر في ومضات دلالية حديثة فإن الأخذ بها لاينبغي أن يأتي على خلاف مناهج التفسير .. فمثلا من قال إن رسول الله صلوات الله عليه كان غنيا مستدلا بقوله تعالى: (ووجدك عائلا فأغنى) وتوقف عند هذا التفسير فقد اتخذ القرآن عضين، أي مجزءا، فقد قال الله في موضع آخر: (وَلا عَلَى الَّذينَ إِذا ما أَتَوكَ لِتَحمِلَهُم قُلتَ لا أَجِدُ ما أَحمِلُكُم عَلَيهِ تَوَلَّوا وَأَعيُنُهُم تَفيضُ مِنَ الدَّمعِ حَزَنًا أَلّا يَجِدوا ما يُنفِقونَ) [1] فرسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أصبح حاكما لم يجد ما يجهز به غازيا، وإنما جهز جيش العسرة بنفقة المتطوعين والمراد بالغنى في سورة الضحى غنى الأنبياء الذي يسد خلته دون سؤال الناس.

ودعوة القرآن إلى التدبر فيه لايعني دون الأخذ بقواعد الاستنباط والقول بغير علم، فقد سمى الله الذين يجارون أهواءهم بغير علم معتدين: (وَإِنَّ كَثيرًا لَيُضِلّونَ بِأَهوائِهِم بِغَيرِ عِلمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعلَمُ بِالمُعتَدينَ) [2]وقال: (وَمِنَ النّاسِ مَن يُجادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيرِ عِلمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتابٍ مُنيرٍ)[3].

---

1 – [التوبه: 92].

2 – [الأنعام: 119].

3 – [الحج: 8].

على أن بعض الآيات لايمكن تفسيرها حتى من قبل العلماء المتخصصين .. ألم يقل المولى : (وما يعلم تأويله إلا الله) على القراءة الراجحة، وهل يعني ذلك أنه لاتفسير لها؟ بلى لها تفسير، ولكن ربما لم يحن وقت بيانه كما تجليه الآية: (بَل كَذَّبوا بِما لَم يُحيطوا بِعِلمِهِ وَلَمّا يَأتِهِم تَأويلُه ...)[1] فلكل نبأ زمانه المناسب قال تعالى: : (لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ)[2] والنبأ هو الخبر المهم كما ذكر الشعراوي رحمه الله في تفسيره، وكل هذا متصل بعلم ما سيأتي، مثل قول الله: (فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا) وهو جمع بني إسرائيل إلى فلسطين في زماننا ليأخذ الله منهم شأفته، فلم يعلم معناه إلا حين عايشناه .. ومنه الاكتشافات العلمية التي كشفت عن مستور الكثير من الآيات .. لذا قال سبحانه : (ثم إن علينا بيانه) وبناء عليه لم يفسر رسول الله صلى الله عليه وسلم من القرآن إلا القليل.

ثانيا- علماء ألهمني ربي:

وصنف آخر تساوق مع التصور الشعبي في الاختصاص، وهو ادعاء أنهم يتوارثون علم ما كان وما هو كائن وما سيكون، وأن الله اختصهم من بين الناس بإظهار أسرار علمه وكشف أستار غيبه، فهم المفوضون وحدهم بتفسير كتابه لأنهم قرناء القرآن وورثته كما يقولون، وهذا تلفيق من مبتدئه إلى منتهاه وذلك لسببين:

1- ما من أحد يرث العلم عن سابقه كما يرث المتاع قال الله: (وَاللَّهُ أَخرَجَكُم مِن بُطونِ أُمَّهاتِكُم لا تَعلَمونَ شَيئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمعَ وَالأَبصارَ وَالأَفئِدَةَ لَعَلَّكُم تَشكُرونَ)[3] قال (لاتعلمون شيئا) وذكر الحواس لأنها وسائط المعرفة والتلقي، أي أن العلم في الأساس كسبي لاتوارثي، فلا أحد يولد عالما، وإلا فقد عطل الله ملكاته العقلية وسلبه نعمة التعبد بالتفكير والتحصيل .. ولن يكون له فضل ولاتعبد بالبحث والاستنباط بل هو مجرد وعاء يصب فيه العلم اللدني ويفرغه لمريديه، وبالتالي الجميع في التحصيل سواء ويدخل في هذا الأنبياء قال

---

1 - [يونس: 39].

2 - [الأنعام : 67].

3 - [النحل: ٧٨].

تعالى: (وَكَذَلِكَ أَوحَينا إِلَيكَ روحًا مِن أَمرِنا ما كُنتَ تَدري مَا الكِتابُ وَلَا الإيمانُ ...)[1](تِلْكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـــذَا ...)[2].

2- ما أعطى الله من علم غيبي للأنبياء فهو متعلق بالتبليغ وتعزيز صدق النبوة قال عز وجل: (عالِمُ الغَيبِ فَلا يُظهِرُ عَلى غَيبِهِ أَحَدًا * إِلّا مَنِ ارتَضى مِن رَسولٍ ...)[3] قال: (إلا من ارتضى من رسول) .. لذلك فالرجل الصالح صاحب موسى نبي كما قال ابن عباس ووهب بن منبه.

وبعضهم يستدل بقوله تعالى في طالوت: (وزاده بسطة في العلم والجسم) ولا وجه للاستدلال بذلك، فتلك زيادة فضل ولا اختصاص فيه، فقد يتكرر مع كل عبد ومثلها في الهداية: (وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذينَ اهتَدَوا هُدًى ...)[4]وقال: (فزادهم إيمانا) (ويزيدهم من فضله).

ويكفي بهذه الدعاوي المضلة ما نجده في تفسير الاثناعشرية من خرافات وبدائع المنكرات، وبما يجعل من القرآن الكريم مهزلة وهزءا للهازئين.

1 - [الشورى: 52].
2 - [هود : 49].
3 - [الجن:26- 27].
4 - [مريم: 76].

هل تفسير القرآن متاح لغير المتخصصين؟

ظهرت ظاهرة تسمي نفسها القرآنيين، والمراد بهم هنا ليس أولئك الذين يدعون الاستغناء بعقولهم في فهم القرآن عن السنة واللغة، بل الذين يدعون استغناءهم بقراءاتهم الخاصة للقرآن عن تفسير أولي الاختصاص، وبحسب التحصيل الظاهر، وما يمر بالخاطر، وأحيانا ما يوافق الهوى .. إنهم أولئك الذي يفكرون في قضايا عامة خلاف المألوف والموروث، ثم يستأنسون بالقرآن عن طريق ابتداع تفسير ملائم لأفكارهم كيفما اتفق .. ولا بأس أن يعاد قراءة نصوص القرآن بضوابط التفسير اللازمة، بل هذا هو الأصل، ولكن ليس بمجرد القراءة الأولية ثم ينتج عنها تعميمات أفكار غريبة، فلا بد من شروط المفسر.

على أنهم يستدلون على سهولة التفسير، وقرب تناوله، والتحرر من مراجع التفسير بآيات منها: (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) .. والتدبر غير الاجتهاد بتفسير يعتمد على المخزون الفكري للشخص وغير صالح للتصدير، إنه التوقف عند الآيات وإعمال النظر في محاولة لاستخراج ما تحمله من دلالات وأحكام، ولا يزال هناك خطوات إلى مرحلة القول بأن تفسير هذه الآية هو كذا فالتفسير يدخل فيه الأحكام والحلال والحرام ويلزم فيه التضلع والتخصص .. كما أن في الآيات السابقة خطابا عاما مقيدا بآيات أخرى سنذكرها .. وصحيح ثمة آيات محكمات يمكن فهمها على ظاهرها، مثل آيات الأخلاق العامة، وآيات الأحكام العامة المتصلة بالحقوق والواجبات والتكاليف؛ لأن هذه مما يحاسب الجميع عليها، عالِم وغير عالم .. لكن الكثير من الآيات مثل القضايا الفكرية، والاعتقادية التأملية، ليس كل فرد يستطيع سبر أغوارها ولا فهم مقاصدها، ولا القول فيها بشيء، حتى يكون ضليعا بضوابط التفسير وأدوات الاستنباط، فقد يريد الشيء ويأتي بنقيضه، لأن القرآن حمال أوجه، ويعد التفسير جماع العلوم لأنه يحتاج إلى كل علم، فهذا كلام الله المعجز لا كأي كلام .. عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: "التفسير على أربعة أنحاء: فتفسير لايُعذر أحد في فهمه، وتفسير تعرفه العرب من لغاتها، وتفسير يعلمه الراسخون في العلم، وتفسير

لايعلمه إلا الله"[1] والمراد بالذي لا يعلمه إلا الله هو ذلك المرتبط بسياقات زمنية لم يئن أوانها بعد.

وقد تناولنا في كتاب (شبهات وردود) آيات ظاهرها التعارض وسأذكر هنا مثالا واحدا لم أناقشه هناك، فربما فهم البعض قول الله: (وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه) فيفتي أن هذا النبي الكريم ظن أن الله غير قادر عليه أي من القُدرة، فإذا كان هذا الظن لا يأتي من جاهل كيف يمكن أن يأتي من نبي؟ ولو كان مثل هذا عالما باللغة لفهم أن كلمة (قدر) من المشترك اللفظي، فهي هنا بمعنى ضيَّق، لامن الاستطاعة، و(وظن) هي هنا بمعنى اعتقد، وليس بمعنى شك كما قال تعالى: (وظن أنه الفراق) أي تيقن .. فقوله: (وظن أن لن نقدر عليه) أي تيقن أن لن نضيّق عليه رزقه، قال: (الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر) أي يبسط وضيق، وقال: (ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله) أي من ضيق عليه وقال: (وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن) أي ضيق عليه رزقه .. وهكذا.

***احترام الخبرة والتخصص:**

قال تعالى: (ولا ينبئك مثل خبير) قال ابن كثير رحمه الله :" ولايخبرك بعواقب الأمور وما تصير إليه مثل خبير بها"[2] وقال: (فأسأل به خبيرا). وقال تعالى: (إن في ذلك لآيات للعالمِين) فخص العلماء لأنه يتحدث عن خلق السماوات والأرض واختلاف الألسنة والألوان دخلت فيها علوم اللغات والفصاحة، ودخل فيها علوم الخصائص البشرية وليس كل أحد يدركها .. وقال بعد ضرب المثل ببيت العنكبوت: (وما يعقلها إلا العالِمون) خص العلماء لأن الجاهل لن يعرف سر ضرب المثل ببيت العنكبوت وقد يظن أن ضرب هذا المثل لا معنى له .. وقال: (... فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون) .. وفي سورة فاطر (28) قصر الخشية على العلماء وليس على كل الناس وبالذات علماء الطبيعة هاهنا (... إنما يخشى الله من عباده العلماء) لأن الآية تتحدث عن طرائق الجبال وألوانها، ومعرفة كنه ذلك وسره متيسر للعلماء المتخصصين لاسواهم .. وقال الله: (... ولو أنهم ردوه إلى الله وإلى الرسول لعلمه الذين

1- (حاشية زاد المسير 1/260).

2- (تفسير القرآن العظيم (6/541).

يستنبطونه منهم) قال الإمام الشوكاني رحمه الله:" أي يستخرجونه بتدبيرهم وصحة عقولهم"[1] .. وعلى قراءة من وقف على (الراسخون في العلم) في قوله تعالى: (وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم. يقولون أمنا به كل من عند ربنا) فإن فيه عطف الراسخين في العلم على الله، وفيه حصر وقصر .. وللآية قراءة أخرى راجحة (وما يعلم تأويله إلا الله. والراسخون في العلم يقولون أمنا به كل من عند ربنا) .. على أن من المهم أن يسترعي انتباهنا لفظ (الراسخون) في العلم، فالراسخ في العلم هو الذي مكنه نضجه، وعمق تأمله، وطول بحثه ومقارناته، وتضلعه في بقية العلوم إلى نتائج أقرب إلى الحق من غيره، ومنه نأخذ أن غير الراسخين في العلم لا فسحة لهم في التأويل، أما التدبر فهو عبادة مفتوحة.

من هنا فكل مولع بكتاب الله مأخوذ بعلومه له أن يعكف على محاولة سبر أغواره واستخراج ما قدر عليه من طاقات دلالية، ومن حقائق علمية وأبعاد فكرية ومتى تشكلت لديه رؤى استنباطية فلا يبني فيه برأي إلا بعد النظر في الآراء الأخرى ومدى حجيتها، لا سيما في المسائل التي باتت مسلمات فكرية تناقلها جيل عن جيل، فقد وجدنا من يقول إن آدم عليه السلام ليس هو أبو البشر .. وإن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن أميا .. وإن غير المسلمين من بعد الرسالة المحمدية سيدخلون الجنة .. وأنه لا يوجد عذاب في القبر .. إلخ وأشياء كثيرة لا حصر لها .. برز في هذا منقطعون للطروحات الصادمة من مثل د.محمد شحرور، ود.علي الكيالي، ود.محمد هداية، والصحفي إبراهيم عيسى .. وغيرهم كثير وقبلهم حامل راية ما أسموه بالتجديد والتنوير جمال البنا، وكلمة التنوير هنا مقلوبة المعنى والمغزى وإنما هي طروحات إثارة وتثوير غير علمية ولا عادلة بل موجهة باتجاه ممأسس ومُهدَّف.

لقد تلقى المسلمون تفسير سيد قطب – رحمه الله– في ظلال القرآن بقبول حسن ولم ينكروه؛ لأنه لم يكن كلِفا بالإثارة وهدم المسلَّمات، مع أنه مثل انعطافا تجديديا حاسما خرج به عن مألوف التفسيرات الجافة، وأبدع في التصوير، واستنباط الأفكار، وإبراز القيم، واستخراج جماليات الأسلوب، وإسقاط الكثير من الرؤى على الواقع، وبصياغة عالية وفذة، على ما فيه

1- (فتح القدير 1/567).

من حرارة عاطفة مبالغ فيها أحيانا، وخصوبة خيال للمجتمع المؤمن والفريد، ومثالية من الصعب وجودها في غير المدينة الفاضلة وفي غير طموح سيد قطب رحمه الله.

أخذ الحق بالقوة منهج قرآني

عن أي قوة تتحدث الآية الكريمة لحمل المنهج الرسالي؟ (... خُذُوا مَآ ءَاتَينَـٰكُم بِقُوَّة ...)[1] ؟ إنها القوة بمعناها الشامل، وقد تكرر هذا التوجيه الآلهي في غير ما آية ولكن كبقية التوجيهات الإلهية التي كان ينبغي أن تكون هي الناظمة لحياتنا تركناها وراء ظهورنا .. يريد الله تعالى أن نأخذ هدية بعزة المؤمن دون تردد نفس ولا ارتعاش يد .. وبغير ذلك صار المسلمون ضحية مكر الليل والنهار فاستطاع الأعداء أن يهزوا ثقة المسلمين بأنفسهم أن يملؤوهم خجلا من ذواتهم.. خجلا من عروبتهم .. خجلا من دينهم .. خجلا من كلمة جهاد وحصروا معناه في القتال وهو أسمى نبلا .. خجلا من الشريعة وهي أرفع مقاما ومنها أخذ الغرب قوانينهم .. خجلا من لغتهم العربية التي علمت العالم .. خجلا من أرضهم مهبط الديانات وقلب العالم النابض.

لذلك نحتاج إلى أن نأخذ ما أتانا الله بقوة .. أبرزها قوة الثقة بالنفس والإقلاع عن آفة الخجل .. العدوى الذي ركز على نشرها الإعلام بصورة قوية وضاغطة .. وإن أي قوة تقتضيها الهوية والخصوصية لهي مطلوبة .. قال الله لموسى – عليه السلام –: (فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها ...)[2] أي الألواح وقال: (يا يحيى خذ الكتاب بقوة) فأخذ يحيى بن زكريا عليهما السلام الكتاب بقوة عزيمة، وثبات مبدأ، وإن صحت الرواية فقد قدم حياته عن أن يتنازل عن دينه، مع أن الله سماه يحيى من الحياة ومع أنه جاء بعد عقم وانقطاع طويل عن الإنجاب.

ودوما الدين منهج حياة الناس، وموجه مساراتهم، ورأس مالهم الأول، والناس قديما وحديثا غالبا إنما يصدرون في الأساس عن خلفيات دينية .. حتى العلمانية تصبح دينا ومكونا فكريا يستعمل لها العلمانيون القوة لحمايتها من غيرها من الأفكار، ثم يأتي الاقتصاد والنفوذ والمجد الوطني أو الذاتي تاليا، ولا احتاج إلى العودة للصراع بين الكنائس الغربية المرير، فتلك قصة تقلصت بين الكاثوليك والبروتستانت اليوم وبقيت بينهما والأرثوذكس روسيا

---

1 – [الأعراف 171].

2 – [الأعراف : 145].

والكنيسة الشرقية، أما الصراع الحضاري الديني بين الإسلام والغرب فهو تاريخي سرمدي شامل، ولا متسع لتصديق كذبهم عن عزل الدين، نعم عزلوه من حياتهم لكنهم لم يعزلوه من حياة غيرهم فهو مقياس الحكم على الآخرين ألم يقل ربنا (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم)؟ ولن للتأبيد .. لذلك فآيات أخذ الدين بقوة واضحة المرمى في خطابها .. إنها تخاطب واقعنا المائع والمتفلت وهو ذات واقع بني إسرائيل التي نزلت فيهم، فقد كان واقعا يعيش أزمة ثقة بدينهم، وجمهور المفسرين على أن المراد أخذ الدين بقوة واجتهاد، فكانوا كثيري الاشتراطات، كثيري التملص من الالتزامات، يحتالون عليها وينقضون ما يأخذ الله عليهم من العهود والمواثيق .. حتى اقتضى الحال أن يرفع الله فوق رؤوسهم الجبل ليحطمها، أو أنه زلزلهم بدرجة أيقنوا معها الهلاك لحملهم على أخذ الدين بجد واجتهاد.

واليوم يجتاح المسلمين خور وانهزامية وانعدام ثقة بدينهم، لقد ملأت الشبهات نفوسهم رهبة .. ووجوههم خجلا .. فصار التفلت من الالتزامات الدينية علامة تحضر ومؤشر اعتدال، وصار الالتزام تشددا وإدارة الظهر للعصر، وبعضهم يقدم الإسلام في خطابه الداخلي على أنه أعظم دين وأكمل شرع إلا أن هذا البعض أيضا يعيش أزمة ثقة بما يؤمن به، وأحسنهم حالا من ينبري للدفاع عنه من قفص الاتهام كما لو أنه صار في وضع المدان فيحاولون تبرئته .. مع غياب لغة المبادرة في إبراز تفوق دينهم على سواه .. وهيمنة حجته .. وظهور كماله، والله يقول:(هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرسَلَ رَسُولَهُۥ بالهُدَىٰ وَدِينِ ٱلحَقِّ لِيظهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّين كُلِّهِ وَلَوكَرِهَ ٱلمُشرِكُونَ) [1] سماه دين الحق ولا بد من إظهاره على كل الأديان .. فلا يكفي أن يقال إن الإسلام بريء من التهم التي تنسب إليه، بل ينبغي أن يصل الخطاب الديني من الثقة حدا بحيث يتحدى على طاولة الحوار كل النظريات والأديان: (قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين) (قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا) (ائتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين) إن الإسلام قائم على مبدأ التحدي في وضوح الإعجاز .. وقوة الحجة .. وصوابية الفكر .. وليس قائما على قاعدة رخوة مضطربة .. إنه دين قوي منسجم مع الفطرة ولا يتصادم مع العقل كما هو الحال بالنسبة للديانات الأخرى .. فدين الإسلام كله براهين عظمة جدير أن يعتز به المسلم .. والله يقول: (ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين) أي لا أحسن قولا ممن دعا إلى الله فليس إلا الدعوة إلى الله

1 – [التوبة 33].

أو الدعوة إلى الشيطان؟ ولا أحسن قولا ممن أعلن أنه من المسلمين، فإن لم يعتز المسلم بدينه فبم يعتز؟

– هل يعتز بدين يقول إن الرب (ثلاثة في واحد) أم بدينه الذي يقول الله واحد؟.

– هل يعتز بدين يقول إن كتابه (أربعة في واحد) مؤلفين، أم بدينه الذي يقول كتابه واحد لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؟.

– هل يعتز بدين يقول أتباعه إنهم أبناء الله والبقية خلقوا لهم عبيدا، أم بدينه الذي يقول إن الناس عند الله سواء بأصل الخلق ولا فرق إلا بالتقوى؟

– هل يعتز بدين يقول إن ربه حيوان، أو شجر، أو حجر، أم بدينه الذي يقول ربه فاطر السماوات والأرض بيده مقاليد كل شيء، وهو صاحب المطلقات كلها؟.

– هل يعتز بدين يقول إن الذات خلقت للملذات كالعلمانية، وأننا جئنا إلى الحياة بلاهدف ولا غاية، ولا معنى للقيم الإنسانية الثابتة، أم بدينه الذي يقول إن للحياة قيمة عليا .. وللوجود غاية عظمى .. وللإنسان رسالة سامية؟ إن المسلم وحده يحمل كمالات التصور البشري السليم، وفلسفته الواضحة، لذلك ليس كما المسلم خليق بأن يعتز بدينه، قال الله: (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين). فليحمل دينه بقوة الحجة وثبات الموقف حيثما اتجه في المحافل ومنصات التواصل، وقاعات المناظرات، فلا يستحي ولا يستخذي، وقد وجدنا ألا أحدا أكمل منه حجة ولا أسدَّ منه منطقا، وله مصاديق ملأت الدنيا روعة مثل أحمد ديدات في علمه المقارن، وذاكر نايك، ومحمد عمارة، والشيخ الغزالي أمام غيرهم.

الفرق بين العقل والقلب

- **هل القلب كالعقل في نشاط الإدراك؟**

الجواب: القلب غير العقل وسيأتي توضيح معنى الآية. .فمن خلال دراستي للآيات المتضمنة للعقل والقلب دراسة تحليلية، وجدت أن القلب ليس كالعقل كما صار البعض يظن، لكن هناك قوة علاقة بينهما كعلاقة التقرير بالتنفيذ.

أما العقل فموضع التحقيق في صحة الشيء من عدمه .. وهو إذ ينظر ويختار يبقى محايدا ونتائجه محايدة .. ولذلك سمي عقلا .. والعقل الربط والحبس وفي الحديث:" اعقلها وتوكل" وسمي المعتقل لأنه يحبس الأفراد، فدور العقل يقيد النتائج بأسمائها وصفاتها إن كانت حقا فهي في العقل حق، وإن كانت باطلا فهي في العقل باطل بصرف النظر عن مصدرها وعن موقف عواطف صاحبه، وليس كذلك القلب فقد ينحاز للباطل وينكر الحق بنوع الموقف والعكس.

لذلك الله تعالى لم يذم العقل كما ذم القلب كما سيأتي.

ولنتأمل في قول الله: (أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَذَا ...)[1]السؤال هنا للنفي، وهو بمثابة قولك لآخر: هل يقبل ضميرك بهذا؟ أي أن ضميرك لا يقبل بهذا. فالله ينفي عن العقل أنه يقر بالشر، بعكس القلب نسب إليه مواقف سوء كثيرة فهو يتقلب في المواقف بحسب الهوى ومنه سمي القلب، قال تعالى: (وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ) [2]أي يحولها من موقف إلى آخر.

ولقد وصف القلب بأوصاف عاطفية سقيمة وأخرى سليمة ولايمكن أن يوصف بها العقل.

أما السقيمة: فكالمرض .. والزيغ .. والعمى .. والكبر .. والغل .. والقسوة .. والغلظة .. والتغليف .. والران .. وكسب الآثام .. واللهو .. الخ

ووصفه من ناحية بالانشراح .. والخشوع .. والاطمئنان .. والسكينة .. واللين. والتأليف .. والتثبيت.

---

1 - [الطور : 32].

2 - [الأنعام : 110].

وكل هذه الأوصاف لا علاقة لها بالعقل، فلايمكن أن يمرض العقل أو يطبع الله عليه، وإنما الله يطبع على القلب من باب المشاكلة لسلوك القلب المتعنت، أما العقل فهو محايد ولو طبع الله عليه لن تقام على صاحبه الحجة، وسُيرفع عنه القلم، وستسقط عنه التكاليف، ولن يعذب الله إنسانا طمس على عقله، بل يبقى مصدر تلق محايد حتى تقام عليه الحجة ولا يعذب الله الإنسان إلا بما وعى وعقل وأدرك .. لذلك سمي العقل عقلا لأنه يعقل الأمور أي يقيدها بمنظار الحق، وسمي القلب قلبا لأن يتقلب بسبب اختلاف رغائبه.

وجاء ذم القلب من كونه منبع الخطر الأكبر على الإنسان، فهو موضع القبول أو الرفض لمسلّمات العقل كما هو مصدر التنفيذ أو التعطيل، فقد يرفض صحيح العقل على جلائه وقد يقبل فاسد المنطق على جلائه، ويحدد هو نوع الموقف قال الله في فرعون وقومه: (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم) فالجحود ناتج عن موقف قلبي، واليقين ناتج عن تحقيق عقلي فلا جدوى من عقل صحيح مع قلب غير سليم. انظر إلى هذه الآية من سورة البقرة 75 في بني إسرائيل (أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) [1]أي لن يؤمنوا لكم لأن المسألة لم تعد عقلية، بل موقفا قلبيا فهاهم عقليا عقلوا كلام الله وفهموه وعلموه، ولكنهم مع ذلك ذهبوا يحرفون كلام الله وهذا هو نشاط القلب الذي يحدد الموقف النهائي لا العقل المحايد.

وربما قال الإنسان الشيء بلسانه وقلبه بخلاف ذلك: (يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم) ولذلك جعل الله قبول الأعمال مقرونة بصدق مواقف القلب، فلاتكفي الأفعال والأقوال بدون رضا القلب لأنه أساس الفصل في المواقف.

والقلب إذا قرر الانحراف عن طريق الحق استغلق .. وبات معه العقل ومصادر الاستشهاد في حكم المعطل، فلاينتفع الإنسان بعقله ولا بسمعه ولا ببصره، ويصير كالبهيمة التي تتصرف بدافع الغريزة، ولا علاقة لحواسها بمسألة الاستدلال إلا أنها تفضل على الإنسان بأنها لم تنحرف عن ناموسها التي جبلت عليه.

من هنا نخلص إلى القول إن القلب هو السلطة التنفيذية وموضع إنفاذ الإرادة والعقل سلطة تشريعية حاكمة ولكل وظيفته المستقلة.

ولكن السؤال الذي يتطلب الإجابة عليه هنا هو ماسر إسناد مسألة العقل إلى القلب كما في الآية قال تعالى: (أَفَلَم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها ...)[2].

---

1 – [البقرة : 75].

2 – [الحج 46].

الجواب: أن هذا من باب المجاز اللغوي، فلأن القلب سبب في تنفيذ نواتج العقل أسند العقل إليه، كأن تقول: فلان يده كريمه .. وإنما تريد أنه كريم، لكن لأن اليد سبب في العطاء نسب إليها الكرم، قال المتنبيّ:

لَهُ أيَادٍ إليّ سَابِقَةٌ ** أعُدّ مِنْهَا وَلا أُعَدّدُهَا

وقال السموءل:

تسِيلُ على حدِّ السُّيوفِ نُفوسُنَا**ولَيْسَ على غَيْر السُّيُوف تَسيلُ

نسب السيلان إلى النفوس، والنفوس لا تسيل، وإنما التي تسيل الدماء، لكن لما كانت النفس سببا في حفظ الدم نسب إليها الفعل، لعلاقة السببية.

وأبلغ من ذلك قول الله: (وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً) [1] نسب البخل والإسراف إلى اليد، لأنها سبب في حدوث النوال من عدمه وإنما المراد لا تكن بخيلا ولا مبذرا.

1 - [الإسراء : 29].

هل الإنسان كائن أخلاقي أم كائن غريزي؟

في جلسة علمية وفكرية ثرية دار بين أعضائها نقاش ردا على سؤال:

– هل الإنسان كائن أخلاقي فطري أي ركب نظامه على اختيار الأخلاق الحميدة، أم أنه كائن غريزي مركّب على الدوافع الغريزية الأنانية دون النظر إلى مقتضيات الأخلاق؟

1– أصحاب نظرية الغريزة:

وللرأي الأخير أدلته وبه نبدأ .. ففرويد ذهب إلى أن الغرائز الجنسية والعدوانية هي المحركات الرئيسية للبشر وهو ما يعني أن الإنسان كائن غريزي معني بالدرجة الأولى بكيفية مواجهة احتياجات الغريزة ولو على حساب الأخلاق كون الأخلاق مُثُلا غير واقعية.

وعلى أساس هذه النظرية أُلِّفت فيها الكتب، وخرجت الأفلام والمسلسلات، وأطلقت الشعارات المادية، من نحو قول ميكافيلي "الغاية تبرر الوسيلة" فإذا اقتضت المصلحة وسيلة غير شريفة تُقدم المصلحة على مبدأ الخُلق الجَمْعي. وانعكس هذا على نظام الحياة في الكثير من الدول المادية فشاعت ظاهرة التفكير الفردي وهي الحياة المتحللة من الالتزامات تجاه الآخرين بقدر مسؤليتها عن احتياجات الذات الفردية والمصلحة الأنانية..فقيم التكافل، والصِّلات، والكرم، والشرف، والعفة، والنخوة، والنجدة، والوفاء هذه قيم عتيقة والتزامات معيقة أمام الفرد وسعادته وحريته..وعللوا أن الناس إلى فعل الشر وتجاوز قيود الفضيلة أميل منهم إلى تحمل الالتزامات الأخلاقية، وإن الله ليقول: (وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين) .. وهذا التفلت الاخلاقي انعكس على سياسات الدول والمصالح القومية فأينما تكمن المصلحة تنتهي الأخلاق، ولذلك لا تتورع دول كبرى عن ممارسة أسوأ الأخلاق مع الغير من أجل تحقيق مصلحة ما .. وقالوا لايوجد صديق دائم بل مصلحة دائمة.

2– أصحاب نظرية الأخلاق:

يرى القائلون بأن الإنسان كائن أخلاقي بأصل (الفطرة) فالفطرة من (فطر) أي (خلق) قال الله (فاطر السموات والأرض) أي خالق السماوات والأرض، فهي ما جبل الله الإنسان عليه من خصائص الخير، فالخير أصل نظامه الأول ال(data) وإذا كان الله قد جبل الإنسان على الخير فإن الله أيضا قد أودع فيه قابلية لفعل الشر، وهو قوله تعالى (إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا) ولكن فرق بين أصل الخلق والقابلية أي أن الشر مكتسب أما الخير فكامن

فيه .. ولذلك يستحيل تصور حياة بلا أخلاق، سواء عند المؤمنين بالشرائع السماوية أو عند الملحدين، وأنه لولا الأخلاق لما بنيت حضارة ولا بني عمران، ولا كان ثمة استقرار.

وعلى هذا أدلته العقلية والنقلية والمشاهدة:

أ- الأدلة العقلية:

فلنمثل بصفة الكذب وترك خلة الصدق، ولنقل إن بالكذب قد تتحقق فوائد مادية فردية، وترقيات، ومكافآت، عن طريق الغش والتدليس، وانتزاع حق الغير أحيانا بالخيانات والمكر.

ولنقل إنه قد يتعرض الصادق باعترافه بالخطأ للعقوبة، وقد يتعرض التاجر الذي لم يقبل الغش والدعاية الكاذبة إلى الإفلاس، ولنقل إن اعتماد الكذب كخلق يعني الذكاء والدهاء وأن اعتماد الصدق كسلوك يعني سذاجة وغباء .. غير أن كل ذلك لن يغير من حقيقة أنه لولا قيم الأخلاق الإنسانية ومنها الصدق ما قامت الحضارات، ولا شيد العمران ولا استقرت حياة الناس، حتى وإن مجدوا الكذب وذكاء الاحتيال – وهذا كمثال – فلن يستطيع الإنسان في أي زمان أو مكان أن يعتمد هذا السلوك بقانون رسمي بدل الصدق .. إذ كيف يقرأ الناس كتابا لكاذب؟ .. ويذهبون إلى طبيب كاذب؟ .. ويشترون من تاجر كاذب ؟ .. وكيف سيعتمد من يريد بناء منشأة، مخطط إنسان كاذب؟ ومهندسين ومشرفين وعمال يمتهنون الكذب للحصول على مصالحهم .. من هنا اكتب حكمك على النظرية السابقة بالبطلان التام .

وإن معنى الكائن الغريزي يحول الإنسان إلى حيوان مفترس، وسيتفوق على الحيوان المفترس بالتخطيط العقلي لابتداع الشر وتدمير الحياة .. غير أن الإنسان وإن تمرد على بعض القيم فلا يعني أن تركها هو الأصل لديه بل مجرد انحراف عن القاعدة.

ب- أدلة الملاحظة:

في موقعها على شبكة العنكبوت نشرت ال bbc خمس دراسات على أطفال دون السنة الواحدة من العمر ومنها ذكرت أنه في إحدى حلقات برنامج "العالم المثير للأطفال الرضع" على قناة "بي بي سي 2"، عُرضت إحدى الدراسات التي تبحث في مدى قدرة الأطفال على تمييز السلوك الحميد من الذميم، وفي أي عمر تتطور لديهم هذه القدرة.

إذ شاهد أطفالا رُضع دون السنة من عمرهم عرضا لعرائس تمثل أشكالا هندسية بألوان مختلفة، وكانت هذه الأشكال تبدي سلوكيات أخلاقية حميدة أو ذميمة لا تخطئها عين. ففي إحدى المرات كانت الدائرة الحمراء تحاول الصعود إلى أعلى، بينما كان المربع الأزرق "الشرير" يدفعها لأسفل، وفي الوقت نفسه، كان المثلث الأصفر "الطيب" يحاول مساعدة الدائرة الحمراء بدفعها إلى أعلى.

وبعد انتهاء العرض، خُيّر الأطفال بين المربع الأزرق الشرير والمثلث الأصفر الطيب. وربما كما توقعت، اختار جميع الأطفال المثلث الأصفر، الذي كان متعاونا وأظهر سلوكا ينم عن رغبة في الإيثار.

وتوالت الدراسات التي تثبت أن الأطفال الرضع يظهرون سلوكيات تنم عن الإيثار وحب الخير، مثل الدراسة التي أجرتها جامعة هارفارد وأطلقت عليها اسم "مراقبة الأم"، إذ لاحظ الباحثون أن الصغار كانوا يتصرفون بلطف ويتعاونون مع بعضهم البعض رغم أنهم لا يعلمون أنهم يخضعون للمراقبة، وهذا يدل على أن هذه السلوكيات الحميدة لا تكتسب بالتعلم؛ لتفادي العقاب أو التوبيخ من الشخص المراقِب فحسب".

إن منظومة القيم الإنسانية الحميدة ضرورة حياتية ووجودية لذلك فإنها موجودة بأصل الخلق ولأن هدف خلق الإنسان عبادة الله (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) وعبادة الله يمثل الفطرة المودعة .. والشر نزوع دافعه الهوى وخروج عن الفطرة، وإنما الإنسان كحاسوب يتم شراؤه من السوق فيجد فيه برامج نافعة ومحتويات ضرورية لأداء خدمات عليا، حتى يكون صاحبه هو من يستعمله في غير الأهداف الرئيسة التي وجدها عند شرائه كون الجهاز قابل لاستخدامه في الشر.

ومهما بلغ الإنسان درجة من الانحراف إلا أنه لوسئل عن أيهما أحق بالاتباع قيم الخير أم الشر؟ سيجيب: قيم الخير. ولو سئل عن سبب تعاطيه للشر فإنه سيعزي ذلك إلى الهوى أو الظروف أو سوى ذلك .. ولن يقول لأنها هي الأصل .. ولن يخلو من صراع بين هوى النفس ونداء الفطرة السليمة التي تأبى سلوك الإنحراف، إلا أن يحدث للفطرة السليمة تشويش فيلتبس الحق بالباطل والخير بالشر، وقد عبر عن هذا قوم لوط بقولهم للمؤمنين منهم: (أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون).

ج- الأدلة النقلية:

تشير نصوص الإسلام إلى أن الدين يمثل الفطرة وأن الفطرة كامنة بأصل الخلق وأنها لن تتغير قال تعالى: (فاقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لايعلمون) [1].

---

1 - [سُورَةُ الرُّومِ: ٣٠].

فتأمل كيف بدأت الآية بالدين المقبل على الله وانتهت بالدين القيم أي المستقيم وبينهما الفطرة وهو ما يعني أن الفطرة السليمة تمثل الدين ومقاصد الدين وهدف الدين وهي التي لايخلو منها مؤمن وكافر.

قال السعدي رحمه الله في تفسيره (فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا) وضع في عقولهم حسنها واستقباح غيرها، فإن جميع أحكام الشرع الظاهرة والباطنة قد وضع اللّه في قلوب الخلق كلهم .الميل إليها، فوضع في قلوبهم محبة الحق وإيثار الحق وهذا حقيقة الفطرة.ومن خرج عن هذا الأصل فلعارض عرض لفطرته أفسدها"

وفي البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " من يولد يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتجون البهيمة ، هل تجدون فيها من جدعاء حتى تكونوا أنتم تجدعونها". ومن قال أن الفطرة تمثل مقاصد الإسلام لا يختلف عن القائلين إن معناها الاسلام نفسه من هنا أشار صلى الله عليه وسلم إلى أن أبوا المولود يستقبلان فطرته السليمة بحرفها إلى غير دين الفطرة فالإسلام إنما جاء ليحسن الحسن ويقبح القبيح وقال – صلى الله عليه وسلم عن ربِّه:" إني خلقتُ عبادي حُنفاءَ و أنهم أتتْهم الشياطينُ فاجتالتْهم عن دينِهم، و حرَّمتْ عليهم ما أحللْتُ لهم، و أمرَتْهم أن يشركوا بي ما لم أُنزِلْ به سلطانًا" رواه ابن حبان وصححه الألباني.

ولك أن تقيس ما خسر العالم بغياب الكثير من منظومة القيم، ومن أبرزها قيم العفة والغيرة، كيف تفككت الأسرة وانقطع النسل أو يكاد، وتشرد الإنسان في الشوارع، وعزل نفسه وراء الجدران، واضطربت المفاهيم، وصاروا لا يرون فرقا بين الذكر والأنثى ولا فرقا بين المعاشرة مع المرأة بالحلال وغير الحلال، وبين الإنسان وغير الإنسان وبين الإنسان الزوجي أو المثلي، وما تركوا منزلقا إلا رموا بأنفسهم فيه.

لماذا نزل القرآن عربيا؟

(حم*وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ)[1] (إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) يقسم الله تعالى بالكتاب المبين في مطلع سورة الزخرف أنه جعل القرآن عربيا ويعلله بقوله: (لعلكم تعقلون) .. فهل العقل والتدبر الإيماني متحصل أكثر باللغة العربية فكانت هي لغة الوحي؟ ففي آية أخرى نجد: (قُرآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)[2] كأن القرآن هو باللغة العربية فصيح بيّن وبغيره ذو عوج، هكذا تقول قراءتنا للمعنى .. ثم في غير ما آية نجد المولى تعالى يقرن بيان القرآن، ووضوحه، وتفصيل آياته، باللسان العربي .. وأشار المولى إلى أن نزوله بغير اللغة العربية سيحتج الكفار بأنه غير مفصل: (وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ...)[3].

والمعنى العام أأعجمي وعربي؟ كيف يكون كلامه أعجمي والنبي عربي؟ .. لولا فصلت آياته .. هلا كان مفهوما لنا وهذا مجمل قول المفسرين وهي عبارة احتمالية، وعلى كل يغني العربية تحدي القرآن الكريم بها عن الإتيان بمثله ولا يكون التحدي إلا بلغة القرآن الكريم اللغة العربية فهي لغة إعجازية بنص القرآن .. قال الفخر الرازي رحمه الله:" كونه عربيا والمراد أنه أعجز الفصحاء والبلغاء عن معارضته كما قال: (قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرا)[4].

وسنجد الأدلة تتضافر بمعان إضافية متصلة بالوصف العربي (وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْماً عَرَبِيّاً ...)[5] قال المفسرون نزلت أحكامه باللغة العربية ليفهمه قوم النبي – صلى الله عليه وسلم– إلا أن هذا التفسير لا يبدو مرضيا، فلا علاقة برأيي لفهم الأحكام بلغة خاصة، ولا بأن النبي يأتي بلسان قومه فهذا بدَهي، ثم كان يكفي أن يشار إلى ذلك في آية أو آيتين لكن جاء تناول العربية في (11) آية. والذي أراه – والله أعلم– أن القرآن لما كانت معجزته كامنة في أسلوبه وسمو نظامه فقد اختار الله له القالب اللغوي المعجز أيضا، القادر من حيث خصائصه

---

1 – [الزخرف : 2].

2 – [الزمر : 28].

3 – [فصلت : 44].

4 – [الإسراء: 88].

5 – [الرعد : 37].

على تحمل فرادة لغة الوحي، فمن النظر الفاحص سنجد أن مباني اللغة العربية هي من السعة الإعجازية بحيث تستوعب المعاني وكل دلالات الاتصال الإنساني الذي يبلغ أعلى مدارك البيان، فيخاطب القرآن الناس بعالي البيان، قال: (... وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً)[1] وكأنّ خصائص العربية تتكفل بإيجاد القول البليغ هذا، صحيح سنجد لبعض المزايا أشباها ونظائر في لغات أخرى ولكن الصحيح أيضا أن للعربية نظاما اشتقاقيا وهندسة تركيبية خاصة .. فمن أصغر وحدة كلامية وشمول مخارجها، إلى أكبر وحدة كلامية وتعدد نظامها، هو في حدود معرفتي وطبقا لسؤال بعض أهل العلم لا يتكرر في غير اللغة العربية، على أن الموضوع يحتاج إلى مزيد من البحث في ضوء المنهج المقارني لنجد أن الله تعالى لم يذكر العربية في أحد عشر موضعا عبثا.

ولنا أن نتوقف عند مثالين هما (التعدد البنائي) لفروق دلالية في إطار معنى مثل كلمة (رأى) و(التعدد الدلالي) لبناء جذر لغوي واحد مثل (ح ك م) .. ففي العربية ليست الرؤية البصرية واحدة في مفردة واحدة، بل لها مفردات متعددة ذات زوايا دلالية مختلفة، تعطي فروقات غاية في الدقة، كل زاوية في غير العربية يتوصل إليها بشرح إضافي ولن يعطي الشرح من قلم إلى آخر معناها الحدي والمغلق .. وعلى نحو ما نرى:

– **(نَظَر)** اتجه بعينيه بنظر عابر ولم يتبين تفاصيل المنظور وكنهه لذلك قال (...وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ) [2] وقال : (وَمِنهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يُبْصِرُونَ)[3] فالرؤية لم تكتمل، وكأن النظر غير الممعن لا يفرق عن العمى بشيء، ولذلك من صفات الله أنه بصير وليس من صفاته أنه نظير وقد جاء قوله تعالى: (... وَلاَ يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) [4] والمراد لا ينظر إليهم مجرد النظر العابر.

وقولك قلبت النظر في الأمر أي حاولت استقصي شأنه حتى أبصرته فالتقليب يسبق الإبصار.

وأما قوله تعالى: (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت...) (قل سيروا في الأرض فانظروا...) وأمثالها فهذا النظر غير الرؤية العلمية أو القلبية لذلك كانت دعوة عامة شملت

---

1 – [النساء : 63].

2 – [الأعراف : 198].

3 – [يونس : 43].

4 – [آل عمران : 77].

كفار الجاهلية، أما الرؤية بمعنى العلم فقد وجهها الله دعوة لكفار اليوم أصحاب العلم التحليلي فقال: (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ...) [1] وقال: (وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا ...) [2] فاعتمد هنا الرؤية بدل النظر والسين تفيد المستقبل.

ولذلك قال بعض المفسرين في قوله تعالى : (أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) [3] أن الرؤية قلبية لا بصرية إذ الجميع ينظرون ذلك لكن المراد الرؤية العلمية التأملية.

- **(أَبْصَرَ)** تشمل الرؤية التحليلية لأجزاء الصورة قال تعالى خبرا عن القيامة: (... فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)[4] فهو تال للنظر، وفيه الاستبصار وهو تجريدي قال تعالى: (...وَتَرَاهُمْ **يَنظُرُونَ** إِلَيْكَ وَهُمْ لاَ **يُبْصِرُونَ**) وقال:(... وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بها...) [5] فلهم أعين ينظرون بها ولكنهم لا يبصرون، وقال: (فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ) [6] فهم ينظرون لكنهم لم يبصروا بعد ويستبينوا الحقيقة، من هنا قيل في قول الله عز وجل: (قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ...) [7] ولم يقل من نظرهم إذ لا مناص من التعامل بالنظر العابر لكن إذا وصل إلى التفحص والتحليل فهو بصر.

- **(رَأَى)** تأتي بمعنى النظر الحسي وبمعنى قلبية أي العلم المجرد وبمعنى الحلم أي الرؤية المنامية وفيها اختلاف.

فرأى الحسية التي تنصب مفعولا واحدا هي نظر قصدي بهدف معرفة التفاصيل قال الله: (...قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَـكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ...) [8] فنفى عنه الرؤية بينما قال في حق النظر: (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا **نَاظِرَةٌ**) [9] وهو نظر الآخرة الذي لا يدرك به كنهه، أما الإدراك فهو أخص فيفيد الإحاطة والشمول قال تعالى: (فَلَمَّا **تَرَاءى** الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا **لَمُدْرَكُونَ**) [10] فترائيهم لبعض لا يعني الإدراك

---

1 - [فصلت : 53].
2 - [النمل : 93].
3 - [النمل : 86].
4 - [قـ : 22].
5 - [الأعراف : 179].
6 - [القلم : 5].
7 - [النور : 30].
8 - [الأعراف : 143].
9 - [القيامة :22- 23].
10 - [الشعراء : 61].

فالإدراك الإحاطة، لذلك قال الله : (لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ ...) [1] فهو تعالى فوق أن يحيط بذاته العلية مخلوق.

أما الرؤية القلبية فهي أعمق لأنها بمعنى العلم بالشيء وحقيقته فقولك رأيت الله رحيما أي تيقنت بطريق العلم، وقد سبق التفصيل.

وهذه التخريجات اعتمادا على مقارنة النص القرآني الذي يقتضيه نفي التضارب بين المترادفات والله أعلم.

- **(شَهِد)** نظر مع الحضور لذا جاء منه الشهادة.
- **(شَاهَد)** نظر مع الحضور والإدامة.
- **(عايَنَ)** نظر بتفحص.
- **(رَنّقَ)** أدام النظر وأخفاه.
- **(رَمَق)** نظر بمجامع عينيه.
- **(لَحَظَ)** نظر من جانب.
- **(لَمَحَ)** نظر نظرا عابرا.
- **(حَدَج)** نظر بحدة.
- **(رَنَا)** نظر بتطلع.
- **(شَخَصَ)** نظر مع توقف العينين فلا يطرفان.
- **(شَزَر)** نظر مع لحظ العداوة.
- **(اسْتَشفّ)** نظر في الشيء لفحصه.
- **(اسْتَشرَفَ)** نظر واضعا يده على حاجبيه.
- **(حَمْلَق)** نظر إليه نظرا شديدا مع حملقة العين.

وهناك صيغ أخرى غيرها للنظر مستعملة وغير مستعملة لم نأت بها.

وفي القرآن الكريم نجد (رأى) (أبصر) (نظر) (أدرك) (شخص) (شهد) (شاهد) بحسب اختلاف المقامات، مع تقلبها بين الأزمنة، والعدد، والنوع، واختلاف السياقات، والتراكيب .. الخ في غير اللغة العربية هي كلمة تعبيرية واحدة، أو كلمتان، أو ثلاث إن زادت، ولو أراد المتحدث في غير العربية شرح نوع النظرة فسيحتاج إلى شرح إضافي وقد يختلفون في إعطاء دقة المعنى، أو لا تسعف أحدهم إمكانياته في التصوير، وعلى كل ما قد تأتي به اللغة العربية من المعاني في صفحة قد لا نحصل عليه في غيرها إلا في صفحات، وبالتالي يمكن

---

1 - [الأنعام : 103].

وصف العربية أنها لغة تكثيفية، تفريعية، دقيقة، وتشمل هذه الميزة تركيب الجمل فيلحظ فيها القدرة على الاقتصاد البنائي كقول الله: (أنلزمُكموها؟) فشملت استفهاما، وفعلا، وفاعلا، ومفعولين في صياغة بناء واحد، ومثله (فسيكفيكهم الله).

بينما كلمة واحدة في الإنجليزية قد تصل حروفها إلى 25 حرفا بل إلى 29 حرفا مثل كلمة (Floccinaucinihilipilification) وتعني (شيء بلاقيمة) كل هذه الحروف وضفت لمعنى واحد .. في حين الحرف الواحد في العربية قد يكون بعد الإعلال بالحذف جملة مثل (عِ الدرس) (فِ بالعهد).

وسيختلف الأمر في الاشتقاق الصرفي، فاللغة العربية تتسم بقدرتها العجيبة في ذلك، وتمتلك أوزانا قياسية للكلمات تعطي لكل معنى خاص قالبه الخاص، من غير انتقال إلى قوالب أخرى متى كان المعنى ينتمي إلى الحقل الدلالي العام للجذر، وكما كمثلنا لذلك بكلمة (ح ك م) فهذا الجذر نواة لتشجير لغوي ممكن بزيادة حرف أو حركة ما، وعلى نحو ما نرى:

- حَكَم، يحكم، حُكم، فهو حاكم، ومحكوم، وحِكمة، وحكيم، ومحكمة، وما أحكمه! وزيد أحكم من عمرو.
- حكّم، يحكّم، تحكيما، فهو مُحكِّم ومُحكَّم .. الخ
- تَحَكّم، يتحكّم، تحكّما، فهو مُتَحكِّم ومتحَكَّم فيه.الخ.
- حَاكَم، يحاكم، مُحاكمة،فهو مُحاكم ومحاكَم .. الخ
- أحْكَم، يُحكم، إحكاما، فهو مُحْكِم ومُحْكَم .. الخ
- اسْتحكم، يستحكم، استحكاما، فهو مستحكِم ومستحكَم .. الخ

فعندنا جذر عام تفرع عنه فروع جذرية أخرى، على أنه لا يزال النحت الاشتقاقي ممكنا لمواجهة ما استجد من المعاني، فقالوا في تعبيرات اشتقاقية.

- حوْكَمة.
- حاكمية.

يصف الدكتور/ أحمد غالب القدسي أستاذ مادة اللغة الإنجليزية في جامعة صنعاء أن اللغة العربية لغة نووية متشجرة واسعة العطاء ثرة الأداء، بعكس اللغة الإنجليزية الأشهر والأوسع انتشارا في العالم، وعند طلب مقارنة هذا الجذر (ح ك م) قال: من المستحيل أن تجد هذا التنوع في دقائق المعاني في أي جذر من جذور مفردات اللغة الانجليزية، فلكل فرع من هذه المعاني مبان أخرى وسيطول الكلام لشرح كل معنى فيها.

وعليه يترتب اختلاف المعجم العربي عن غيره من المعاجم سعة وثراء يقول الدكتور/ يحيى المراني أستاذ اللغة الانجليزية بجامعة صنعاء إنه لا مقارنة بين عدد مفردات المعجم الإنجليزي الضيق جدا ومعجم اللغة العربية الخصب جدا الذي يعطي مجال حركة تعبيرية أوسع.

وبفضل أوزان العربية سنجد لها قدرة على تصريف المفردات غير العربية أيضا فيقال: (انترَ – تأنتر– يؤنتِر– مؤنتِر – مؤنتِرون– انترنا التعليم– فهو مؤنتر).

أما صور بناء الجملة فلايتسع المجال لشرحها ففي عمليات الاستبدال والتحويل من معطيات الدلالية ما لا يُحدّ ولا يُعد، وإن الآلاف من الرسائل العلمية قد بَحرَت وتبحر لاستخراج أصدافها وجواهرها ولم ولن تنقضي عجائبها.

وثمَّت ميزة أخرى وهو أن ارتباط اللغة العربية عن غيرها بالكتاب المقدَّس، وتفردها في جماليات الأسلوب، قد أكسبها سمة الامتداد المتصل زمانا ومكانا، فعاش بها ومعها جميع الأجيال، دون انقطاع، بخلاف غيرها ذات القابلية للانقطاع عن الأجيال المختلفة فجيل اليوم في الانجليزية مثلا لا يفهم لغة شكسبير فهي تنشأ لتموت، وكل يوم تنشأ كلمات ومصطلحات جديدة على حساب موت مفردات أخرى، فتتفكك بذلك حلقات الاتصال، وتضيع ميزة الثقافة التراكمية.

لفتة في سياق عداء قريش للإسلام

تتعدد مظاهر اليقين في كتاب الله منها تسجيل حقائق تاريخية مستقبلية جاءت كما ذكر الله تعالى، مثل نزول القرآن بأحكام مصيرية ضد بعض أفراد قريش وبمجمل مجتمع قريش المحارب تعدهم بالنار، واستمروا كفارا محاربين حتى ماتوا ولم يسلموا، وكان يمكن أن تسدد قريش ضربتها وتنهي الدعوة المحمدية بحركة ذكية وبسيط جدا؟. كان في وسعها أن تعمل خلاف تلك الوعود وتبطِل أحكام القرآن النهائية ضدهم وبالتالي تثبت بطلان القرآن وما جاء به .. نشرح ذلك كالتالي:

– في سورة البقرة ويس يشير القرآن الكريم إلى أن قوم قريش الذين وقفوا ضد الدعوة لن يسلموا وسيموتوا كفارا ويدخلوا النار حيث قال: (إِنَّ الَّذينَ كَفَروا سَواءٌ عَلَيهِم أَأَنذَرتَهُم أَم لَم تُنذِرهُم لا يُؤمِنونَ * خَتَمَ اللَّهُ عَلى قُلوبِهِم وَعَلى سَمعِهِم وَعَلى أَبصارِهِم غِشاوَةٌ وَلَهُم عَذابٌ عَظيمٌ)[1] وفي سورة يس: (لَقَد حَقَّ القَولُ عَلى أَكثَرِهِم فَهُم لا يُؤمِنونَ) [2].

وهذا ما حدث فقد مات معظم هيئة قريش الرسمية وملئها على الشرك كما قرر حقيقته القرآن.

– ومن ذلك ذكره أن الوليد بن المغيرة سيموت كافرا ويذهب للنار، حيث قال: (سأصليه سقر) وقد مات في السنة الأولى من هجرة النبي صلى الله عليه وسلم مات على شركه كما تنبأ بذلك القرآن، والآية مكية ويعني أن الوليد عاش بعدها طويلا ولكنه مات كافرا.

– وقال في الأخنس بن شريق وقيل بل هي في الوليد بن المغيرة أنه أيضا سيذهب إلى النار: (كلا لينبذن في الحطمة.وما أدراك ما الحطمة.نار الله الموقدة)[3] وفعلا لم يأت ليسلم ومات كافرا.

– كذلك نزلت سورة كاملة في أبي لهب وزوجه أم جميل تذكر أنهما في النار: (سَيَصلى نارًا ذاتَ لَهَبٍ * وَامرَأَتُهُ حَمّالَةَ الحَطَبِ * في جيدِها حَبلٌ مِن مَسَدٍ) [4]وقد مات أبو

---

1 – [البقرة:6– 7].

2 – [يس: ٧].

3 – [الهمزة:4– 6].

4 – [المسد: ٥].

لهب كافرا بعد غزوة بدر بأيام وبعد أكثر من عشر سنوات من نزول السورة كما ماتت أم جميل وزجه على كفرها.

– وقال في أبي بن خلف أنه من أهل النار، وأنه سيعضُّ على يديه يوم القيامة كناية عن الندم في عدم اتباع الرسول، فقال: (وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا * يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا)[1].

– وفي أخيه أمية نزلت سورة الهمزة والتي فيها (كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الحُطَمَةِ * وَما أَدراكَ مَا الحُطَمَةُ * نارُ اللَّهِ الموقَدَةُ)[2].

وكلا من أبي وأمية قتلا مشركين .. قتل أبي بن خلف في غزوة أحد على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الوحيد الذي قتله بيده لأنه أصر على قتل النبي فقال النبي دعوه لي فقتله .. وقتل أميه قبله في غزوة بدر على يد بلال بن رباح رضي الله عنه.

كل هؤلاء الذين ذكر القرآن الكريم أنهم في النار لم يأت أحد منهم وأسلم .. لقد كانت فرصة أمام قريش وملئها هؤلاء أن يغيروا من طريقة حربهم ويقوموا بخطوة ذكية ويدفعوا بأولئك الذين نزلت فيهم أحكام بتحديد مصيرهم إلى النار أن يدَّعو وإن بواسطة التمثيل أنهم قد أسلموا، ثم يدَّعون أن القرآن جاء مناقضا لاختيارهم، ثم يعمدون إلى تشكيك المسلمين في دينهم كيف حكم القرآن أننا سنكون في النار وها نحن ندخل في دعوة محمد؟! .. غير أن شيئا من ذلك لم يحدث لأن الله يعلم أنه لن يحدث، ولو بالخداع كخداع المنافقين في المدينة فنزلت أحكامه النهائية فيهم وكان كما قال .. فسبحان من هذا قضاؤه وتقدس من هذا دينه.

ولا تمثل هذه النبوءات الصادقة سوى جزء من آيات القرآن الإعجازية أثناء زمن الوحي فقد تحققت نبوءات أخرى.

– تنبأ بغلبة الروم على الفرس وتحقق ذلك قال تعالى: (ألم* غُلبت الروم وهم من بعد غلبهم سيَغلبون).

– وتنبأ بهزيمة قريش في بدر فقال: (سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ)[3]. وهزموا وبطش بهم المسلمون كما قال الله: (يَومَ نَبطِشُ البَطشَةَ الكُبرى إِنّا مُنتَقِمونَ)[4]

---

1 – [الفرقان 27 – 28].

2 – [الهمزة: 6– 3].

3 – [القمر: 45].

4 – [الدخان: ١٦].

– وبشر بفتح خيبر ومغانم كثيرة بعد انصراف المسلمين من الحديبية فقال: (لَقَد رَضِيَ اللَّهُ عَنِ المُؤمِنينَ إِذ يُبايعونَكَ تَحتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ ما في قُلوبِهِم فَأَنزَلَ السَّكينَةَ عَلَيهِم وَأَثابَهُم فَتحًا قَريبًا * وَمَغانِمَ كَثيرَةً يَأخُذونَها وَكانَ اللَّهُ عَزيزًا حَكيمًا) [1] أعادهم إلى فتح خيبر بعد شعور بالغبن من الصلح مع قريش فكان كما وعد المولى تعالى.

وصدَّق الله رسوله الرؤيا بالحق في فتح مكة وكان كما شاء الله وأحب المؤمنون : (لَقَد صَدَقَ اللَّهُ رَسولَهُ الرُّؤيا بِالحَقِّ لَتَدخُلُنَّ المَسجِدَ الحَرامَ إِن شاءَ اللَّهُ آمِنينَ مُحَلِّقينَ رُءوسَكُم وَمُقَصِّرينَ لا تَخافونَ فَعَلِمَ ما لَم تَعلَموا فَجَعَلَ مِن دونِ ذلِكَ فَتحًا قَريبًا)[2].

إنه القرآن المعجز وكلام الله الخالد الذي (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد).

1 – [الفتح:19– 18].

2 – [الفتح: 27].

تصوير لغة الجسد العدائية في القرآن الكريم

قبل وجود علم لغة الجسد يقدم القرآن الكريم نماذج بالغة الدقة في قراءة الجسد،نجد هذا مع العدو المحارب فضلا عن تسجيل دقائق الصور التفصيلية لملامح أصحاب الجنة وأصحاب الجيحم، يوم القيامة .. وهي تشير في الجانب الحربي إلى أن مصادر الاستدلال الحربية يجب أن تشمل الاستدلال على النوايا أيضا، التي تظهر من سيما الوجوه ولحن القول، ونوع الإقبال وليس فقط على الأفعال .. وأن تشمل القرائن التي منها القدرة على التفرس في لغة الجسد ما أمكن وليس فقط الأدلة القطعية.

وإذا كان القرآن قد رصد لنا العدائية بل والعدوانية أحيانا في صورة ملامح وردود أفعال فسيولوجية صامتة بهدف عمل التدابير والاحتياطات تجاهها فكيف بمن غفلوا من العرب والمسلمين عن من يجاهرونهم بالعداء، وعن أعداء تاريخيين لم يتخلوا عن عدائهم .. ودونك أنظمة كدول المغرب العربي تمد جسور المحبة والتماهي مع دولة احتلتهم ولاتزال تصدر سيلا من التصريحات المعادية والإزدرائية ضدهم، ثم بكم كلمة استرضائية ينسون كل سجل جرائم الحروب مع هذه الدولة العنصرية المحتلة، ولاتزال الفرنكفونية في تونس والجزائر والمغرب تمثل جيشا تسويقيا لحب العدو وحرب الصديق .. ومثل ذلك قل على طلائع الانهزام في بعض دول الخليج التي تحتضن الأفعى الصهيونية وتسمي نعومة ملمسها لين ودٍّ .. ودفء محبة.

إن التصوير القرآني لايهمل حتى رصد لغة جسد المتآمرين فيبرز من صفاتهم .. الجسم وهو يولي كبرا ونفورا .. والرأس الملوي كبرا .. وسيما الوجه غير البريئة مع لحن القول .. والوجوه المنكرِة .. والأعين التي تغمز مع الضحك والاستهتار .. والأعين ذات النظرات الازدرائية .. والأعين ذات النظرات العدوانية .. والأعين ذات النظرات المذعورة من القتال .. فظهرت لغة الجسد في القرآن كقيم تعبيرية ورد منها في الخير وورد منها في الشر، وسنقتصر على الأخير كسلاح استدلالي للفت أنظار عميت عن البينات، وغفلت عن أدوات حرب الأعداء الموجهة وعن كيدهم المستمر ومكرهم بالليل والنهار؟

يقول المولى تعالى: (وَلَوْ نَشَاء لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ) [1] هذه ملامح الشخصية في القرآن أحد مصادر المعرفة، ولم يقل فلعرفتهم بسيماهم ولحن القول بل كرر المعرفة، فللملامح معرفة مستقلة، وللحن القول معرفة مستقلة، ولكننا لانجده يتحدث عما يجب فعله تجاه ذلك؛ لأن هذه قراءة ظرفية تختلف مقاماتها، وثانيا لايعني أن القرآن يدعو إلى ردود أفعال رسمية معينة إنها مجرد معرفة استنتاجية تؤخذ بالرّوية والعمل الذكي الصامت، وقد تقف عند حدود أخذ الحيطة اللازمة، فوق أن قارئ الملامح يختلف من شخص إلى آخر، وأنه تلزمه الفراسة الكافية والفطنة اللازمة التي تفرق بين قراءة وأخرى وموقف وآخر .. وقال تعالى: (وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)[2] (يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) [3] (... وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْاْ عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً) [4] إنهم فقط يديرون ظهورهم دون أن يقولوا شيئا، ولكن هذا السلوك في تجاهل من يقرأ القرآن موقف رافض غير ودّي، ولايقال إنه مارس حرية اختياره في الاستماع ذلك أن أحدا لن يجبره على تحديد موقف من مجرد الاستماع .. لكن رفض مجرد الاستماع لايقره الأدب وذوق التواصل الإنساني.

ومن لغة الجسد لَيّ الرؤوس الذي سببه الكبر والتعالي مع المتحدث دون سبب احتجاجي ظاهر قال: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ) [5] لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الحاكم والقائد العام والمنافقون جزء من رعاياه، لكن التمرد الداخلي المتكبر والعداء المكتوم لايقبل حتى نيل المنفعة من الرسول وهو الاستغفار لهم، فيلوون رؤوسهم لتحديد موقف رافض منهم لم يحتمل مجرد المجاملة، وكان ذلك هو رأس النفاق عبد الله بن أبي، فمن السذاجة والغفلة أن يُحمل هذا الموقف محملا غير العداء الواضح، أو أن يمر دون تسجيل مؤشر على رفض الإذعان والتسليم.

---

1 – [محمد : 30].
2 – [لقمان : 7].
3 – [الجاثية : 8].
4 – [الإسراء : 46].
5 – [المنافقون : 5].

ومن ذلك الغمز بالعين وقد يصحبه الضحك لغير عجب: (إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُواْ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ) [1]فهذه قرائن على المواقف العدائية لم يهملها القرآن الكريم.

ومنه نظرات الازدراء قال تعالى: (... وَلاَ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللّهُ خَيْراً اللّهُ ...)[2]فنبي الله نوح –عليه السلام– يحكم على نظرات خاصة بالعين أنها نظرات ازدراء من قومه ضد المؤمنين، والازدراء جناية لها محل من العقوبة، والقرآن يثبت هذا الحكم ويقرر قراءة نوح للغة العين بتلك الحركة المعيّنة المدانة والمرفوضة.

ومنها النظرات العدوانية التي يخفى الشر من ورائها: (وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ) [3] تقول الآية أن تلك النظرات الصادرة من الكفار نحوك يا محمد تكاد لشدتها أن يكون لها تأثر مادي فتأخذك وقيل تهلكك، هذه الآية العجيبة والآية التي تليها تحدثنا عن إمكان قياس درجة التأثير المادي للغة العين المعادية، فهل يستطيع العلم الحديث إيجاد معايير ضابطة بناء على ذلك؟ على أنه يقاس عليه أن أي نظرة ترويع أو تهديد من طرف لآخر محاسب عليها صاحبها، وإذا كان غير واقعي إقامة شهود عليها فيبقى مرد الأمر إلى الله الذي يعلم وحده خائنة الأعين وما تخفي الصدور .. وذات القدر من عدوانية الموقف نجده في الآية التالية من سورة الحج (٧2) (وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) لشدة غيظ نفوسهم الذي ظهر في شكل إنكار على وجوههم بدا وكأنهم قربوا من درجة البطش الشديد بالذين يتلون عليهم آيات الله، ولنأخذ من هذا أن على صاحب الرسالة البناءة أن يحدّ لنفسه حدودا تجنبه ردود الأفعال المنعكسة على لغة الجسد وأن يكون لَبِقاً في تقدير المواقف.

أخيرا قراءة النظرات المذعورة من لقاء الحرب من المنافقين، انظر هذه الآية التي تصور وضع المنافقين في حالة إنسان دنا منه الموت عن طريق تصوير نوع من دوران الأعين، فهل لنا معرفة هذه الصورة الزائغة بناء على قول الله :(أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاء الْخَوْفُ

---

1 – [المطففين : 29– 30].

2 – [هود : 31].

3 – [القلم : 51].

رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ...)[1]؟ .. ولا شك أن بتطور العلم صارت هناك أساليب لقراءة المواقف وأجهزة لكشف الكذب، وأن لحركة الأعضاء لغات بات من السهل قراءتها والحصول على مواقف باطنة، وهذا العليم الخبير الذي يعلم من خلق يرتب على لغة الجسد أحكاما مما يشير إلى أن قراءات من هذا القبيل لن تكون غالبا ظالمة.

1 - [الأحزاب : 19].

دين التحدي

قال الأخ الدكتور جفري لانج أستاذ الرياضيات في جامعة سان فرانسسكو قال: كل مؤلف يستهل كتابه باللغة الاعتذارية عن أخطائه البشرية إلا القرآن استهل أوله بقوله: (ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ)[1] أي ذلك الكتاب الحق الذي لا شك فيه، وقال (ذلك) ولم يقل (هذا) للتعظيم، وبعد المكانة.

ولا يزال القرآن في عصر بلغ الإنسان أوج تقدمه العلمي ونضجه الفكري، لا يزال وحيدا في ميدان التحدي: (قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين) اثبتوا بأدلتكم على بطلان هذا الدين، أو بطلان حقائقه، أو صحة دعوايكم الاعتقادية.

والبرهان: إما نقلي، أو عقلي، أو مشاهد، وكلها دعا إليها القرآن :

- (... قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ)[2](... ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ)[3]. (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ) [4] (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)[5] وغيرها. ودعا القرآن العقل إلى التفكر، والنظر إلى التأمل، والقارئ إلى التدبر .. وندد بالتخريص واتباع الظن في إثبات صحة الأشياء.

والقرآن إذ يتحدى فليس على كلام إنشاء بل على حقائق في العلم والأسلوب والقوانين.

إنه يتحدث عن بدء خلق الكون وانتهائه (رتقه وفتقه وطيه) التي تسمى اليوم نظرية النشوء والانسحاق.

عن تشكُّل السحاب الثقال المحملة بالماء وسوقها وتلقيحها وتساقط أمطارها.

---

1 - [البقرة : 2].

2 - [الأنعام : 148].

3 - [الأحقاف : 4].

4 - [آل عمران : 190].

5 - [العنكبوت : 20].

عن خلق الإنسان ومكان خروجه من صلب الرجل وأتراب المرأة .. وعن أطوار تشكله في ظلمات ثلاث حتى إنشائه خلقا آخر، وبدقة متناهية.

عن رفع السماء (بغير عمد ترونها) وعن وضع ميزانها .. ودوران أفلاكها ودقتها (لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)[1] (وكل) تفيد الشمول أي كل شيء متحرك، كما يؤكده العلم .. يتحدث عن دوران الأرض (ولا الليل سابق النهار) (.. .يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً ...)[2](وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ)[3] .. وعن كرويتها: (وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا) [4](فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ)[5] فلو كانت مسطحة لكان شروقا واحدا وغروبا واحدا، لكن النهار يُسلخ من الليل شيئا فشيئا.

يتحدث عن البحر المظلم شديد الإظلام (أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ) [6]وعن مرج البحار في بعضها .. يتحدث عن فلسفة الحياة والموت .. والبدء والمعاد .. عن هدف الخلق .. وعن علاقة الإنسان بنفسه، وخالقه، والناس والكون من حوله .. يتحدث عن الماضي وأخباره .. والحاضر وتوجيهاته .. والمستقبل ومسيرة الخلود (القيامة) وفصولها، وأيامها ومحطاتها بشكل تفصيلي، وبرؤية واضحة ومتكاملة، بلا تناقض في النصوص ولا اضطراب .. يتحدث عن وظائف السمع والبصر .. وعن إدارة التفكير في العقل والقلب .. وعن الحوار والجدال .. وعن الإرادة وحرية الاختيار .. يتحدث عن الأحوال المدنية، ونظام الأسرة .. وقانون المواريث، والاقتصاد .. ومنظومة القيم الأخلاقية .. والعلاقات الإنسانية من مواثيق، ومعاهدات، ومبدأ الحرب والسلم .. يتحدث عن أشكال العبادات وأركانها ودقائق فروعها .. تحدث عن كل هذا وغيره ثم بعد ذلك يصرح أنه (لا ريب فيه) وأنه (لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ...)[7]يعني لا أخطاء علمية ولا نظرية فيه، ويتحدى الإنس والجن عن أن يأتوا بمثله (قُل لَّئِن ٱجتمعت الإنس وَٱلجِنُّ عَلَى أَن

---

1 – [يس : 40].
2 – [الأعراف : 54].
3 – [النمل : 88].
4 – [النازعات : 30].
5 – [المعارج : 40].
6 – [النور : 40].
7 – [فصلت : 42].

يأتوا بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلقرآن لَا يأتون بِمِثْله ولَو كَانَ بَعضُهُم لِبَعض ظَهِيرا) [1]وليس الإعجاز العلمي هو كل شيء، فهناك إعجاز أسلوبي، وتشريعي، واجتماعي، وسردي .. الخ .. والمفاجأة أن يأتي عصر المكتشفات الكبرى الذي كان يمكن أن تؤرخ لنهاية الإسلام لو كان باطلا، كان يمكن أن تظهر هذا الكتاب حافلا بالأخطاء العلمية .. متعارضا مع تجارب العلم الحديث .. كان يمكن أن يُعلن عن انتهاء مدة صلاحية الإسلام كدين تجاسر على الحديث عن علوم لاتدرك بغير البحوث العلمية الخاصة .. وأن تضع مقررات العلم ونتائجه حدا لتخوضات كتاب المسلمين كما وضعت حدا لكتب أخرى قديمة تحدثت عن مسلمات علمية كنَسِية فجاء العلم ونسفها فتعرض العلماء إلى التنكيل على أيدي رجال الكنيسة .. غير أن ما حدث مع القرآن هو العكس، حيث جاءت الحقائق العلمية لتشهد على صحة ما أتى به، وصحة ما جاءت به السنة الصحيحة من إشارات علمية دقيقة وعميقة.

***شروط التحدي:**

على أن القرآن يشترط للتحدي حيادية المخاطبين (... وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) [2] وأن يكون ذلك على قاعدة البراهين (هاتوا برهانكم) وأمام فريق لفريق (قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى) [3] وليس على مجرد الإسقاطات غير البريئة، وتتبع المتشابهات ممن في قلوبهم مرض لقلب مقاصده الذي ندد به القرآن: (... فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ ...)[4].

فربما وجدت اليوم مؤسسات معادية تتقصّد وبأسلوب ممنهج قلب أوجه الحقائق باستدلالات مبتورة، أو مجتزأة، وهم (الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ) [5]أي مفرقا، ثم يقومون بإطلاق منشورات كتبت في الظلام، وألقي بها في الظلام، عبر وسائط مغلقة ومن طرف واحد، وبلا عِلم ولا أمانة علمية (وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ * ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ...) [6] ونظير ذلك قنوات بث أجنبية ناطقة بالعربية تناقش مواضيع إسلامية وتجعل برامجها مغلقة على علمانيين وعلمانيات متهتكات وقد يستضيفون رجل دين مزيف ليقف متخشبا

---

1 – [الإسراء 88].
2 – [سبأ : 24].
3 – [طه : 59].
4 – [آل عمران : 7].
5 – [الحجر : 91].
6 – [الحج :8– 9].

ويشهد بجهله أو تجاهله على عجز الإسلام أمام شبهاتهم، فهذا فعل مشين وجبان ودليل إفلاس وإلا فليتركوا الفرصة للراسخين في العلم إن كانوا صادقين في حياديتهم.

ثالثا- تأملات في العبادة (أسرار الصوم)

أسرار الصوم (1-15)

للصوم أسرار وغايات نسردها بعون الله وتوفيقه في حلقات يومية كل يوم سر جديد من أسراره وبحسب ما يمدنا الله من الهبات وبفتح من النفحات .. راجيا منه القبول وإخلاص النية والتجاوز عن الزلة والتقصير ..

السر الأول- (تغذية الروح):

الإنسان مركب من ثلاثة أقسام رئيسة :جسد وعقل وروح ..
غذاء الجسد يكون بالاتصال بعناصر الوجود.
غذاء العقل يكون بالاتصال بقواعد الوجود.
غذاء الروح يكون بالاتصال بمصدر الوجود.

ولا يتحقق الكمال الإنساني إلا بالاعتناء بالثلاثة.

ودعونا نتوقف عند مجال بحثنا وهو (الروح) .. قال تعالى في غذاء الروح (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون) والتقوى زاد الروح قال تعالى:(وتزودوا فإن خير الزاد التقوى) فمثلما أن للجسد غذاءه فإن للروح غذاءها وهو مجمل الطاعات .. ورمضان مجمع الطاعات كلها.

ولأن رمضان موسم لتنمية الروح فبه يتحقق مبدأ التوازن والاعتدال الذي ربما اختل لصالح البدن بعد أحد عشر شهرا من الجري وراء الدنيا لمواجهة احتياجاتها.

ولقد أعد الله لهذا الشهر تراتيبية معينة من أجل تحقيق هذه الغاية .. فثمة استنفار في الملكوت الأعلى لتهيئة الفرصة وتوفير الجو السانح للمؤمن .. من تلك التدابير تصفيد الشياطين .. وفتح أبواب الجنان .. وإغلاق أبواب النيران .. سواء حمل ذلك على المجاز أم الحقيقة .. ثم ينادي مناد "يا باغي الخير أقبل ويا باغي الشر أقصر" يا باحثا عن مراتع الروح .. ومنابع التقوى .. ومحطات غسل الذنوب .. أمامك الفرصة المواتية لتزكية النفس وغسل الذنوب .. ويا باغي الشر كف عن شرك .. وأقلع عن غيك .. فالشقي من يلحق بنفسه جناية الإعراض عن تنمية الروح فيخرج من تحت سحائب رحمات الله كما دخل وربما أغلظ قلبا وأقسى قالبا.

وحتى نصل إلى معنى تغذية الروح دعونا أولا نتعرف على الروح ما هي :لا نستطيع وصف ماهيتها كما قال المولى (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ۖ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) [1].

ولكن من حيث الجانب التركيبي في الإنسان فإن الروح تمثل الجوهر الباقي بينما الجسد يمثل العرض الزائل ..

والإنسان الذي تراه أمامك ما هو إلا قالب الإنسان .. أما الإنسان الحقيقي فهي الروح .. ولذلك إذا نام الإنسان انشطرت روحه شطرين .. شطر يخترق حجب المستقبل ويذهب يحلق في حياة منامية فيرى أشياء قد تصادفه في المستقبل إذا كانت الرؤيا صالحة .. وشطر يبقى ممسكا بالجسد قال تعالى: (اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)[2]. وقال النبي صلوات الله عليه في دعاء النوم " فإن أمسكت نفسي فارحمها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين"

فالنوم في العقيدة الإسلامية هو موت أصغر سماه الله ورسوله وفاة وموتا، وسمى الاستيقاظ بعثتا وحياة بعد موت، قال الله: (وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) [3] وقال النبي صلى الله عليه وسلم :"الحمد لله الذي أحيانا بعد أن أماتنا وإليه النشور".

فالنوم دليل يومي على عدة أمور منها: أن الجسد ليس هو الإنسان كما سيأتي، والموت كالنوم والاستيقاظ كالبعث والنشو.

النوم دليل على أن هذا الجسد ما هو إلا وعاء فهاتان العينان اللتان تراهما ليستا هما عينا الإنسان بقدر ما هما وسائط إبصار .. أما العينان الحقيقيتان فهما في الروح لا نراهما .. والدليل أن النائم لو بقيت عيناه مفتحتين فإنه لا يرى من حوله .. والسمع وسيط لسمع لا نراه فلو كلمت إنسانا مستغرقا في النوم فإن هذين الأذنين لا يسمعان الكلام .. وهذا الجسد ليس هو الذي يحس فلو أمسكت النائم المستغرق قد لا يحس، وربما تهزه هزا عنيفا فلا يستجيب الجسد الميت للمنبهات، إنه ميت .. لماذا؟ لأن الروح عند النوم غادرت الجسد وهي الجوهر أما هذا الجسد فوعاء وعرض ..

---

1 – [الإسراء : 85].

2 – [الزمر : 42].

3 – [الأنعام : 60].

دليل إضافي هذا الدماغ الذي نراه إنما هو قالب وليس هو العقل .. فالعقل شيء لا نراه والدليل أن الإنسان عندما يفقد عقله يبقى دماغه قالبا بلا عقل فأين ذهب العقل الحقيقي؟؟

والقلب الذي نراه إنما هو مجرد وعاء فلو أننا غيرنا قلب مؤمن بقلب كافر هل سيقوم من سرير مرضه كافرا بالقلب الجديد أم مؤمنا؟ الواقع أن هذا القلب الجديد كان مجرد وعاء لقلب قد مات مع موت الروح .. وأصبح الآن وعاء لقلب الروح التي لم تمت بعد .. لذلك سيقوم من سرير المرض مؤمنا لا كافرا .. فالقلب المادي مجرد وعاء .. قد يترك بعض التأثيرات الفسيولوجية مثل بعض الميولات التي كانت في الفرد الميت لكن جوهر القلب هو في الروح وعندما يركب وعاء جديدا لقلب الروح يبقى كل شيء كما كان.

مما سبق نخلص إلى القول إن الانصراف كلية لغذاء العرض وترك الجوهر هو خلاف الأصل .. وتصرف من شأنه أن يترك خللا في حياة الفرد فلا إفراط في تغذية الجسد ولا تفريط في تغذية الروح وإلا سيقود إلى وضعية الكائن الغرائزي الذي تكون معه البطن والشهوة هي الفاعلة في التفكير .. والمؤثرة في التدبير .. والدافعة في السلوك .. فيكون تصرف الفرد انعكاسا لمتطلبات الطعام والشراب والشهوة لا انعكاسا لمتطلبات الحياة الإنسانية الكاملة التي تتطلبها الفطرة السليمة .. ويقرها الذوق السليم .. وتقيمها معادلة الربح والخسارة الإنسانية لا الربح والخسارة المادية.

على أن متطلبات الجسد غرائزية دافعة تأتي الإشارة بنقص الغذاء وتتعطل بدونها الحركة .. أما غذاء الروح فتعبدية اختيارية لأنها ضمن الابتلاء والاختبار فلو كانت دافعة لم يكن للإنسان فضل في الطاعة لأنها غريزة سيقوم بها في كل الأحوال .. من هنا جاء غذاء الروح بتوجيه إلهي فمن حمل نفسه عليها تحقق له مبدأ التوازن .. ومن لم يستجب يكن قد افتقد حلقة من حلقات التوازن وعاش كائنا مختلا غير سوي وإن شعر بمتعة الحياة إلا أنه يشعر بجفاف الروح .. وعطش القلب .. وخواء الضمير.

إذن ما الذي يفعله الصيام لتحقيق (التقوى) غذاء الروح؟؟؟

الصيام هو الانقطاع عن الطعام والشراب والجماع أي عزل الجسد عن الاتصال بمصدر غذائه وغرائزه .. وذلك لإفساح المجال للروح . فإذا كان مصدر غذاء الجسد هو الاتصال بمصدر ه الأول وهو الطين وما يخرج منه من غذاء وشراب الذي منه خلق الإنسان كما قال الله (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ) [1] فإن غذاء الروح يأتي من الاتصال

1 – [المؤمنون : 12].

بمصدرها الأول وهو الدين كون الدين يمثل القيم العلياء التي جاءت وحيا من السماء والروح أيضا عنصر سماوي لطيف إضافها الله إليه تشريفا فقال: (... وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي ...)[1]

ولذلك عندما يموت الإنسان يعود إلى أصله الأول التراب وتصعد الملائكة بالروح إلى أصلها الأول السماء.

وكل ما كان فيه اتصال بالله وبالمعاني الدينية فهو روح .. ولذلك سمى الله الوحي الذي فيه الدين بكل معانيه (العقيدة والعبادة والشريعة والسلوك) روحا قال الله تعالى :(... يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ)[2].

وقال :(وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنْتَ تَدْرِي مَالْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) [3] فالروح الدين .. وكل من اتصل بالدين من عبادة ودعاء واستغفار وسلوك وإيثار حب الله ورسوله على ما عداهما فقد اجتهد في تنمية روحه وتتدخل العناية الإلهية لتعزيز قوة الروح قال تعالى (.. .. أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ ...)[4]أي بتقوى وهدى ونور وصلاح.

وفي غذاء الروح عوض نسبي عن غذاء الجسد .. ففي غير رمضان لا تستطيع أن تتأخر ساعة عن موعد تناول الغداء ولكن الأمر في رمضان يختلف وبخاصة مع من اختلط كثيرا بمعاني الروح فتجد أن أو قات الطعام تأتي دون الشعور بذلك الجوع في الأيام العادية بل ودون الشعور بالحاجة الشديدة إلى تلك العادات التي درج عليها في غير رمضان .. مثل تناول المنبهات لأن الصوم فيه عوض عن متطلبات الجسد ولذلك فتقوى النبي صلوات الله عليه ساعدته على صيام الوصال فقال "إن ربي ويطعمني ويسقيني " ولايعني أنه يأتيه الطعام من ربه وإلا لما كان صائما بل قوة تقواه وإيمانه ساعده على ترك غذاء الجسد لمدة أطول.

ومن ثمار الاتصال بمصادر الروح تحقق الطمأنينة والهدوء .. وعدم الجزع والخوف .. وتشيع حالة التفاؤل السعادة ومن الروح اشتقت كلمة الراحة .. ومرتاح .. وروح عنا .. وأرحنا .. وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في الصلاة "أرحنا بها يا بلال" .. والعكس فإن دوام الاتصال بالمعاني المادية دون فواصل روحية ومحطات إيمانية تزيد من حالات الخوف من الآتي والحزن على الفائت .. لأن علاقته بالله منقطعة انظر إلى قول الله (إِنَّ

---

1 – [الحجر : 29].

2 – [غافر : 15].

3 – [الشورى : 52].

4 – [المجادلة : 22].

الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا* إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا* وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا) ثم قال (إِلَّا الْمُصَلِّينَ) أي نوع من المصلين قال (الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ)[1] لأن الذي على اتصال دائم بالله تستقر نفسه وتهدأ خواطره .. لأنه وهو قريب من صاحب المطلقات وهو الله تعالى يشعر أنه بجوار من لا يضيع عنده محروم .. ولا يهمل عنده مكلوم .. ولا تنفد خزائنه فيستغني بغنى ربه عن غنى كل غني .. ويكتفي بقوته عن قوة كل قوي .. وبعظمته عن عظمة كل عظيم .. فلا يطلب إلا من خزائنه ولا يستقوي إلا بغلبته .. ولا يلوذ إلا بسلطانه .. فإذا كانت حاجته عند الناس أحنى له جناب الملوك .. وألان له قلوب الأغنياء .. وحول عنه شرور الأشقياء .. ما ضاعت الأكناف من التجأ بكنفه .. وما استغنى عنه من استعان به.

ولذلك فالإنسان الحر الوحيد في الدنيا هو من اكتملت عبوديته للخالق .. والإنسان العبد الوحيد في الدنيا هو من اكتملت عبوديته لله لا لمخلوق من مخلوقات الله.

1 – [المعارج19 : 23].

أسرار الصوم (2-15)

السر الثاني- الاتجاه نحو المعنى:

أشرنا في الحلقة السابقة إلى أن من أسرار الصوم تغذية الروح، لإحداث التوازن بين مركبات الإنسان وهي الجسد، والعقل، والروح، وهنا نشير إلى عالم المعنى، وهو رسالة الإنسان الروحية، والعقلية، والأخلاقية، في مقابل الجسد الذي يأخذ حظه على مدار السنة، والذي – أي عالم المعنى– يتحاشاه الماديون الذين يبحثون فقط عن السعادة في عالم المادة ومصادر غذاء الجسد وفي اللذة والشهوة، ويعدون الالتزامات الدينية الروحية والمعاني الاخلاقية صناعة بشرية .. أي أن الروح لا وجود لها .. وأن العقل هو نفسه الدماغ وليس شيئا آخر ويمكن التحكم فيه، وبالتالي فإن الالتزامات الدينية لدى الماديين منصرفات أسطورية تعطل القدرات وتهدر الأوقات، وتحرم الإنسان من لذة المتعة الشهوية.

- **سر الروح:**

وهنا نضع الماديين والملحدين أمام التحدي المدرَك، فقد سبق قولنا إن في النوم يحدث انشطار الروح، ومغادرة لعالم المادة، وهذا الانشطار الذي لايعلم كنهه سوى الله هو مثل خروج الروح عند موت الإنسان وانتقاله إلى الدار الآخرة .. فإذا أنكروا خروج شيء اسمه الروح من الجسد عند الموت، فهل يستطيعون أن ينكروا النوم الذي هو صورة من صور الموت؟ ما هو النوم؟ إذا كانت الروح كما قال الله (من أمر ربي) فإن النوم (من أمر ربي) لجامع الصلة الروحية، ولا يملك الملحدون سوى الاعتراف بعجزهم عن تفسير النوم .. وهو آية تتكرر كل يوم لإقامة الحجة على الماديين الملحدين الذين يحاولون إثبات أن الحياة تصيرها الضرورات الفيزيائية ونفي عالم الميتافيزيقيا (ألماورائية) .. فهلا قالوا لنا ما هي حقيقة النوم؟ الذي لايستطيعون فكاكا عنه كما لا يستطيعون فكاكا عن الموت الذي أيضا يعجزون عن تفسيره أيضا أو التخلص منه؛ ذلك لأن الله أكدها حقيقة خالدة (كل نفس ذائقة الموت) (قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) [1] لم يقل يتبعكم بل (ملاقيكم) ستجدونه أمامكم أنَّى اتجهتم .. فحقيقة النوم

1 – [الجمعة : 8].

وحقيقة الموت تدلان على عالم الروح، وأن الروح مكوّن جوهري في الإنسان أما البدن فإنه يرم ويبلى ويعود إلى مصدره الترابي الأول حين الموت وتبقى الروح، وتأسيسا عليه كان لزاما الاتجاه نحو متطلباتها وهي الاتصال بمصدرها أي العبادة والذكر ومنها عبادة الصوم.

-العقل مكون لايُدرك:

كذلك لايستطيع الماديون – كما سبق- معرفة ماهية العقل؟ فالمخ هذه الكتلة المادية في الرأس ليست هي مركز العقل، ولا هي الإرادة ولكنها مجرد جهاز وظيفي تنفيذي للعقل، فمن يعاني من الشلل الرعاش مثلا الذي يأتي من خلل في الدماغ لديه إرادة اختيارية بتركه، لكن لاعلاقة للإرادة باختلال الجهاز التنفيذي المادي المخ، ولو كان العقل هو المخ لكان في صدور أوامر العقل المريد قدرة على توقيف الرعاش.. فما هو العقل وأين العقل وما حقيقته؟

يقول الدكتور الجراح هيثم طلعت (في مقطع مقارني) إن العالِم الكندي الدكتور ويلدر بنفليد رائد جراحة الأعصاب (الذي كان يطلق عليه أعظم كندي حي) أنه أجرى عمليات للتفريق بين المخ والعقل، فأجرى عملية على مريض صاح، فكان يضغط في المخ على الجزء المسؤول عن تحريك اليد، فيعطي المخ إشارات عصبية لليد، فتتحرك يد المريض ثم يطلب د. ويلر بنفيلد من المريض أن يثبّت يده ولا يحركها فيرسل المريض قراره العقلي، لكن اليد لا تتوقف .. وفي هذه اللحظة تحدث المفارقة فالعقل يعطي القرار لكن المخ بنشاطه الكهربي العصبي شيء غير العقل بقدر ما هو جهاز عصبي تنفيذي من هنا ألف الدكتور ويلر كتابه (سر العقل) وفيه يقول لاتوجد منطقة في القشرة الدماغية يمكن من خلال تحفيزها كهربيا إحداث إيمان أو قرارات لدى المريض، إنما هو أشبه بجهاز الشاشة المرئية مجرد معالج وليس هو المقرر ولا الوعي المريد .. وهو ما يعني انتفاء معرفة ما هية العقل والوعي .. فوجَّه هذا الاكتشاف صفعة أخرى للفكر المادي وهو أن العقل كما الروح موجودان ولكن لا يمكن إدراكهما وتفسيرهما فيزيائيا، وبالتالي ثمة إنسان غير مرئي غذاؤه ليس ماديا لأنه لا يحويهما القالب المادي بل روحيا .. فإذا توفي الإنسان (وتعطلت وظائف الجسد) وبلي الدماغ فإن العقل لا يبلى، لأنه مناط التكليف، وسيبقى محتفظا بقواعد البيانات ال(database) فيعقل ما يدور في عالم البرزخ ولن يكون الإنسان بالروح والعقل فناء محضا بل وجودا مدركا.

وعبادة العقل يكون لا بتناول المادة بل برياضة التأمل والتوقف في كتاب الله المنظور وكتاب الله المسطور، ومن العقل تأتي الخشية من الله فبه تدرك آيات الإعجاز في صنع

الخالق وآيات الإعجاز في كلام الخالق قال تعالى : (إنما يخشى الله من عباده العلماء) وفي هذا القصر إثبات الخشية للعلماء ونفيها عمن سواهم.

ولاشك أنه لاتجتمع الشهوة ولذة الجسد مع صفاء الإدراك وإدارة عجلة العقل فكان في الصوم مجال انصراف أيضا إلى تمتين غذاء العقل ودعوة إلى إحداث التوازن المطلوب بين مكونات الجسم جميعها، والتخفيف من تضخيم المادة وسيطرة الغرائز على عالم المعنى.

- **المادة والسعادة:**

سيقول الماديون: بل لقد حقق الانصراف إلى المادة والعناية بها إيجاد الرفاة للإنسان والسعادة، فماذا حققت العبادات والرياضات التي تسمونها روحية كالصلاة والصوم والقراءة والحج غير العزلة والتخلف؟

والجواب: نعم حققت العناية بالمادة واكتشاف قوانينها إلى تنويع وسائل رفاهية الإنسان ولكن ليست المادة أساس السعادة .. وعليهم ينعكس السؤال: ما هي السعادة؟ أليست في الرضا والراحة النفسية والاستقرار؟ أليست في التخلص من الاكتئاب وقلق التساؤل والتوتر نتيجة الخوف من المصير؟ .. أم هي في توفر المادة لذات المادة؟ لقد دلت التجارب الإنسانية أن المال يصنع السعادة الشكلية .. وأن توفر المادة يعطي فقط رسائل تطمين أن كل شيء بات في متناول اليد، لذا يقول المولى (زين للناس حب الشهوات) ولم يقل أنها زينتهم أو أنهم تزينوا بها بل زُين لهم، ثم مجرد الزينة والزخرف لا يأتي بالسعادة الحقيقية .. بل قد يكون توفر جميع الماديات بداية للشقاء النفسي؛ لأن بنك الغايات التي كانت باعثا للتطلع، والطموح، والآمال، ومتعة الاكتشاف، قد استنفدت..

يُذكر أن هنديا أعيته النمل الصغير حيلة كلما حاول تنظيف مستودعه منها زادت كثرة، فسأل خبير الحشرات فأشار عليه أن يملأ المستودع بالسكر، الطعام الذي يعجبها فمع استغرابه من هذه المشورة إلا أنه نفذ نصيحة الخبير وكانت المفاجأة أن النمل اختفت ما الذي حدث؟ الذي حدث أنها بغريزتها وجدت أن حياتها في ظل وفرة الطعام لم يعد لها معنى .. وأن باعث الاكتشاف قد مات لديها، فغادرت المكان فورا للحفاظ على حيويتها ونشاطها .. فالذي يظن أن المادة وحدها مصدر السعادة فهو واهم .. فمتى وجد الفرد كل شيء بدأ يدب إليه الملل وظهر قلق التساؤل عن الغاية الأسمى .. وماذا إذا كانت المادة هي نهاية القصة؟ وهذا ما يفسر كثرة الانتحارات في المجتمعات الأكثر رفاهية ووفرة .. غير أن المؤمن ليست المادة هي نهاية غاياته بل غايته هو في ملء روحه بغذاء الطاعة بتقوى الله ونيل رضا مولاه، وكلما انصرف

الانسان إلى المعنى واكتشف جوهر نفسه، وسر حياته، والغاية الكبرى من وجوده، وأن ثمة حياة أجمل وأكمل تنتظر أحلامه الكبرى وجد بذلك السعادة الحقيقية .. وهذا ما يفسر إقبال الغربيين على الإسلام رغم توفر الغنى وسبل الرفاه والتفلت من كل الالتزامات الدينية لكنهم ويا للعجب! يجدون في تلك الالتزامات عالم أنفسهم، ودنيا سعادتهم، وسر وجودهم .. يمتنعون في عبادة صومهم عن الطعام والشراب والغرائز وهم في غاية الرضا وقمة السعادة والراحة النفسية، أفلا نفذ الملحدون بحوثهم في ظاهرة الهجرات الإنسانية الكبرى من عالم الماديات الجافة الفقيرة إلى عالم المعنى.

نعم لسنا بهذا نزهّد إطلاقا في الدنيا وملذاتها ومتعها (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) [1] ولكننا نقول إن الجسد قد استأثر بمعظم الأوقات .. أفلم يحنْ بعد وقت التوازن بين الجسد وبقية مكونات الإنسان، وإعطاء كل طرف حقه من العناية والاهتمام؟ فهذه هي مواسم الروح تفتح أبوابها لتنهل الأرواح الذابلة من عذب روائها وطيب ثمارها فيعود الإنسان إلى حالة الاعتدال المنشود؟

1 - [الأعراف : 32].

أسرار الصوم (3-15)

السر الثالث- تحقيق مبدأ الطاعة والاستسلام لله عز وجل:

يقوم هذا الدين على مبدأ الاستسلام التام لله والطاعة غير المشروطة وعليه يكون الجزاء، فلا استسلام مع مخايرة ولا طاعة مع اشتراط، والإسلام مأخوذ من الاستسلام والانقياد، فهو لا يجاري الرغائب ولا يتغيا رضا الأهواء بقدر ما يتغيا الاستعداد للتخلي عن حظوظ النفس لتحقيق رضا الخالق.

لذلك جرت الطاعات بألوان من الابتلاءات التي يتحقق النجاح في اجتيازها للمؤمن الصادق فقط، ومنه القبول بتحمل الامتناع عن المحرمات ثم بالامتناع المؤقت عن الطيبات، أنظر كيف أن الله تعالى أحل لنا الطيبات وحرم علينا الخبائث .. ثم حرم علينا الحلال نفسه بعضا من الوقت .. لكي يرى مطلق الطاعة .. هل سنصبر أم سنرفض ونتسخّط.

فأحل لنا التجمّل ولبس أحسن الثياب من غير رياء ولا سمعه .. ثم منعه علينا في فريضة من الفرائض وهو الحج، ليرى من اعتاد على الظهور بأجمل المظاهر الاستعراضية سواء البدل الفاخرة المدنية .. أو لبس الأنواط والنياشين الرسمية .. هل سيقول هؤلاء سمعنا وأطعنا أم سيثقل الأمر على نفوسهم؟

والذي اعتاد أن يجعل من شعر رأسه مظهرا من مظاهر الفخر والمباهاة شرع له في الحج حلاقته أو تقصيره .. هل سيمتثل أم تثقل على نفسه الطاعة؟

والذي اعتاد أن يكون متكلما دائما يوجه الأوامر وثرثارا لا يعرف يمسك لسانه ولا الإنصات الجيد لغيره، حرم عليه الكلام عند خطبة الجمعة وعند الصلاة .. مع كون الكلام حلالا ولكن الصمت هاهنا طاعة وامتثال وتربية .. فهل سيقبل أم لا يقبل؟.

وأخيرا الذي اعتاد أن يطلب ماشاء متى شاء من الطعام والشراب والنساء الحلال حرم عليه ذلك في نهار رمضان .. وعليه أن يسلّم ويصبر ويطيع. فالمؤمن الطائع لمولاه سيسلم لماقضى ولايخضع اختياره للأهواء والمزاجات (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ

وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا) (1)

أما الذي يعبد الله عباده مشروطة فلن ينفذ إلا ما يريد، كما يريد، متى يريد، وهذا هو الذي خسر الدنيا والآخرة لأنه يعبد الله على حرف.

على أن طاعة الله يتكرر أشباهها ونظائرها وأكثر منها في دنيا الناس .. فهل يمكن لعبد مملوك أن يعصي سيده ومليكه من ليل أو نهار؟

ولو قالت المؤسسة التي يعمل فيها الموظف أن عملك سيبدأ من أولى ساعات الفجر هل سيرفض أوامرها أم سيجتهد في ألا يغيب .. سوف لن يغيب ولكن الكثير من الناس لن يحضر لصلاة الفجر لأنها شاقة على النفس؟

وإذا أعطى القائد العسكري أمرا بالجمع من ليل أو نهار .. وأمر جنوده بالاستعداد والتحرك ولايعلم الجنود هل هم قادمون لحياة أو موت هل سيتخلف منهم أحد؟ .. أم سيتسابقون على إبداء الطاعة والشجاعة؟

أخيرا لو قال الطبيب لمريضه امتنع عن هذه القائمة من المأكولات والمشروبات ليس شهرا فقط بل طوال عمرك .. هل سيستجيب المريض الحريص على نفسه أم سيرفض .. ؟.

ومع ذلك ومهما أخلص الجندي لقائده .. والموظف لشركته .. والخادم لسيده .. وأفنى كل واحد عمره في أداء حق الولاء والطاعة فليس في يد المخدومين أن يكافئوا خدامهم هؤلاء بأكثر من شهادة تقديرية أو رتبة عسكرية أو زيادة المرتب نسبة ما.

وسيقبل هؤلاء هذه المكافأة الزهيدة بفرح وامتنان وهم بعد لا يرون في طاعة رؤسائهم إلا حقا مفروضا تقتضيها تبادل المنفعة.

فبالله كيف يكون أمر الله وثواب الله عند كثير من الناس أهون من أمر المخلوقين ثوابهم .. الرب العظيم صاحب نعمة الإيجاد، والإمداد، والإرشاد، الذي بيده إجراء الأنفاس وتقليب القلوب .. وكيف هانت في أعينهم مكافأة هي نعيم خالد وجنة عرضها كعرض السماوات والأرض "فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر؟.

يكفيك فقط قول الله (... وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ ...)[2]أي شيء يخطر على بالك .. أي شيء تحبه .. أي شيء تتمناه نفسك تجده حاضرا أمامك يوم القيامة .. على أن ثمة نعيما

---

1 – [الأحزاب : 36].

2 – [الزخرف : 71].

لا يجري على بال النفوس لكن الله يكرم به عباده (فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) [1].

ثم إن القضية لا تقف عند ربح الجنة وحسب .. بل وربح الأهل والنفس وأما الذي اختار عصيان الله فسيخسر كل شيء جميل في الوجود .. يخسر أهله ويخسر نفسه ويدحرجها في جهنم التي لا يستطيع أي عقل بشري أن يتصور عظم عذبها وشدته .. فمن يعصي ربا عظيما ويعطل دينا عظيما ويجحد دلائل عظيمة فإن جزاءه عذاب عظيم جزاء وفاقا .. (وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ) [2].

وأكبر مقلب يقوم به الإنسان ضد نفسه هو أن يلقيها في جهنم بمحض إرادته واختياره وبيده يجعلها مهادا وفرشا من نار تلظى .أعاذنا الله وإياكم منها بفضل هذا الشهر.

من هنا نقول إن الأصل في المؤمن أن تكون حياته قائمة على الابتلاء والامتحان وتحمل التكاليف الدينية مهما كان فيها من مشاق ومتاعب يمكن تحمُّلها لأنه اختار الحياة الأبدية والنعيم الذي لا يزول ولا يحول .. مقابل التضحية ببعض المتع الفانية والقصيرة .. ولابد من الاستعداد لدفع الثمن ليس فقط أن يؤدي شعيرة من الشعائر التعبدية كالصوم بل وأن يكون مستعدا لبيع النفس لله في إعلاء كلمة الحق .. والجود بالنفس أعلى غاية الجود .. قال تعالى (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ) [3].

هكذا جاء الإسلام واضحا في المقايضة والاختيار .. ولامحاباة للأهواء وميولات النفس .. فكل واحد يحدد مايريد بالضبط وكل الرغبات تم إعداده للفريقين (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا *كُلًّا نُمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا) [4].

1 – [السجدة : 17].

2 – [الشورى : 45].

3 – [آل عمران : 142].

4 – [الإسراء :18– 20].

أسرار الصوم (4-15)

السر الرابع ـ غسل أدران الخطايا والآثام:

1- للذنب في الإسلام أسماء كثيرة مثل: السيئة، والإثم، والخطيئة، والمعصية، والفاحشة، والرجس، وشبَّهه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالدَّرن، والدنس، وهي دلالات تلويث واتساخ .. فكيف يمكن تطهير سجل العبد منها على أن العبد مقرون بالخطيئة "كل ابن آدم خطاء"؟

في الروايات الحديثية ما يدل على أن أعمال العبد (تُعرض) على الله يومي الاثنين والخميس لذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب أن تعرض وهو صائم.

وأن الحساب الختامي لسجل العبد (يرفع) إلى الله في شهر شعبان فكان رسول الله يحب أن ترفع أعماله في هذا الشهر وهو صائم أيضا عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم "...لم أرَكَ تصومُ من شهرٍ من الشهورِ ما تصومُ من شعبانَ قال ذاكَ شهرٌ يغفلُ الناسُ عنهُ بينَ رجبَ ورمضانَ وهو شهرٌ يُرفعُ فيهِ الأعمالُ إلى ربِّ العالمينَ فأُحِبُّ أن يُرفعَ عملي وأنا صائمٌ" [1].

وهذا يشير إلى أن لرمضان مع هذا الحدث ارتباطا عباديا وهو أن هذا السجل الحَولي بات بين يدي رب العالمين، فكان رحمة منه وفضل أن يمنح عباده فرصة لتطهير ما علق به من حصائد الذنوب على مدار العام، فجاء شهر رمضان محطة إلهية لتنقية هذا السجل، واستدراك ذلك الحساب بألوان القُربات التي من شأنها محو صحائف الذنوب وخروج العبد من رمضان بشهادة ميلاد جديد كيوم ولدته أمه .. لذلك رصد الله فيه من الجوائز السنية ما يكون العمل اليسير فيه كفيل بمحو الذنوب جميعا.

فـ"من صام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه" [2].

و"من قام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه" [3].

و"من قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه" [4].

1- أخرجه النسائي والإمام أحمد.

2 - متفق عليه.

3 - متفق عليه.

4 - متفق عليه.

لذلك "رِغم أنف امرئ أدرك رمضان ولم يغفر له" .. كما جاء في الحديث .. أي رغم أنف امرئ في التراب مرت عليه هذه الفرص ولم يغتنهما .(ونحن هنا نتحدث فقط عن محو الذنوب وسيأتي الحديث عن مضاعفة الحسنات في شهر الطاعات).

فيخرج هذا الشهر بكثير من عُتقاء ونقذاء استحقوا بأعمالهم العذاب، فمحيت سيئات أعمالهم بفضل الطاعات.

2- وهناك ملمح إضافي في تكثيف الطاعات في أمة محمد يعود جزء منه إلى طبيعة العصر الذي اختلف عن بقية العصور السالفة .. ونبدأ الحكاية بما ذكر أن إحدى الغربيات عُرض عليها الإسلام فوافقت ثم سألت:

- ما هي الطاعات التي يجب على المسلم القيام بها ؟ فقيل لها:
- الصلاة خمس مرات في اليوم والليلة .. وصيام رمضان وذكر لها غيرها من الطاعات فقالت:
- this is to much. يعني هذا كثير ..

والحقيقة أن المسلم يحتاج هذا الكثير من الطاعات؛ لأن شلال هذا العصر من الفتن والشهوات، وسبل الغواية، ومكر الليل والنهار، من الكثرة بحيث تحتاج إلى شلال مواز من الطاعات وكثرة القربات ليكون التطهير بقدر أدران الخطايا، فإنك لا تكاد تلتفت يمينا وشمالا إلا وتجد معصية .. ولا تفتح بابا إلا وتجد غواية .. ولا تسلك طريقا إلا وتجد دعوة للانحراف .. فكثرة السيئات يقابلها كثرة الطاعات معادل الموضوعي للنجاة .. قال تعالى: (وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ)[1] وقال (... وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ) [2] (... إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّـيِّئَاتِ ...) [3]وقال النبي صلى الله عليه وسلم"وأتبع السيئة الحسنة تمحها" [4].

فحياة العصر معركة تجاذب وميدان تدافع بين الخير والشر.. فالشيطان وجنوده (أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ۖ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ) [5]. الشيطان ييئس العباد والله

---

1 - [آل عمران : 135].

2 - [الرعد : 22].

3- [هود : 114].

4 - رواه أحمد.

5 - [البقرة : 221].

يعد بالمغفرة (الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاء وَاللّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) [1].

إنه سباق بين مصدر الخلاص من رق العبودية للدنيا وبين مصدر الانحدار إلى محراب الدنيا وعبادتها لذلك يدعونا الله للمسارعة إلى المغفرة والجنة كأنما هناك حالة طراد وتنازع بين طريق الخير والشر (وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ) [2].

ومن تدابير الله تلك المحطات المرصودة على الطريق للتطهير الدائم منها: الصلاة إلى الصلاة، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهما، غير أن الجديد في رمضان هو أن محطات التنقية من الذنوب كفيلة بخروج العبد منه نقيا كيوم ولدته أمه.

تصوروا أن يدان العبد العاصي بجرائم اللسان، والعين، واليد، والفرج وأن يكون قد تقرر عليه أشد ما يتصوره الخيال من العقوبات وليس بعد عذاب جهنم عذاب ثم يطلع من كل ذلك معفوا عنه بعمل شهر بل ومغفورا له، والغفران ليس مجرد العفو بل فيه تغطية وستر وكأن شيئا لم يحدث، فأي كرم ولطف هذا الذي يجده العبد من ربه!

ومن عظيم هباته أن يعطي على الشيء اليسير من الطاعات ما يعجز العقل عن تصوره من الجزاء، وإنما ذلك لتعهد العبد بالفلترة اليومية، والأسبوعية، والسنوية .. تأمل في هذه الطائفة من المنح الإلهية قال صلى الله عليه وسلم:

"من قال حين يسمع المؤذن أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله رضيت بالله ربا وبمحمد رسولا وبالإسلام دينا غفر له ذنبه" [3].

ف"إذا توضأ الرجل المسلم خرجت ذنوبه من سمعه وبصره ويديه ورجليه فان قعد قعد مغفورا له "[4].

و"ما منكم من أحد يتوضأ فيسبغ الوضوء ثم يقول أشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبد الله ورسوله إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء"[5].

و"ما من مسلم يتوضأ فيحسن وضوءه ثم يقوم فيصلي ركعتين مقبل عليهما بقلبه ووجهه إلا وجبت له الجنة"[6].

---

1 - [البقرة : 268].

2 - [آل عمران : 133].

3 - أخرجه مسلم.

4- أخرجه أحمد.

5- أخرجه مسلم.

6- أخرجه مسلم.

و"من توضأ للصلاة فأسبغ الوضوء ثم مشى إلى الصلاة المكتوبة فصلاها مع الناس أو مع الجماعة أو في المسجد غفر له ذنبه"[1].

و"إذا أمَّنَ الإمامُ، فأمنوا فإنّهُ مَن وافقَ تأمينُهُ تأمينَ الملائكَةِ غُفِرَ لَهُ ما تقدَّمَ من ذنبِهِ" [2].

و" إذا قال الإمام سمع الله لمن حمده فقولوا اللهم ربنا لك الحمد فإنه من وافق قوله قول الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه "[3].

و"من سبح الله في دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين .. وحمد الله ثلاثا وثلاثين .. وكبر الله ثلاثا وثلاثين .. فتلك تسع وتسعون ثم قال تمام المائة لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير غفر له خطاياه وان كانت مثل زبد البحر "[4].

وإنما يريد الله من العبد الإقبال عليه ليحط عنه خطاياه .. ومهما شعر أن الدنيا والنفس والهوى قد شطت برحاله .. وأنه هالك لسوء فعاله فإنه لا يأس مع رب أرأف بالعبد من الأم بولدها.

ثم لنتأمل كيف تجلت رحمة الله في ذكر المغفرة بجميع الصيغ في القرآن الكريم:

فمن صيغ الغفران ما جاء (بالفعل الماضي) الدال على الانتهاء والانقضاء (قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ...) [5].

ومنها ما جاء (بالفعل المضارع) الدال على تجدد الفعل وتكراره: (... إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ُ) [6].

ومنها ما جاء (بالمصدر) الدال على الثبوت والاستمرار: (سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاء وَالْأَرْضِ...)[7].

ومنها ما جاء (باسم الفاعل) الدال على الحدوث والصفة: (غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ ...)[1].

1- أخرجه أحمد.

2- أخرجه البخاري ومسلم.

3 - رواه البخاري.

4 - أخرجه أحمد.

5 - [القصص : 16].

6 - [الزمر : 53].

7 - [الحديد : 21].

ومنها ما جاء بصيغة (المبالغة) الدالة على الكثرة واستمرارها: (وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ) [2] (وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ)[3].

كل هذا حتى لا يطال المؤمن شك في قبول الله لإنابته إن أناب .. وسبحان من هذا كلامه وهذه فضائله على العبد وإنعامه" من جاء بالحسنة فله عشرة أمثالها وأزيد، ومن جاء بالسيئة فجزاؤه سيئة مثلها وأغفر، ومن تقرب مني شبرا تقربت منه ذراعا، ومن تقرب مني ذراعا تقربت منه باعا، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة، ومن لقيني بقراب الأرض خطيئة لايشرك بي شيئا لقيته بمثلها مغفرة" [4].

---

1 – [غافر : 3].

2 – [طه : 82].

3 – [البروج : 14].

4 – أخرجه مسلم.

أسرار الصوم (5-15)

السر الخامس – موسم مضاعفة الأجر لاستحقاق الجنة:

لو أننا قسْنا أيامنا في حياتنا الدنيا بأيام الله (... وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ) [1] لكان وجودنا على الأرض مرورا خاطفا يكاد يقاس بالساعة الواحدة .. فنحن في الدنيا عابرون لا مقيمون قال المولى: (يا ليتني قدمت لحياتي) فحياة الإنسان هناك لا هنا .. ثم كم من هذا العمر (الساعة) سيقضيه الإنسان من مشاغل لا علاقة لها بالعبادة .. ساعات للنوم .. وساعات للهو .. كم سيبقى للعبادة؟ سيبقى ثوان معدودة مقابل ألف سنة، يمكن أن يقضيها المؤمن في سجدة واحدة بين يدي الله .. ولذلك ما يعطيه الله من الثواب يوم القيامة ليس مجازاة على أعمالنا فكل عملنا لايساوي نعمة واحدة من النعم الموهوبة .. بل يكون عطاء حسابا لاجزاء وفاقا كالكافر قال تعالى (جزاء من ربك عطاء حسابا) والعطاء الحساب أي الكافي الذي يجد العبد فيه رضاه ..

فواعجبا من عظمة جود الله فمقابل ماذا هذا العمل اليسير في العمر اليسير .. هل مقابل فضل الإيجاد والإرشاد والإمداد في الدنيا؟ أم مقابل عطاء الله في الآخرة .. فلا شيء يكافئ فضل الله إننا أمام حديث عن جنة عرضها كعرض السماوات والأرض وحديث عن نعيم فيه ما تشتهي الأنفس .. يكفي من نعيمها أن تجد ما تطلبه نفسك مهما كان الطلب ..

لذلك سلعة الله غالية لاتساوي الدنيا موضع سوط فيها وتحتاج إلى مضاعفة الأعمال من أجل ثواب مضاعف .. فحياتنا هذه مجرد مقدمة صغيرة لحياة أخرى لاتبيد .. ودور كل واحد منا على مسرح الحياة قصير وهو فرصة واحدة لاتتكرر ومهما فعل العبد فلن يصل حد مكافأة الثواب الذي ينتظره.

وإذا كانت أعمار الأمم السابقة تصل (من 500إلى 1000سنة) فهذا يعني أن فُرصَهم لمضاعفة الأعمال كانت كبيرة .. من هنا جاء احتجاج الصحابة رضوان الله عليهم على هذه المعادلة الحسابية التي يجسد الفارق بين الستين السنة والألف؟

فماذا كان الرد وماذا كانت الهدية الربانية لهذه الأمة؟ .. ضاعف الله حسناتهم في سائر الأيام .. ثم ضاعفها أكثر في شهر رمضان .. ثم ضاعفها أكثر في العشر الأواخر من رمضان .. ثم كانت الجائزة الكبرى وهي أنه جعل لهم ليلة القدر خير من ألف شهر أي خير من 83عاما ولو افترضنا أن المؤمن أدرك ليلة القدر في 30عاما فسيكون معه فضل نحو

---

1 – [الحج : 47].

2500سنة. وهو ما يعني إمكان تجاوز أجر الأمم السابقة..فكان مضاعفة العطاء من أسرار فريضة صوم هذا الشهر المبارك.

ويبني عليه وجوب تحيُّن فرص هذه المواسم واستغلال الممكن العبادية التي يعطي الله فيها من الأجر وتكفير السيئات ما لايعطي في غيرها .. فمثلما أن عطاءه في مكة غير عطائه في سائر الأماكن .. وعطاءه يوم الجمعة غير عطائه في سائر الأيام .. فإن عطاءه في شهر رمضان غير عطائه في بقية الشهور ..

وفي الطبراني أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في فضل رمضان"إن الحسنات تضاعف فيه ما لا تضاعف فيما سواه" فهو شهر العطاء وشهر مضاعفة الأجور .. يطل علينا كل عام ليكون مائدة عامرة بألوان الطاعات .. وصنوف القربات .. من صيام وقراءة قرآن .. وصلاة قيام .. وإطعام مساكين .. وكل قربة يرتفع بها رصيد حسنات المؤمن .. فيعيش وسط روضة وارفة الظلال .. يانعة الثمار .. يرتفع بقوة إيمانه ويعلو برصيد إحسانه.

وإليك رصد الفارق بين الأعمال في رمضان وغير رمضان ففي البيهقي"من تقرب فيه بخصلة من الخير كان كمن أدى فريضة فيما سواه .. ومن أدى فيه فريضة كان كمن أدى سبعين فريضة فيما سواه ..

وعند أحمد وغيره"ومن فطرّ صائما كان له مثل أجر الصائم إلا أنه لا ينقص من أجر الصائم شيئا"

وفي البخاري أنه عليه الصلاة والسلام قال لامرأة من الأنصار :"إذا كان رمضان اعتمري فيه فإن عمرة في رمضان تقضي حجة معي".

إننا نتحدث عن أجر حج مع رسول الله وذلك يعني أن المعتمر يعود من العمرة في رمضان كيوم ولدته أمه .. فمن حج ولم يرفث ولم يصخب ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه .. تماما كالحج.

إننا أمام تجارة إلهية رابحة لا خسارة فيها بل موسم تجارة ليس فيه سوى تنمية الأرباح ومضاعفتها وهذا الحبيب المجتبى ينادي العباد لانتهاز هذه الفرصة "يا باغي الخير أقبل ويا باغي الشر أقصر" فمن يرد التجارة مع الله فثمّ تجارة حقيقية .. فيها كل مصطلحات التجارة لكنها لا كتجارة الدنيا، تجارة فيها الشاري وفيها المشتري وفيها السلعة وفيها البيع والشراء ..

قال تعالى:(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ) [1] (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ۚ)[2] .

(إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ) [3].

وفيها الربا .نعم. ولكنه الربا الإلهي الذي ينمي عنده الصدقات (يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ ۗ ...) [4].

وفيها القرض بالصدقة على المساكين ولكنه القرض الذي يعود أضعافا مضاعفة (مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ ...) [5].

ولا جناية يقترفها الإنسان المؤمن بحق نفسه أكبر من أن يفرط بمثل هذا الخير .. ويدير ظهره لهذه الجوائز التي تفوق حد التصور.

وستعجب أشد العجب عندما تجد أن من الناس من لا يحب شهر رمضان .. ولا يريد أن يسمع بطالع سعده .. وستعجب أيضا أن هناك من يُقبل على رمضان ولكنه بدلا من أن ينصرف إلى البيع والشراء في معرض سلعة الله الغالية وجني الأرباح وإيداعها في بنك الادخار الإلهي .. فإنه ينصرف إلى الاتجار بالضلالة: (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ) [6].

و لا عدو نفس أعدى من رجل يعرّضها لحالة الاختطاف وإخراجها من واقع التجربة الإيمانية العميقة إلى واقع الشرود الذهني البعيد .. فيركض وراء المسلسلات ويبدد وقته الثمين في الدردشات فيجد نفسه ما يبني من إيمان إلا لكي يهدمه .. وما يجمع من حسنات إلا لكي يفرقها .. وما يصلح من وضع إلا لكي يفسده .. فإذا خضعت المعادلة الحسابية للإضافة والخفض يوشك أن يخرج من شهر الرحمات .. خالي الوفاض .. بادي الانفاض .. صفر اليدين.

1 – [البقرة : 207].
2 – [التوبة : 111].
3 – [فاطر : 29].
4 – [البقرة : 276].
5 – [البقرة : 245].
6 – [البقرة : 16].

أسرار الصوم (6-15)

السر السادس ـ التدريب على الانضباطية وتعزيز قوة الإرادة:

أ- الانضباط الغريزي:

تتجلى عظمة التحرر من سطوة النفس عندما يكون الصائم بعيدا عن كل رقيب إلا من رقابة نفسه ورقابة ربه .. حتى ليجد نفسه وحيدا في شقة مغلقة وهو يتلمّظ من شدة العطش .. أو يتلوى من شدة الجوع .. والثلاجة أمامه عامرة بألوان الشراب البارد والطعام الشهي ولديه ما عن له من الفاكهة والحلوى، ولكنه لايجد شيئا يفلّ من قوة انضباطه وطاعته لله .. بل إنه ليجد متعة الطاعة ومتعة الانتصار على الذات أمتع من لذة الطعام والشراب.

تأمل لو كان هذا الصيام بأمر من الدولة أو رقابة القانون، فإن سائر الناس سيتحايلون على رقابة القانون، ولذلك قال النبي صلوات الله عليه عن ربه "كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به يدع طعامه وشرابه وشهوته من أجلي" [1] أي أن الصوم عبادة خاصة يتجلى فيها صدق النية والإخلاص لله، فليس فيها ذرة من رياء أو سمعه .. بينما الحاكم أو القانون لايستطيع أن يتحكم في ضمائر الناس ودواخلهم و في خلواتهم وخلف أسوارهم بعيدا عن أعين الرقيب .. لكن الله رقيب الضمائر وحاكم السرائر، لا يبلغ أحد مبلغ سلطان الله في النفوس .. فلا يمسك الصائم إلا حين يأْذَن الله له أن يُمسك .. ولا يفطر إلا حين يأذن الله له أن يفطر وبهذا يكون من أعظم أسرار رمضان تحقيق الانضباطية التامة لله عز وجل.

وإذا كانت حياة الإنسان كلها مجالا لترويض البدن من أجل حمل الأثقال ومصارعة الأقران والتغلب على مشاقّ الحياة وصعابها .. فإن النفس بحاجة إلى مواسم ترويض على الطاعة التي فيها تحمّل المشاق والتغلب عليها، وتعزيز إرادة الإنسان أمام الشهوات والتّفلت من عقال العادات اليومية التي ما يلبث أن يصبح أسيرا لها .. فالله عز وجل لا يريد من حرمان عبده شيئا أحلّه له أن يعذبه به .. ولكن يريد مما يريده أن يرفع من ملكاته .. ويسمو بكمالاته .. وأن يهذب نفسه ويعيد إليه القدرة على التحكم فيها التي تحب أن تُرْسل في الحياة

---

1 – رواه البخاري وغيره.

مطلقة بلا ضوابط .. فيمسك عنانها متى يريد .. ويطلقها متى يريد .. ووفقا لمشيئة الله تعالى وأوامره .. فيكون زمام الشهوات في يده لا في قلبه يتحكم فيها هو لا تتحكم فيه هي.

ب- الانضباط السلوكي:

على أن سر الانضباطية لا تتوقف عند هذا الحد، فالصوم جملة من الضوابط لاتبدأ وتنتهي عند علاقة العبد بالخالق دون أن ينعكس ذلك على علاقته بالمخوقين .. فليس الصوم فقط ترويض النفس على الامتناع عن احتياج الغرائز، بل وبالامتناع عن الانفلات السلوكي غير الحميد كالعنف اللفظي والبدني، الذي يتسبب في إيذاء الناس .. ولذلك سنجد في التوجيهات النبوية ربطا بين علاقة الإنسان بالخالق وعلاقته بالمخلوق .. فإذا قد استقام المؤمن في علاقته بالله فالمتوقع أن تستقيم علاقته بعباده، وإذا قد أمكنه الإمساك عن المألوف من مباحات فطره فسيمكنه الإمساك عن ما حرمه الله من إيذاء خلقه كالاستطالة عليهم بما لايليق .. قال صلى الله عليه وسلم في رواية لأحمد وغيره"رُبّ صائم حظّه من صيامه الجوع والعطش .. ورب قائم حظه من قيامه السهر" وقال صلوات الله عليه "من لم يدع قول الزور والعمل فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه" .. وقال" الصيام جنة ، فإذا كان يوم صوم أحدكم؛ فلا يرفث، ولا يصخب، ولا يجهل فإن سابه أحد أو قاتله، فليقل: إني امرؤ صائم، (مرتين) "[1] قوله "فليقل إني صائم" يدُلّك على أن شهر رمضان شهر تدريب وتهذيب للنفس الذي من شأنه أن يحقق الكمال الإنساني في القول والعمل .. فالذي ينجح في الامتناع عن مصادر الحياة الأساسية التي لا تقوم الحياة إلا بها لماذا يفشل في الامتناع عن سلوك يضره ولا ينفعه، ويخفضه ولا يرفعه كسباب الناس وقتالهم .. والذي ينجح في أن يكبح جماح نفسه في تعاطي الملذات والشهوات لماذا يفشل في كبحها عن المشاحنات التي تورث العداوات وتكلف المؤمن خسارة في قيمته الاعتبارية أمام الله والناس.

إن الله تعالى لا تنفعه طاعة المطيع ولا تضره معصية العاصي .. فإذا لم يترتب على طاعته سلوك حسن مع الناس فلاثمرة مكتملة لعبادته، لذلك جعل الإسلام العلاقة بين العبادة والسلوك علاقة حسابية مترابطة فالعبادة مقدمة والسلوك نتيجة .. فإذا لم تفض المقدمة إلى نتيجة فالعملية الحسابية فاشلة، لأن ثمة رصيد عمل يقابله استنزاف وتبديد للحسنات لمن تخوَّض في حقهم، يجلي ذلك الحديث المشهور عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " تَدْرُونَ مَنِ الْمُفْلِسُ؟ "، قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، قَالَ: "

1 – رواه البخاري.

إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُقْضَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يَقْضِيَ مَا عَلَيْهِ، أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ، فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ[1].

وهذا شامل لكل العبادات، ففي الصيام كما سبق قول النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث "من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة أن يدع طعامه وشرابه"[2] وفي الصلاة ربط بين العبادة والسلوك قال تعالى: (...إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ ...)[3] فمن لم تنهه صلاته عن فعل السوء فلا صلاة له.

وقال في الحج: (... فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ ...)[4]فهناك عبادة لله تؤدى وهناك نتيجة سلوكية تفضي إليه وهو أن يترك الإساءة إلى الناس كالرفث والفسوق والجدال في الحج.

والزكاة عبادة لله تؤدى وفيها نتيجة سلوكية تفضي إليه وهي تزكية النفس وتطهيرها من مرض البخل والشح على الفقراء والمساكين، فمن ازداد من الله قربا ينبغي أن يزداد من الناس قربا .. ومن ازداد لله حبا ينبغي أن يزداد للناس حبا.

فإذا كان الانضباط العبادي والسلوكي هو أحد أهم أسرار الصوم كما سبقت الإشارة فما بالنا نجد بعض المؤمنين لا يسوء سلوكهم ولا تنفلت أخلاقهم إلا في رمضان؟ .. ففي نهار رمضان فقط نجد البعض في حالة استنفار عصبي وتوتر نفسي مقطب الجبين .. مصفر الوجه .. متوثب العينين .. مرتعش الشفتين؟؟ فهل الصوم يفرز هذا الحالة العصبية لبعض الناس ويتسبب في تعكير المزاج فتكثر مشاكل المسلمين في رمضان؟؟ .لن أتحدث عن القليل الذين قد يتسبب خلو المعدة من الطعام وتركيز بعض الأحماض إلى بعض التوتر النفسي فهذا التوتر يتلاشى عند حال الرضا واطمئنان النفس .. بل إن ذلك الانفلات الأخلاقي المبالغ فيه من بعض الصائمين يعود إلى عدم التصالح النفسي مع عملية الصوم نفسها .. فهو صائم لا لأنه مقتنع بالفريضة محب لها؛ بل لأن المجتمع قاده إلى هذا الوضع الذي يجد نفسه مجبرا على التجاوب معه حتى وإن لم يدرك هو هذا المعنى .. فيدخل رمضان بنفس غير مهيأة فلاتتحمل صدمات الجوع والعطش وترك العادات التي درج عليها .. فينعكس انتقاما من المجتمع بعد

---

1 – رواه الإمام أحمد والترمذي وغيرهما.

2 – أخرجه البخاري وغيره.

3 – [العنكبوت : 45].

4 – [البقرة : 197].

تصفير وضعه النفسي .. فلا طاقة لديه لمن يأتي يمتحن أعصابه فتكثر مشاكله ويزيد من انفعالاته.

لذلك على المؤمن أن يدرك أن الصبر على العبادة عبادة .. وأن المطلوب أن يصبر لا على الطعام والشراب بعض الوقت وحسْب بل وأن يصبر على الناس ومؤاذاتهم .. كما يدعى إلى الصبر على فقد أعز الناس إليه .. أن يصبر على ضياع ماله أو وظيفته .. أن يصبر على مرضه وسوء أحواله .. تلك هي طبيعة الحياة أما الذي يعبد الله على حرف فتلك عبادة مشروطة ليس لله فيها حاجة قال تعالى(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ)[1].

1 – [الحج : 11].

أسرار الصوم (7-15)

السر السابع- الانضباط الزمني والشعائري:

في الحلقة السابقة تحدثنا في سر الانضباطية عن الانضباط الغريزي، والانضباط السلوكي .. وفي حلقتنا هذه نخصص الحديث عن:

- الانضباط الزمني.
- الانضباط الشعائري.

أ- الانضباط الزمني:

لا يفصل بين الحِلِّ والحُرمة .. ولا بين الجنة والنار سوى لحظات .. فالمسلم مضبوط بجزء من الدقيقة، فلا ارتجال في استقامته ولا فوضى .. فمتى أذن المؤذن لصلاة الفجر فكل مكلَّف في ذلك البلد يمسك عن ممارسة أهم مألوفاته اليومية أكله، وشربه، وجماعه، وفي وقت واحد، ورد فعل واحدة، لا يتأخر عن إمساكه متعلِّلٌ ولا متحايلٌ إلا معذور بعذر شرعي.

والشيء نفسه يحدث عند أذان المغرب الجميع في وضع المفطر حتى وإن لم يجد الصائم ما يفطر به فقد بات مفطرا بالأمر الإلهي وبالنية. " إذا أقبل الليل من ها هنا، وأدبر النهار من ها هنا، وغربت الشمس فقد أفطر الصائم" [1].

ومن تأخر أو تقدم متعمدا بلا عذر، فقد وقع عليه الإثم، إنها أوامر عليا مقضِية .. فبعد أن كان الإمساك واجبا قبل لحظات، أصبح تركه واجبا بعد لحظات .. ومن أراد الوصال ظنا منه أنه بتطويل أمد جوعه يطيع الله فهو إنما يعصي الله لأن المسألة تعبدية وقد دخل في التعبد الانضباط الزمني.

وهذا الانضباط الزمني درس عملي ينمي الإحساس بأهمية الوقت واحترامه واحترام المواعيد في سائر حياة المسلم وينهي واقع الارتجالية غير أنه لسوء الحظ لم تنعكس على حياة المسلمين اليوم كما هي في أداء الشعائر.

إن الله عز وجل وهو فوق الزمان والمكان زَمَّن فعله في خلق السماوات والأرض بستة أيام، وهو قادر أن يقول للشيء كن فيكون، وإنما ذلك لكي يعطينا توجيها في قوانين الزمن،

---

1 - رواه البخاري.

فيجب أن يكون لكل فعل وقته وبدايته ونهايته .. كما زمَّن للمواعيد فقال: (ولما جاء موسى لميقاتنا) [1].

وفي أكثر من موضع يقسم المولى بالزمن ولا يقسم الله إلا بعظيم قال: (والليل إذا يغشى* والنهار إذا تجلى) (والفجر وليال عشر) ويقسم بالزمن كله (والعصر) كل ذلك دلالة على أهمية الوقت وضرورة الانضباط الزمني وكل العبادات مرتبطة بمواعيد محددة بالانضباط التوقيتي فالصلاة مواقيت معلومة وداخل العبادات عناوين توقيتية مختلفة مثل الوقت الاختياري .. والوقت الضروري .. والوقت الموسع .. ووقت الأداء .. ووقت القضاء .. والوقت الفاضل والوقت الأفضل .. ووقت الزوال .. ووقت الكراهة.

ووقت الدعاء في الأسحار وفي الأمطار وفي الأسفار.

والزكاة مرتبطة بالحول ولها مواقيتها مثل وقت الوجوب .. ووقت الاستحباب .. فمن أدَّى زكاة فطره قبل صلاة العيد فقد أجزأته ومن أداها بعد ذلك فإنما هي صدقة من الصدقات.

وللحج زمنه المحدد وأيامه المعدودات .. ولمناسكه مواقيتها المعلومة .. فللتروية وقتها، وللوقوف والدفع، والمبيت بمزدلفة، ورمي الجمرات، والتحلل، وطواف الإفاضة أوقاتها المحددة وأي تقديم أو تأخير قد يحبط عمل العبد.

وفي الحياة المدنية أوقاتها مثل وقت الزواج والدخول ووقت المهر .. ومدة الحيض والنفاس ووقت الإيلاء .. ووقت العدة .. ووقت الظهار .. ووقت الكفارات .. وأطوار الحمل ومددها [2].

إن الزمن هو رأس مال المسلم، ولأهميته كانت معظم حياة المسلم العبادية مزمنة، ولذلك يسأل كل عبد عن عمره فيما أفناه قال صلى الله عليه وسلم: "لَنْ تَزولَ قَدمَا عَبدٍ يَومَ القِيامةِ حَتَّى يُسألَ عَنْ أَربعٍ : عَنْ شَبابهِ فِيمَا أَبلاهُ ، وعَنْ عُمرهِ فِيمَا أَفناهُ ، وعَنْ مَالهُ مِنْ أَينَ اكْتسبهُ وفِيمَا أَنفقهُ" [3].

وقال:" اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ: حَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغُلِكَ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وَشَبَابَكَ قَبْلَ هِرَمِكَ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ " [4].

---

1 – [الأعراف : 143].

2 – ينظر في محاضرة للشيخ سعيد الكملي (قيمة الوقت).

3 – رواه البزار وابن أبي شيبة.

4 – الألباني تخريج مشكاة المصابيح إسناده صحيح.

ويحاجج الله العصاة بأعمارهم يوم القيامة: (... أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءكُمُ النَّذِيرُ ...) [1].

ب- الانضباط في أداء الشعائر.

يذكر أن أحد العمال من دولة آسيوية كان يعمل ضمن فريق من المسلمين وكان يلاحظ كثرة الاختلاف فيما بينهم لكن متى حان وقت الصلاة أتجهوا جميعا إلى مصلاهم .. وتوضأوا بطريقة تراتبية متساوية .. وصفوا صفهم بانتظام .. واتجهوا نحو وجهة واحدة وصلوا صلاتهم بإيقاع واحد منتظم لا شذوذ فيه ولا اختلاف .. وبعد انصرافهم من الصلاة قال لهم ما أشد توحدكم وتفاهمكم وانتظامكم في صلاتكم وما أكثر اختلافكم خارج صلاتكم!.

علم هذا الدين أتباعه الانضباط في كل شيء .. انظر إلى ثلاثة ملايين مسلم حول الكعبة يموج بعضهم في بعض بين طائف وراكع وساجد ورائح وغاد .. على مساقي زمزم .. وفي دورات المياه .. وفي الأسواق حتى إذا أقيمت الصلاة انقلب وضع هذه الملايين في لحظات وانتظموا في صفوف متجانسة متناسقة لايحتاجون لتدخل منظمين ولا إلى مكبرات صوت تحثهم على أخذ أماكنهم، وتسوية صفوفهم، ولا إلى شرطة تسوقهم بالسياط ولا فرق إرشادية .. هل يتكرر مثل هذا المشهد في أي دين أو أمة أو فعاليات دنيوية بهذه التلقائية العجيبة؟ قطعا لا.

ويسري الانضباط على مقتضيات الصيام، وأركان الصلاة، ومناسك الحج وحتى على آداب الدعاء، وآداب قراءة القرآن .. إلخ تأخذ قوالبها الانضباطية وينتفي معها اللانظام كون الإسلام منهج حياة منظم ومتكامل لا مجال للعبثية والفوضى متساوقا مع دقة خلق السماوات والأرض (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ) [2] (وَالسَّمَاء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ) [3].

وفي الختام فإن مؤدى هذه الانضباطية يجب أن تظهر في حياة المسلم من حيث الانضباط في المواعيد، وفي الالتزام الوظيفي، وفي دقة العمل وإتقانه .. وفي احترام الزمن وتوظيفه فيما هو مفيد ونافع لأن الزمن هو محصلة عمر الإنسان قال الشاعر:

والوقت أنفس ما عنيت بحفظه ** وأراه أسهل ما عليك يضيع

1 - [فاطر : 37].

2 - [الدخان : 38].

3 - [الرحمن : 7].

أسرار الصوم (8-15)

السر الثامن ـ لفت الانتباه إلى نعمة البسْط:

قال سيد قطب– رحمه الله" كثرة معايشة المألوف يميت الإدراك" ومعناه أن الشيء مهما كان جميلا ومثيرا أو ضروريا إذا اعتاد نظرك أن يقع عليه كل يوم سينتهي الإحساس بقيمته وستموت معانيه ويتضاءل رونقه.

ولن تتذكر أن بيتك مليئة بالتحف الثمينة وروائع الأشياء إلا عندما تستضيف زائرا فكلما مر بتحفة نادرة فغر فاه واستوقفك متعجبا ومستفسرا لأنها جديدة عليه فيما أصبح عندك كل ما فيها من معاني الجمال ميتا لكثرة المعايشة.

انظر الشمس مثلا تطلع كل يوم في آلية منتظمة وفي أوقات محددة لم يعهد الناس لها اضطرابا .. ولو تأرجح نظام هذه النعمة لكانت دائما مجال قلق الناس وهلعهم وذعرهم .. فماذا لو هامت في الفضاء وتاهت عنا .. وبعدت عن مدارها .. وتركتنا نغرق في الظلام بلا نور ولادفء .. أو اقتربت منا أكثر من اللازم فأحرقت النماء وبخرت الماء .. فأي حركة غير محسوبة من هذا النوع كفيلة بإنهاء الوجود الإنساني على مسرح الحياة .. ولهذا ولكي ندرك قيمة هذه النعمة جاءت نعمة النزع المؤقت بالخسوف للفت الأنظار إليها .. فالناس لا يتحدثون عن النعمة موجودة كما يتحدثون عنها مفقودة .. ولا تبدأ الوسائط الإعلامية والمراكز البحثية الحديث عن آية منسية كالشمس إلا عندما تغيب. .فهذا القبض للنعمة فرصة للتأمل وأداء حق الشكر لله عليها ولهذا الغرض شرعت صلاة الخسوف والكسوف .. لآية الشمس والقمر.

وهناك آلاف آلاف الآيات الإعجازية التي تضافرت لإعطاء الإنسان حياة آمنة ليس له في إيجادها أي دور يذكر .. ولأنه وجدها أمامه قائمة مضى في التعاطي معها دون أن يسأل عن مصدر وجودها .. بل إن توفرها على الدوام أمامه أرخص قيمتها في عينيه حتى لايجد لها معنى .. فليس له من بد من أخذها ونزعها لكي يحصل على القيمة الناتجة ..

انظر نعمة العينين –كمثال آخر– كم واحد ينظر في المرآة ثم يتساءل عن سر هاتين الآيتين المشرقتين الجميلتين .. ما هما ؟ كيف تحدث عملية الإبصار لملايين الأشكال والألوان؟ كيف نفرق بين العدو والصديق والمستأنس والوحش .. والجبل و السهل .. كم واحد

يسأل نفسه من الذي أودع فيها(33000000) ثلاثة وثلاثين مليون خلية عصبية وعصيات ومخاريط عاكسة وزودها بسائل يحفظها من التجمد حتى لو تقطّع جسم الإنسان من التجمد تبقى العينان وهما قطرتا ماء لا تتجمدان .. ويحفظهما من التبخر حتى لو كانت الحرارة فوق الستين درجة مئوية كل شيء يتبخر من الجسم إلا قطرتي الماء هاتين. فمن خلق فقدّر وملك فدبّر؟

لسوء الحظ الإنسان كما وصفه ربه (ظلوم كفار) (قتل الإنسان ما أكفره) فمتى يتذكر قيمة نعمة العينين؟ بتذكرهما فقط عندما يجد أن إنسانا أمامه قد فقدهما وقلّت فرصُه في الحياة .. وكثر اعتماده على الغير .. وأصبح كالطفل غير المميز يسقط في حفرة .. أو يدوس على كلب .. أو يضرب رأسه في الجدار . . وتجد الأطفال يستغلون ضعف حيلته فيجعلونه مجالا للتفكه والتندّر .. إذن انظر كم نحن بحاجة إلى مصادرة النعمة أحيانا لكي نقدر قيمتها .. ونشكر المولى عز وجل عليها.

يُذكر أن واعظا سأل أحد المستمعين:

– ماذا لو أعطيتك ملء هذا المحراب ذهبا.ماذا سيكون موقفك تجاهي؟ قال:

–تعطيني ملء هذا المحراب ذهبا؟ ! سأكون لك كالخاتم في أصبعك .. وكالسوار في معصمك .. وفي أي وقت تدعوني لأي غرض ستجدني أمامك الخادم المطيع .. .. .فقال الواعظ:

– لكن لديّ شرط أن آخذ منك عينيك كقطع غيار لإنسان مريض .. فرد المستمع قائلا:

– لا .. إلا هذا وإن أعطيتني ملء الأرض ذهبا .. فقال الواعظ:

– سبحان الله فالذي أعطاك عينين ولسانا وشفتين وهو يقول لك (حي على الصلاة حي على الفلاح) .. أعطني جزءا من وقتك لأداء حق الشكر .. وأنت لا تلتفت ولا تهتم .. فيما صرت مستعدا لأن تكون رهن إشارتي مقابل هذه النعمة.

إن الناس لا يتذكرون إلا النعم الكسْبية التي هي نتاج عمل الإنسان .. ولا يكافئون إلا عليها .. ولا يشكرون إلا من يؤمّنها لهم لأن فيها جهدهم وكسبهم .. أما النعم الفطرية والخلقية التي هي الأساس والتي أوجدها المنعم المتفضل فلا يذكرونها ولا يلتفتون إليها.

وليس الصيام إلا نزعا مؤقتا لنعمة الطعام والشراب والجماع وهي النعم الكسبية المقدور على تحصيلها .. فعندما يعيش الإنسان يتقلب في أعطاف النعم ما أن يشعر بقدر

يسير من الجوع أو الظمأ حتى يبادر إلى تناول ما شاء من الطعام والشراب ولا يمر به فترة حرمان حقيقية يشعر معها بالجوع يعتصر بطنه فيتلوى من شدته .. أو عطش يعقد لسانه فيترنح من هوله .. حتى إذا صام وجاع وعطش تذكر لقم العيش الطرية التي يلعب بها حين فطره ويرمي به في براميل النفايات أكواما وهو يتمنى الآن كسرة العيش الناشفة وما ألذّها وأطيبها .. وتذكر شربة الماء الباردة التي كانت قبل الإمساك قريبة المأخذ سهلة المتناول ما أغلاها الآن وهو يغالب الظمأ وإنها لتساوي الدنيا بما فيها وما قيمة الدنيا بدون الماء .. يروى أن أحد الخلفاء طلب من أحد الواعظين أن يعظه. فقال له: يا أمير المؤمنين أنت الآن محاط بنعمك لاتكاد تشعر بحاجة إلى متعة من متع الدنيا وبإشارة واحدة يأتيك الطعام مختلفا ألوانه والشراب البارد الهانئ .. هبْ أنك وجدت نفسك يا أمير المؤمنين وحيدا فريدا في صحراء شاسعة، مترامية الأطراف، في يوم قائظ، وبلغ بك العطش مبلغه حتى أوشكت معه على الهلاك ماذا كنت فاعل؟ قال:

– سأعطي من يعطيني شربة ماء نصف ملكي .. قال له الواعظ:

–هبْ أنك أعطيتها وشربتها وهنئت بها ثم احتبست في جوفك ولم تقدر على إخراجها ماذا كنت ستفعل؟ قال:

–سأعطي من يعمل على إخراجها نصف ملكي الآخر .. قال الواعظ:

–عجبا لملك لا يساوي شربة ماء وخروجها.

إنّ الطعام والشراب والجماع عناصر ثلاثة لايمكن للنوع البشري أن يستمر بدونهما، وكل عنصر من هذه العناصر الثلاثة في حياتنا البشرية قصة أداء وعطاء لا تكفي الأسفار لتدوينها وجلاء ما فيها من العناية والتدبير .. وليس الصوم إلا سرا يذكرنا بأن حياتنا قائمة على ثلاثي متضافر .. يمثل مصدر وجودنا .. لم يكن لنا دور في إيجادها إلا دور الباحث عن شيء موجود .. وليست قصة إيجاده هي كل الحكاية، فالنطفة يقذفها الرجل في رحم زوجته تأخذ دورة طويلة معقدة من التخليق ليس للأبوين فيها أي دور حتى يظهر ثمرتهما إنسانا سويا مكتمل الخلق، ولا يسألان نفسيهما عن اليد التي قامت بعملية الإيجاد والإمداد؟ .. كيف جاء هذا الطفل بهذا الخلق القويم والصنع البديع؟ .. فكان استجابة الزوجين في الإمساك عن المعاشرة بأمر من الله فتكون الاستجابة حق الشكر للمنعم المتفضل.

ولنأت إلى آية الطعام فالقصة لا تبدأ وتنتهي عند الاستمتاع بتناوله فلا يزال ثمة عشرات الأجهزة التي تستقبل هذا الطعام لكي يمر بدورة من التمثيل والتقليب والإفرازات الحمضية الهاضمة والامتصاص والتوزيع العادل إلى جميع أجزاء الجسم حتى يصل إلى (مائة

ترليون) خلية من خلايا الجسم لا تُترك خلية ولا تنسى ولا تهمل فمن يقوم بكل ذلك وما هو دور الإنسان في ذلك؟

إن الإنسان ليقف مذهولا عند نعمة واحدة غامضة لم أجد أحدا في حدود ما أعلم قد لفت الانتباه إليها كإحدى آيات الإعجاز في الإنسان رغم بساطتها وبديهيتها، وهي أن الطعام عندما يمر بعملية التقليب والهضم والامتصاص لا نشعر بكل هذه العمليات ولكن عندما يصل إلى المستقيم كفضلات جاهزة للإخراج ماذا يحدث؟ يبدأ الآن فقط دور الإنسان حيث يتحرك جهاز الإشعار، ويعطي الإنسان رسائل عصبية إشارية بأن الفضلات جاهزة للإخراج، وهنا يبدأ بالتحرك للبحث عن دورة المياه .. على أنه لو تأخر في العثور على دورة المياه هل سينفلت الزمام .. أم أن الله مد الإنسان بجهاز تحكم أيضا يستطيع به الإمساك، حتى يجد مكانه فإذا وجده رفع جهاز التحكم المحابس وقضى الإنسان حاجته .. حتى عندما يقوم الإنسان بهذا الدور الأخير .. لايزال هناك جهاز استشعار وتحكم .. تعينه على ما بقي له من دور .. تأملوا فقط لو نزعت منا هذه النعمة.

وكم لله من النعم التي تحتاج إلى موقف شكر وطاعة لذلك كان من رحمة الله ولطفه أنه كتب علينا فريضة الصيام لنتذكر ونتدبر أن الذي منعنا من هذه العناصر الثلاثة مؤقتا هو الذي منحنا إياها طوال العام وهو الذي أيضا أمّن طرق معالجتها وسبل الاستفادة منها .. فلله الحمد والمنة على ما أعطى وأهدى وأسدى.

أسرار الصوم (9-15)

السر التاسع- لفت الانتباه إلى نعمة القبض:

يقوم نظام حياتنا على قاعدة الثنائية الضدية أو قانون الزوجية .. وبه تتحقق المتعة ويتجدد نمط الحياة .. بل ويستمر نشاطها.

فما هي الثنائية الضدية؟ وما علاقتها بحديثنا عن أسرار الصوم؟

الثنائية الضدية (وإن شئت قلت التكاملية لأن من تضادها ينشأ التكامل الوجودي للشيء) هي أن الله تعالى خلق كل شيء من طرفين متقابلين سالب وموجب .. سواء على مستوى الماديات أو المعنويات .. والعجيب أن الحياة كلها قائمة على هذه القاعدة قال تعالى: (وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) [1] ويعود ذلك إلى مسألة توحيد الخالق عز وجل وهو موضوع آخر.

وموضع العجب فيها أنها سر متعة الحياة وتجددها .. فلو لم يخلق الله القبح لما عرفنا سر الجمال وقيمته وسعد الناس به .. فلو كان الناس على مستوى واحد من الجمال والشكل لكان في عيوننا رتيبا مملا بلا معنى .. ولو لم يكن هناك مرض وألمْ ما عرفنا قيمة الصحة وطعمها .. ولو لم يكن هناك تعب وإجهاد لما عرفنا قيمة الفراغ والراحة .. ولو لم يكن هناك جوع وظمأ واستمرينا على حالة واحدة من الشبع والامتلاء لما كان هناك شيء اسمه الطعام الشهي والشراب الهني .. بل ولَترك الناس المعائش .. وكفوا عن السعي في الأرض .. ولقتلنا الملل والرتابة .. ولم نشعر بمتعة الاكتشاف والإيجاد وتحقيق النجاحات.

فالامتناع عن الطعام والشراب ليس فقط للتذكير بنعم الله إن فُقدت وبل وللتذكير بنعم الله لو وُجدت ولم تفقد.

ولذلك أمتع طعام وألذّه وأشهاه ليس هو ذلك الذي تأكله في أرقى المطاعم .. بل هو ذلك الذي تأكله بعد جوع وحرمان. .وأهنأ شربة وأعذبها ليست هي تلك العصائر الفاخرة التي تجدها في أرقى المشارب بل هي تلك التي تأتي بعد ظمأ وحرمان .. ولو لم يكن هناك جوع وعطش لاضطرّ الناس إلى صناعته وبيعه بالذهب والفضة .. فيقال هذا علاج للتخلص من الامتلاء وهذا علاج للتخلص من الارتواء.

---

1 - [الذاريات : 49].

إذن فنحن بحاجة إلى أن نجوع ونظمأ لكي يكون للطعام متعة وللشراب لذة .. فإذا كان الصوم صديق الفقراء فهو حبيب الأغنياء، وطبيبهم لأنه يفلسف غناهم .. ويهدّف نعمهم.

فإن تشفق على الفقير الذي يجوع يوما ويشبع يوما فلتشفق على الغني أيضا الذي لايجد للجوع والعطش مسلكا .. يتقلّب في أعطاف النعيم فما يكاد يحس بشيء من الجوع أو الظمأ حتى يبادر بسد العجز فيبقى على حالة من التخمة، والذي ينشأ على الملعقة الذهبية لا يقدر النعم وهذا سر تقديم القبض على البسط في قوله تعالى: (... وَاللّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) [1] وذكر البسط مقرونا التضييق في القرآن الكريم نحو (9) مرات (يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) ويقدر: بمعنى يضيق قال: (وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ) [2] هذا القدر المعلوم وذلك التضييق يأتي من أسبابه ما ذكرنا تجميل ما قد يكون في ظاهره ابتلاء يجلي ذلك أكثر قوله تعالى: (... وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ) [3].

ولذلك جاء التوجيه الإلهي بالامتناع عن الطعام والشراب والشهوة بالأمر القهري لكي يبعد الموسرين عن حالة التخمة قال تعالى (... ۚ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ...)[4] (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام ...) أي وجب.

فلا فسحة ولا اعتذار .. ولا يمكن القبول بالمال عوضا .. وكان للمسافر في رمضان وضعان الأول جعل الفطر له رخصة والصوم عزيمة (وأن تصوموا خير لكم) كما في بعض التفاسير لماذا؟ لأن السفر قد يكون مهنة مثل ربّان السفن والطائرات وسيارات النقل والأجرة فحياته كلها سفر .. فأن يفطر خوفا من حدوث إجهاد ومضاعفات فذلك له، ولكن الأفضل ألا تفوته تجربة الصوم الذي من أسراره الاستمتاع بملذات الحياة التي فقدها عند صومه.

تلك هي طبيعة حياتنا الدنيا تأتي السعادة من العناء .. والراحة من الشدة .. ولقد سجل الله ذلك في أعجب تناول قرآني قلّما يفطن إليه الناس قوله تعالى (... فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا ...).

فالمعروف أن الغمّ يأتي بالحزن فكيف لو كان غما بغم هذا أدعى إلى شدة الحزن لكن الله قال (لكي لا تحزنوا) والمفسرون مجمعون على أن معنى (أثابكم) أي كافأكم وأهداكم ..

---

1 - [البقرة : 245].
2 - [الحجر : 21].
3 - [البقرة : 216].
4 - [البقرة : 185].

فكيف يصبح الغم هدية من الله إنه لأمر عجيب .. وقبل أن آتي إلى ذكر سبب نزول الآية أذكر هذه القصة التي ربما تكشّفت من خلالها معاني الآية الكريمة أكثر .. ذكر لي صديق أنه مر بسيارته بمنطقة نائية كثيرة اللصوص وقطّاع الطرق ولا يبالون أن يقتلوا الفرد على الشيء التافه .. قال فاستوقفوني فوقفت وأنا لا أشك أنني أشهد آخر لحظات عمري .. قال فظلوا يلفون حول السيارة فتمنّيت أن يأخذوها ويتركونني .. ثم أخذوا حاسوبا محمولا وظلوا يقلبون فيه فتمنيت أن يأخذوه ويتركوني والسيارة .. لكنهم زهدوا فيه وأعادوه .. وأخذوا يفتشون جيوبي وكان فيها عشرة ألف ريال فتمنيت أن يأخذوها ويتركونني .. قال وفعلا أخذوا الفلوس واكتفوا بها وسمحوا لي بالمرور .. قال فعندما تجاوزتهم كأنني ولدت من جديد وكنت في غاية السعادة .. تأمل يقول إنه شعر وكأنه ولد من جديد وفي غاية السعادة، رغم أنهم أخذوا منه عشرة آلاف ريال .. مع أنه قبل أن يصل إليهم لم يكن سعيدا ومعه العشرة آلاف ريال .. فما الذي حدث؟ الذي حدث أن السعادة تتولد أحيانا من رحم المعاناة .. فعندما يهبط الإنسان إلى قعر الآمال ويرتفع إلى أعلى درجات اليأس ثم تبدأ في التراجع وتقليص المسافة لصالح الأمل يرتفع معه معدل السعادة أي أن السعادة يصنعه السلامة من فقدان الشيء أحيانا أوبعضه مثلما يصنعه وجوده وتوفره.

فلو قيل لك لا سمح الله أن أحب الناس إليك قد مات ستصعق لوقع الخبر .. ثم قيل لك بعد ذلك أنه لم يمت ولكنه لا يزال في غرفة الإنعاش ستطير من الفرح رغم أنه الآن بين الحياة والموت إلا أنه أفضل من الموت نفسه.

ولذلك الفرح والألم تصنعه أحيانا الظروف المحيطة أكثر منه في ذاته ولنعد إلى تفسير الآية الكريمة :(إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ ۗ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) [1].

سبب هذه الآية هو ما وقع في غزوة أحد فقد كان صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم يأملون أن ينتصروا على الكفار ويغنموا ويعودوا سالمين ظافرين .. لكنهم هزموا فشعروا بالغم ثم أشيع أنّ رسول الله قد قُتل فأظلمت الدنيا في أعينهم وشعروا أنهم قد فقدوا كل شيء فقدوا رسول الله وفقدوا الدعوة وفقدوا الدين .. وفيما هم كذلك إذ نادى مناد أن رسول الله لا يزال حيّا ففرح الصحابة كأشد ما يكون الفرح ونسوا هزيمتهم وجراحاتهم وكأن شيئا بعد سلامة رسول الله لم يحدث.

---

1 - [آل عمران : 153].

إذن هذه طبيعة الحياة قائمة على الثنائية الضدية فلابد لكي نعرف معنى الطعام والشراب أن نتعرف على الجوع والعطش. .ولابد لكي نعرف معنى الراحة أن نتعرف على التعب والنصَب .. ولابد لكي نعرف معنى الأمن أن نتعرف على الخوف .. ولكي نعرف معنى السلامة أن نتعرف على فقدانها .. ولكن بالقدر الذي يعيد الأشياء إلى نصابها وليس بالذي يترتب عليه الهلكة وتدمير الذات .. ولندعو الله دائما بالأمن والإيمان والسلامة والإسلام.

على أن ما يجب التنبيه إليه أن التعرف على النقم ليس السر منها فقط لإعادة القيمة إلى النعم، بل ولإعطاء المؤمن الأجر على الصبر على ما نالهم من الابتلاء إما بالصبر على الطاعات أو بالصبر عن المعاصي قال المولى تعالى: (... إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ) [1].

1 - [الزمر: 10].

أسرار الصوم (10-15)

السر العاشر- الإحساس بمعاناة الفقراء:

لم يكن مخطئا عندما وصف أحد رؤساء الدول الغربية صوم المسلمين بأنه فترة تضامنية مع الفقراء ومشاركة إنسانية لمشاعر المحرومين.

على أن موضوع ثنائية الصوم والمساكين لا تتجسد فقط في شهر رمضان .. بل إن الناظر في الأحكام الشرعية في الإسلام ليتملكه العجب وهو يرى التزاوج الذي أقيم بين المسكين وهذا الركن العبادي (الصوم) .. فكثير من الأحكام يتقرر فيه الكفارة يكون إما أن تطعم المسكين أو تصوم .. فما سر الارتباط بين الحالتين؟ وقبل الإجابة على هذا السؤال يحسن بنا القيام بتطواف قصير بين ثنايا الآيات التي تضمنت الكفارات وجمعت بين الإطعام والصيام .. يقول الله في كفارة الصيد حال الإحرام: (.. .أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا ...)[1] وفي كفارة اليمين (ۖ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ...) [2] .. وقال في كفارة الظهار لمن لم يجد رقبة يعتقها: (فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ۖ فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ...) [3].

ونحوه في دية قتل المؤمن خطأ وفي فدية حلق الرأس للمحرِم .. إذن لا معدّى من القول إن السر في هذا الربط هو أن المولى تبارك وتعالى قد أراد بذلك أن يخوض المسلم إحدى التجربتين: إما سدّ خلّة المسكين ومد يد العون للمحاويج .. أو خوض تجربة الجوع الذي يحقق مبدأ التضامن والمعايشة العملية لأوضاع الفقراء وتلمس همومهم، فمن لم يجد الإطعام اليوم فإن تجربة الحرمان ستقوده يوما إلى تذكر هذه الشريحة والتعاطف معها ومد يد المساعدة نحوها.

ولك أن تتأمل في أصحاب الديانات الأخرى عندما تمر على أحدهم ستون أو سبعون عاما ولم يعرف يوما أن امتنع فيه عن الطعام والشراب لمدة 12 ساعة وقد تصل إلى 18 ساعة كيف لمثل هؤلاء أن يعرفوا معنى الجوع الذي قد يستمر هذه المدة وأكثر.

---

1 - [المائدة : 95].

2 - [المائدة : 8].

3 - [المجادلة : 4].

وإنّما ضيّع مُلك ملكة فرنسا (ماري انطوانيت) زوجة الملك لويس السادس جهلها لمعنى الفقر الحقيقي، فعندما ثار الشعب الفرنسي الجائع على نظام الحكم لم تستطع أن تستوعب شيئا اسمه ثورة جياع .. فلماذا يجوعون؟ وعندما قيل لها يا جلالة الملكة إن الناس لا يجدون رغيف الخبز أجابت مستغربة بتلك المقولة الشهيرة .. "إذا لم يجدوا رغيف الخبز لماذا لم تعطوهم بسكويتا؟" .. لقد قاست الأمور على حياتها التي اعتادت .. فالقصر مليء بالطعام إذا عدم الخبز لم يعدم غيره .. ولا تعرف أنّ حياة الفقراء قصة أخرى .. وهذا الجهل هو الذي يصنع الحكام الطواغيت لأن حياتهم لا تعرف الحرمان لذلك لا يشعرون بمعانات شعوبهم.

من هنا فإنّ وجود الفقر والغناء في الناس لا يعني خللا في نظام الأقدار بل خللا في التربية .. وقد جاء الإسلام وعالجها ففرض الصيام الجماعي يستوي فيه الفقير والغني والرئيس والمرؤوس بحيث يخوض الجميع هذه واقع الفقر والافتقار .. ثم ابتلى الأغنياء بالفقراء .. فجعل (في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم) لذلك فأينما وجدت الفقر فاعلم أن هناك مشكلة في التربية الاجتماعية حيث صار فيه المُعسر ضحية بخل المُوسِر .. ولو التقى الطرفان في المنتصف لما مات الفقير من الجوع ومات الغني من التخمة.

ولا أغلظ قلبا ولا أخشن طبعا من إنسان يصوم ويمر بتجربة الفقراء هذه وهو يقلب الملايين وأمامه من لايجد الملاليم .. طاوي البطن .. ناحل العود .. حافي القدمين سمل الثياب .. يمد يده نحوه يلتمس شيئا مما أعطاه الله ثم يضن عليه باليسير ولا يتحرك قلبه مع كل هذه المواقف الإيمانية والإنسانية .. فمثل هذا لم يدّخر لنفسه مالا بل ادّخر لنفسه نكالا .. .. فإذا لم يأخذه من حِلّه ويضعه في محلّه .. ويعطي حق السائل والمحروم يتحول يوم القيامة من مصدر نعمة ورفعة في الدنيا إلى مصدر عذاب وخزي يوم القيامة.

إن الإسلام ليأبى إن يدرج الفقير في أكفان النسيان دون أن يحمل كل المسلمين تبعات الإنفاق عليه، أو تأطير المجتمع بسياسة طاردة للفقر، ومنها أداء الزكاة لمصارفها الشرعية .. ولولا أن حديثنا عن الصوم لكان أمامنا سفر طويل من معركة الإسلام على الفقر .. فقد شنّ عليه حربا ضروسا متعددة الأساليب مختلفة الأدوات منها الزكاة والحض على الصدقة .. ولو طبقت الزكاة في الإسلام على مصارفها الثمانية لعاش الفقر بيننا بلا أصدقاء ولبحث له عن مكان آخر يستوطن فيه .. ولما أصبح العالم الإسلامي هو وطنه الأم.

ولو بحثنا عن مثلِنا الأعلى في الإنفاق والحدب على المساكين سنجده في رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد كان أول حاكم تدين له كل جزيرة العرب ويأتيه الأموال والزكاة من جميع أقطارها ولو أراد لكان إمبراطوريا في الجاه والغنى، ولكنه مع ذلك عاش بمقاييس هذا

العصر تحت خط الفقر حتى لم يستطع أن يجهز غازيا عرض نفسه لنصرة دينه كما ذكرنا ربنا: (وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلاَّ يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ) [1] .. عاش حياة الفقراء بكل معانيها حتى ليمر على أهل بيته الشهر والشهران لايوقد فيها نار وإنما قوتهم الأسودان .. وربما بات طاويا وربما أصبح صباحه فيسأل نساءه في غير أيام رمضان هل لديكم طعام؟ فإذا وجد أكل وإن لم يجد أكمل يومه صائما .. فإذا جاءت الزكوات والأعطيات فرقها بين الناس وما كان له من نصيب فهو بينه وبين أهل الصفة فكان أجود الناس .. وأجود ما يكون في رمضان، وفي مسند الإمام أحمد وغيره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أجود ما يكون في رمضان و كان حين يلقاه جبريل أجود من الريح المرسلة لا يسأل شيئا إلا أعطاه وذلك لأن أجر الصدقات يتضاعف في هذا الشهر" وقال النبي صلوات ربي عليه كما في الصحيح: " من أفطر صائما في رمضان كان له مثل أجر الصائم إلا أنه لا ينقص من أجر الصائم شيئا"وفي بعض الأسانيد والذي لا يملك إلا قوته فقال" ولو بكسرة خبز أو شربة ماء أو مذقة لبن" فيا لَله ما أوسع فضله على الأغنياء وما أوسع رحمته بالفقراء .. حيث يكافئ المحسن بأجر الصائم ليرغّب في تعهد المساكين.

وأذكر أنني دُعيت لحضور فعالية جمعية خيرية تعنى بإفطار الصائم يقوم عليها شباب ليس لديهم من العلم بقدر طيبة قلوبهم وحبهم لفعل الخير .. فذكروا لي أن مجموع من يتناولون طعام الإفطار يصل إلى 150 صائما فقلت لهم: أتدرن ماذا تفعلون؟ أتدرون أن كل واحد منكم يعود إلى البيت ومعه أجر 150 صائما .. أي ومعه أفضل من أجر خطيب المنبر وإمام المحراب .. وهناك من الأقطار الإسلامية من يتسابق فيها الموسرون في مد الموائد وإقامة المآدب الرمضانية المفتوحة لكل الناس وكانت عندنا في اليمن جمعيات تقيم موائد الإفطار وتتعهد الناس إلى بيوتهم .. وفي بعض الأقطار كالسودان لا تأكل الأسرة إلا في الشارع لعلهم يعثرون على مسكين فيحصلون على قدر أجره.

إن رمضان إذا لم يكن مدرسة لتعديل السلوك العام بحيث يزيل ما بين الأغنياء والفقراء جدران العزلة ويضيق الهوة فقد فقَد رونقه وخلا من معانيه، ولم يتحقق منه كل أسراره وغاياته التي من أهمها التغيير النسبي لواقع هذه الشريحة التي يتعاظم وجودها يوما بعد يوم في أمة التكافل والتكامل والرحمة.

1 – [التوبة : 92].

أسرار الصوم (11-15)

السر الحادي عشر- مواساة الفقراء بين الربح والخسارة:

قال تعالى: (... وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ ...) [1].

إن المحب لنفسه يحرص على مصلحتها ومن مصلحتها تأمين مستقبلها بأن يستثمر لأرض إقامته الحقيقية.

ومن يكره نفسه ويبخل عليها فليثمِّر ماله كله وينميه في أرض اغتراب لايدري متى تنتهي مدة إقامته فيها ويرحل عنها فقيرا إلى ما قدم غنيا عما أخر. قال النبي صلى الله عليه وسلم :" أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله؟ " قالوا: يا رسول الله، ما منا أحد إلا ماله أحب إليه من مال وارثه قال: " اعلموا أنه ليس منكم أحد إلا مال وارثه أحب إليه من ماله، ما لك من مالك إلا ما قدمت، ومال وارثك ما أخرت "[2] فلمن الجمع لذات الجمع والبناء لذات البناء ومكابدة الدنيا، لمَ ينفق كل حياته يجمع للغير إن لم يكن ثمة توازن واعتدال؟ إن المعادلة السليمة في قوله تعالى : (وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ...) وربط بين عدم الإحسان والفساد في الأرض. (... وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ) [3].

على أن من أعظم صور الجزاء يكمن في عطاء الغني للفقير، فما يذهب منه إلا ليعود إليه، وما ينقص بذلا إلا ليزيد نماء، فهو نام في الدارين، قال المعلم الأول صلوات الله عليه :"ثلاث أقسم عليهن" منها "فإنه ما نقص مال عبد من صدقة" [4] (... وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) [5] (... وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ)[6] فمن ينتابه الفزع من الصدقة في الدنيا تكفَّل الله بإعادتها في الدنيا قبل الآخرة وهي رسالة تطمين للحريصين على مالهم، فلا خسارة في إنفاق المال في الدنيا على وجوه الخير .. والذي يبخل فإنما يضن على نفسه ويحرمها من ربحي الدنيا والآخرة.

---

1 - [محمد : 38].

2 - رواه أحمد وغيره.

3 - [القصص : 77].

4 - رواه أحمد والترمذي واللفظ له.

5 - [سبأ : 39].

6 - [البقرة : 272].

ولماذا هذا التأكيد على عدم ضياع مال المتصدق في الدنيا قبل الآخرة؟ الجواب: إنه الحث على إقامة مبدأ التكافل في الإسلام فمن لافت النظر ذلك النظام التكافلي الفريد الذي لا وجود له في حياة البشر .. حتى لقد جمع الله بين العقيدة وبين التكافل .. بين عبادة الله وتلمس شريحة المساكين .. اقرأ معي هذه الآيات من المقدمة إلى النتيجة ثم العلة الجامعة قال: (ما أغنى عني ماليه* هلك عني سلطانيه).

والنتيجة (خذوه فغلوه * ثم الجحيم صلوه* ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه).

ما سبب ذلك؟ (إنه كان لايؤمن بالله العظيم*ولايحض على طعام المسكين) [1] لم يكن السبب أنه فقط لايؤمن بالله العظيم، وقد كان فيه الكفاية بل ولا يحض على طعام المسكين .. جمع المولى بين [الإيمان به وتوحيده] وحق المسكين على الغني .. ورتب العذاب على ضياع حق الله (وهو غني عن عباده) وحق المسكين المحتاج إنه شعور عال بالمسؤولية .. ونجد في موضع آخر يجمع بين [الصلاة] وبين إطعام المسكين في معرض جواب أهل النار عن سؤال يوجه إليهم (ما سلككم في سقر* قالوا لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين) [2].

ويتكرر الأمر في موضع آخر فيجمع بين [الدين] وبين حق اليتيم والمسكين: (أرأيت الذي يكذب بالدين) سؤال للإثارة وشد الانتباه .. هل تعرف من الذي يكذب بالدين؟ والدين هنا الآخرة .. هذا السؤال لمن يظنون أن الذي يكذب بالحساب هو فقط الكافر لكن الجواب: (فذلك الذي يدع اليتيم* ولا يحض على طعام المسكين) فجمع الله بين الإيمان بأحد أركان الإيمان وبين سلوك اجتماعي وهو البذل والمواساة .. وما علاقة اليوم الآخر عن هذا السلوك؟

الجواب: إن من يفعل ذلك إنما يفعله كما لو أنه لايوجد بعث ولانشور وبالتالي لا حساب عليه ولا عقاب .. سواء كان كافرا أو كان مؤمنا فهو بمنزلة الذي يكذب بأن هناك حسابا ينتظره فنتيجة المواقف سواء.

والعجيب أن الله تعالى لم يقل ولايتصدق على المسكين أو ولا ينفق بل قال ولا يحض وذلك حتى يدخل في المسؤولية من لا يجد ما ينفق لكنه يجد ما يساعد على الإنفاق وهو حض الآخرين.

ومن هنا وفي هذا الشهر الكريم كم من الأغنياء والأثرياء تُمَدُّ بين أيديهم الموائد العامرة التي تفيض عن حاجتهم، وهناك إلى جوارهم مسلمون أمسكوا بنياتهم عن طعام غير موجود، وأفطروا بنياتهم عن حلال مفقود .. بيت عامرة بألوان الطعام وبيت عامرة بألوان الفقر

---

1 - [الحاقة : 29- 34].

2 - [المدثر: 42- 44].

والبؤس والحرمان .. بيت يزهو ربه أنه أغدق على أسرته بما أغنى حاجتهم، وكف سؤالهم، وتركهم يغرقون بدموع الضحكات .. وبيت يطأطئ ربه رأسه خجلا وصغاره يتثاغون بين يديه، يتقلبون في عجز حيلته غارقين بدموع البكاء ولا يدري ماذا يصنع فإن سقط في براثن الغواية فهو والمجتمع في المسؤولية سواء.

إن مجتمعا ساده التوحش حظه من الدين طقوس باردة لاتلامس قلوبا متحجرة .. كيف يهنأ أغنياؤه بغنائهم وهم يرون أبناء المسلمين الذين كتب الله لهم العزة قد كستهم أثواب الذلة .. يتكففون الناس بنفوس منكسرة .. ووجوه شاحبة .. وأثواب سملة قد رخصوا على الناس قيمة .. وخفوا في عيون الناظرين وزنا؟ كيف يمكن أن تنهض أمة وتقف على أقدامها لمدافعة الأعداء المتربصين كما يهرج بها أصحاب الشعارات التجارية وهي تواجه معركة البقاء وتدافع واقع الفناء، وتريق ماء وجهها من أجل للحصول على ما يسد رمقها .. ثم لايرى أولئك الأغنياء والمسؤولون للفقراء عليهم حقا، إن لم يتلذذوا بمظاهر الافتقار إليهم ولسان حالهم كما يقول الله: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) [1] فإن يحسبوا هذا هينا فهو والله عند الله عظيم .. فلقد أفسح القرآن للفقراء حيزا كبيرا من العناية والاهتمام وعدَّد مصادر حقوقهم بحيث لايبقى لفقير مسألة .. ولا تترك لموسر عذرا .. ولا لحاكم تعلَّة.

ولا يطحن الفقر أمة إلا من تخمة حاكم ظالم، وراع لايرعى رعيته، ومسؤول لا يحمل للمسؤولية معنى .. كيف يجوع المسلمون ليت شعري ومعهم هدي القرآن؟ أين (وفي أموالهم حق معلوم* للسائل والمحروم)؟ أين (ومما رزقناهم ينفقون)؟ أين (وأطعموا البائس الفقير)؟ كيف يصير الكافر أكثر عدلا وإنصافا وشعورا بالمسؤولية من حكام يدعون أنهم ينتمون لهذا الدين؟ (كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا) فلو كانوا مسلمين لما كذَّبوا بيوم الدين وتجاسروا على الله بجريمة مركبة، جريمة الجريمة وجريمة ادعاء انتمائهم إلى الإسلام وهو منهم براء .. وهذا ربنا يقول في المتخمين: (...واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين) [2].

1 – [يس : 47].

2 – [سُورَةُ هُودٍ: ١١٦].

أسرار الصوم (12-15)

السر الثاني عشر- المحافظة على الصحة الجسدية:

أقام الإسلام معادلة جسدية بين حالة الامتلاء والفراغ .. فالله تعالى أطلق ما أحله لعباده أحد عشر شهرا .. ثم قيده وفرض حمية في شهر من العام .. هل هذه الحمية يحتاجها الجسم الصحيح القادر المقيم أم لا يحتاجها؟

إن التخمة والامتلاء في فلسفة الإسلام تورث القسوة في القلب .. وتقلل من نشاط صاحبها ومن البطء في التركيز والفهم؛ لأن هناك عملية استنفار هضمي دائم للدماء التي يقتضيها الهضم فتتركز دائما حول المعدة فتقل التروية من الدم للدماغ ويقل الفهم ويشعر الممتلئ بحالة من الخمول والميول للنوم.

وصدق رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه حين حذر من التخمة في قوله "ما ملأ آدمي وعاء شرا من بطنه .. بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه فإن كان لابد فاعلا فثلث طعام وثلث شراب وثلث نفس" كما جاء في البيهقي وغيره.

ولذلك تحتاج التخمة إلى برنامج مقاوم لأعراضها الصحية وقد شارك الدين في تقديم أحد علاجاتها وهو الصوم والسفر عن عبد الله بن عباس:"سافِروا تصحُّوا وصوموا تصحُّوا واغزوا تَغْنَمُوا"[1].

وقد أثبتت التجارب أن النحيف الذي يمر بحالات الجوع أكثر قدرة على التشبث بالحياة إذا تعرض للجوع من الفرد السمين .. لأن جسم النحيل اكتسب قدرة على الاستعاضة من المخزون الذاتي فيغذي نفسه من نفسه .. بينما الأوعية الهضمية للبدينين اعتادت على الطعام يأتيها من الخارج فلا تملك المقاومة.

ومن غير شك أن حديث المزايا الصحية للصوم هي لدى المتخصصين أوسع من الملاحظات العامة السابقة.

وقد أجمع خبراء طبيون متخصصون في علوم التغذية أن للصيام فوائد علاجية كثيرة .. وأن هناك مستشفيات ومصحات باتت تعالج بما يسمى بالصوم الطبي وهي ضرب من الحمية في أوقات متفاوتة.

---

1 – في السلسة الصحيحة للألباني وقد أخرجه ابن عدي في الضعفاء.

وقد اكتشف عالم التغذية "كي وايلر" الأمريكي أن الصيام يحدث تجديدا ل10% من خلايا الجسم في العشر الأول من رمضان .. وخلال الأيام العشرة التالية يحدث تجديدا ل60% أما العشر الأخير فيحدث تجديدا لجميع خلايا الجسم .. وأثبت كذلك أن التركيز يكون في أعلى حالاته خلال نهار رمضان .. وتزيد المناعة عشرة أضعاف المناعة العادية للإنسان.

ومثلما أنه يستحسن طبيا التبرع بالدم من مرة إلى مرتين في العام لتجديد خلايا الدم فإن خلايا الجسم بحاجة أيضا إلى هذا النوع من التجديد عن طريق الصيام.

وقد قدر أهل الاختصاص أن الاحتياطي الذي يمكن الاعتماد عليه داخل الجسم يصل إلى 40-45% دون خطر يذكر فكريات الدم الحمراء تنقص في البداية ولمدة أسبوعين ثم تبدأ الكريات الجديدة الشابة في الظهور والتكاثر.

ومن الجدير بالذكر أن القلب يرتاح كثيرا عند الصوم وتنخفض ضرباته إلى 60 ضربة في الدقيقة وهذا يعني أنه يوفر مجهودا يعادل 28800 دقة كل 24 ساعة.

وفوق ما سبق فـإن من أشهر أمراض العصر التي باتت تمثل شبحا رهيبا في الدول الصناعية هي تراكم الطعام .. مع تقلص مجالات تبديد الطاقة لصالح الجلوس لفترات طويلة مما أدى إلى تراكم اللحوم والدهون .. فالعمل الزراعي والصناعي بل والإداري صار عبر الآلة .. فأكثر أوقات الفرد على الكرسي لا يتحرك .. حتى المشي نعمة استبدت بها المواصلات .. ومع الوجبات الباردة والسريعة يسمن الفرد ويترهل سريعا.

ومشكلة التخمة الحضارية أنها لا تعالج هناك بصيام فلا نوافل ولا فرض كالمسلمين .. وتصير البدانة في عملية طردية فإذا خرج الوضع عن السيطرة يلجأ المريض للأطباء .. وبدورهم يعطونه الحمية ولكن في الوقت الضائع فإذا قام بعملية التخسيس وحصل على الوزن المطلوب وعاد إلى سيرته الأولى يعود الوزن سريعا ومضاعفا لأن الحمية غير منتظمة.

إننا عندما نتحدث عن السمنة فإنها على مستوى الأعراض الصحية تعني الكثير والكثير لايتسع المجال لذكرها .. ولكن يكفي اجتماعيا أن البدانة المفرطة تعني تراجع الفرَص الحياتية للبدين قياسا بالأسوياء فتقل فرصُه في الحصول على الوظيفة وعلى الزوجة .. والحصول على المقاسات الملائمة من اللباس ويتجاهل أصحاب المواصلات الخاصة طلبيات السمان .. وإن وافقوا قد لاتتسع المركبة لهم .. ويخشى أصحاب البدانة دائما من الجلوس على الكراسي العامة في المطاعم والمنتزهات وصالات الانتظار حتى لا تتحطم.

لذلك السمنة في الغرب نسبة عالية وكابوس مخيف يحاولون التخلص منها بالمشي السريع وممارسة التمارين الرياضية والتقليل من الأطعمة النشوية والدهنية .. إلخ.

وما عدا أقطار قليلة في عالمنا الإسلامي يعاني مواطنوها من النحافة كاليمن والصومال لأسباب اقتصادية فإن بقية الأقطار سائر أفرادها يتمتعون بأجسام معتدلة ومعقولة.

وبالمحصلة فإن الأطباء يقررون أن الصوم طبيا يساعد في علاج حالات كثيرة .. والوقاية في حالات أخرى كثيرة أيضا فله دور في:

-علاج اضطرابات الأمعاء المزمنة والمصحوبة بتخمر.

- علاج زيادة الوزن الناشئة من كثرة الطعام.

-علاج أمراض الكلى الملتهبة والحادة والمزمنة علاجا شافيا.

- علاج إمراض القلب كما يقي من مرض البول السكري.

- علاج إمراض زيادة الحساسية وأمراض البشرة الدهنية[1] .

وهناك علاج آخر في حياة الفرد المسلم يتمثل في أن الصوم يجبره على ترك العادات اليومية السيئة التي لا يستطيع منها فكاكا إلا في رمضان. .مثل شرب الدخان والمنبهات والمنشطات بمختلفها .. ويجمع المدمنون أن شهر رمضان يكسبهم القناعة التامة عن تعاطيها .. فإذا كان الأمر كذلك فإن المتعين على مثل هؤلاء أن يكملوا علاج رمضان فيتركوا ما اعتادوا عليه أيضا في غير. رمضان ..

صحيح أن المدمنين على تناول التبغ والقهوة والمشروبات الغازية وما فيها من كافايين ونيكوتين يعانون في بداية رمضان من التوتر العصبي وسرعة ردات الفعل الغاضبة ونوع من الدوار والكسل بسبب الإشارات العصبية الدماغية التي تطلب النيكوتين والكافايين ولكن الصحيح أيضا أن مرد ذلك إلى عادات الإدمان إذا ما استثنينا مرضى السكر .. ولاعلاقة للصيام بذلك التوتر والانفلات العصبية بل إنه يضفي جوا من الهدوء والسكينة فالدم موزع بشكل طبيعي على القلب والدماغ والأعصاب حال الصوم .. لأنه غير مشغول بعملية الهضم.

وقد وضع الاسلام معالجات لتقليص الفترة الفاصلة بين الصوم والإفطار لمن يعانون هذا الانهيار العصبي فجعل من السنة التعجيل في تناول الفطر والتأخير في تناول السحور قال صلى الله عليه وسلم في الصحيح "لا تزال أمتي بخير ما عجلوا الفطر وأخروا السحور"

---

1 - مواقع .. ينظر منها .181 -A9 http://www altibbi.com

ومن لطف الله بعباده إضافة إلى ما سبق أن جعل فرائضه بالتوقيت الهجري وليس الميلادي وذلك لتوزيع الفصول السنوية على جميع المسلمين سواء من حيث طول وقت الصيام أو من حيث عوامل الحرارة والبرودة .. فالذي صامه طويلا سيأتي يوم يصومه قصيرا .. والذي صامه حارا سيأتي يوم يصومه باردا مراعاة للضعفاء وأصحاب الأعذار.

أسرار الصوم (13-15)

السر الثالث عشر- تحقيق الوحدة الشعورية بين المسلمين:

تلتقي المشاعر بالشعائر، وتتجسد وحدة الاصطفاف أمام محراب الطاعة بين المسلمين بمختلف اتجاهاتهم وألوانهم ولغاتهم، وحيثما وجد المسلم مسلما وجد ثمَّة ذاكرته وتاريخه وثقافته .. قال أحد العرب من هواة التسلق أنه طمح إلى تسلق جبال الهملايا في الهند وباكستان التي عليها قمة إفيرست أعلى قمة جبلية معروفة .. وعندما حقق الرقم الذي خطط له ووصل إلى المدى المطلوب جلس يستريح في قمة الجبل، وهو ينصت بأذنية لبلاغة السكون الذي يلف المنحدرات ويخيم على صحاري الثلج المهجورة .. قال وفيما أنا كذلك أتأمل في كون الله الواسع وغربتي في هذا المكان النائي .. إذا بصوت جميل يشق سكون الصمت من بعيد .. ويصل إلى مسامعي .. صوت يخاطب ثقافتي ويناجي مشاعري التي تعودت على سماعه طوال حياتي إنه صوت الأذان فكأني بأخ لم تلده أمي يسكن في تلك الفيافي يقول لي .. لستَ هاهنا وحدك .. لايزال في هذه الأرض الغريبة أخ لك هو نسخة مكررة من هويتك يصلي كما تصلي ويحب إلهك ونبيك كما تحبهما أنت .. حتى وإن اختلفنا في المكان واللغة والعرق فإن ما بيننا من علائق الأخوة والدين أكبر من ذلك.

كل الشعائر الدينية عوامل توحيد للمسلمين .. حتى الخطاب يأتي بصيغة الجماعة (يا أيها الذين آمنوا) لا يوجد بصيغة الفرد يا مؤمن .. يا مسلم .. يا عبدي.

وفي الأداء تتجسد الوحدة العضوية للأمة بدون تقسيم ولا فرز ولا استثناء .. (وأن هذه أمتكم أمة واحدة) وتمضى مظاهر التوحيد لتشمل القلب والقالب. .فالمسلمون جميعا يتجهون كل يوم خمس مرات إلى جهة عباديِّة واحدة .. لايسكن صوت الأذان عنهم لحظة ولا يرفع الساجدون رؤوسهم عن الأرض لحظة .. ما تنتهي عبادة هؤلاء إلا لتبدأ عبادة أولئك هكذا على مدار الساعة .. وفي كل عام يضم جميع المسلمين بأعراقهم وألوانهم ولغاتهم لقاء جامع في فريضة الحج ينتظمون في سلك واحد ومناسك واحدة .. ولبس واحد وتلبية واحدة .. وجعل الله تعالى المسلمين أمة واحدة .. ذات خصائص موحدة أسماؤهم متميزة .. وأكلهم خاص .. ولبسهم يدل على هيئة وجود إنساني موحد .. هذه الهيئة الإنسانية الواحدة مُجمِعة على ألا يعتمر أحد فيها قلنسوة اليهود مثلا .. أو عمامة السيخ .. أو صليب النصارى .. أو يأكل الخنزير .. أو يسمي بأسماء غير إسلامية.

ولاشيء في الاسلام إلا وهو عامل توحيد للمسلمين كأمة واحدة ذات هوية وروابط خاصة ومتجانسة.

ومن أبرز مظاهر التوحيد فريضة الصوم .. فعلى مدار ثلاثين يوما تشعر أن هذه الفريضة يمارسها إلى جانبك كما تمارسها أنت أكثر من مليار ونصف إنسان .. كل هؤلاء يمثلون وحدة سلوكية عامة متناغمة .. لو قدِّر لك أن تطير بالطائرة في يوم صيام واحد من اليمن إلى قرية نائية مسلمة في قرقيزيا مثلا أو ماليزيا أو أثيوبيا ودخلتها والناس في أسواقهم ومتاجرهم ومزارعهم لن تجدهم سوى نسخة مكررة من قريتك .. أناس لا يأكلون .. لا يشربون يتجهون عند الأذان إلى المسجد .. يقرؤون القرآن باهتمام وإقبال .. يجتمعون عند أذان المغرب لانتظار لحظة الإذن بالإفطار فيتناولون فطورهم كأي عائلة مسلمة في أي مكان.

وفي العيد يخرجون بهيئة فرح متميزة ليس فيها سكر ولا حانات ولا مراقص كبقية الأديان .. بل فيها فرح غامر .. وقلوب عامرة بالمودة .. ومظاهر أفراح مشروعة وزيارة أرحام ومعانقة أصدقاء .. والجميع يشعر أن هذا الشهر لون مختلف عن بقية أيام السنة للمسلمين خاص .. وأن عيدهم هو عيد خاص بأمة الإسلام .. هذه الوحدة الشعورية العامة تشعر الإنسان المسلم أنه ينتظم في سلك أمة عظيمة واحدة .. وأن ما بينه وبينها قواعد ائتلاف لا اختلاف .. ونقاط اتفاق لا افتراق .. فحياته وحياتها وتصوراته وتصوراتها من فلسفة الحياة والموت .. والبدء والمعاد .. والعقيدة والعبادة .. والشريعة والسلوك كلها تناغم وانسجام.

إن الوحدة الشعورية بين المسلمين نعمة وفرّها الإسلام ووسع من مجالاتها .. على أن هذا التوحد في الشعور تضاءل الإحساس به حتى كاد أن يموت .. بعد أن تعرضت وحدة المسلمين لحرب الخصومات السياسية والتهارش على الدنيا .. فكثيرا ما تعمدت السياسات أن تضرب على المسلمين محاجر عزل قومية وعنصرية .. فلو وضعت الأخوة والهوية الدينية وكل ما في الدين من شرائع وتكاليف في كفة ثم وضعت القومية أو الحزبية أو المذهبية في كفة واحدة لطاشت كل نقاط الاتفاق أمام نقطة افتراق دنيوية واحدة. .

أنظر كيف أن المسلمين يشعرون بالسعادة عندما يجدون أن غالبية الدول الإسلامية قد صامت شهر رمضان في يوم واحد أو أفطرت في يوم واحد .. هكذا يحب المسلمون أن تستمر الوحدة الدينية قائمة بينهم .. ولك أن تتصور لو كانت الأمة الإسلامية على حاكم واحد هل كان سيحدث كل هذا الاختلاف في بداية الصوم وانتهائه.

وحتى تدرك مبلغ الجناية التي تقترفها الاختلافات السياسية في حق المسلمين فإن فريضة كالصيام أصبح مجالا للمماحكات بين الدول الإسلامية المتجاورة فإذا صام هذا القطر فإن مقتضى التوتر السياسي أن يعمل بمبدأ المخالفة .. حتى أنه في عصر السلطنات في جنوب اليمن قبل توحيدها كانت سلطنة الكثيري وسلطنة القعيطي في محافظة واحدة هي محافظة حضرموت فسلطنة الكثيري في سيئون .. بينما سلطنة القعيطي في المكلا والشحر .. ولأنه كان بينهما نزاع ساسي متواصل فإن سلطنة الكثيري تخالف السلطنة المجاورة في إعلان بدء الصوم .. والقعيطي تحرص على مخالفتها في العيد .. وبعد توحيد السلطنات في دولة واحدة دولة اليمن الجنوبي سابقا صار الهلال يظهر على الجميع فيصومون بقرار واحد .. ثم وقبل أن تصبح اليمن دولة واحدة جنوبا وشمالا كان هلال الشمال غير هلال الجنوب فلابد من مبدأ المخالفة إذْ لو حدث ما يشير إلى التفاهم حول توحيد الصيام سيكون بمثابة تفاهم سياسي ينتهي بأننا شعب واحد .. وهذا ما لم تقرره السياسة بعد .. ثم عندما أصبح اليمن بلدا واحدا توحّد معها الهلال وأصبح جزءا من مظاهر الوحدة اليمنية .. مع أن الهلال محايد وبرئ من الاختلافات السياسية .. وعلى مذهب مالك وأحمد فإن رؤية الهلال في أي بلد ملزم للجميع لقول النبي صلى الله عليه وسلم من حديث أبي هريرة في الصحيحين وغيرهما "صوموا لرؤيته وافطروا لرؤيته فإن غُمّ عليكم فأكملوا عدة شعبان ثلاثين يوما" تأمل الخطاب في الرؤية بصيغة الجمع .. أي أنه لجميع المسلمين .

أما حسابيا فإن الاختلاف يأتي بسبب ضعف القدرة على الرؤية .. أما الآن هناك مراصد حسابية دقيقة والله تعالى ربط الشمس والقمر بالمنازل والحساب فقال تعالى (هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ...)[1] فذكر الله المنازل والعدد والحساب .. كقوله (الشمس والقمر بحسبان) وكلها تؤكد أن المطالع تسير وفق حساب دقيق لا يوجد فيه هامش للخطأ وتؤكد ترجيح العمل الحسابي المنتظم .. والآن المراصد لا تخطئ ولو بجزء من الثانية لكن السياسيين يتملّكهم الرّعب من قضية توحيد المسلمين بل صاروا يتندّرون من كلمة خلافة لأن فيها معنى الوحدة ..

ولا ننكر الرأي الآخر الذي يعمل بظاهر النص وجعل معنى الرؤية البصرية المجردة وأن المسلمين على مطالع .. مختلفة .. ولكن برأيي أن خطاب الله الذي يقول (وأن هذه أمتكم أمة واحدة) (وكذلك جعلناكم أمة واحدة) وبصيغة الجميع لكل المسلمين يجعل من المرجح القول بأن الرؤية الواحدة تكفي لجميع المسلمين .. والله تعالى أعلم.

---

1 - [يونس : 5].

أسرار الصوم (14-15)

السر الرابع عشر- ربط السعادة بتحقيق النجاح.

يقول النبي صلى الله عليه وسلم "وللصائم فرحتان: إذا أفطر فرح .. وإذا لقي ربه فرح بصومه" [1].

بادئ ذي بدئ يظهر الإسلام بهذا الحديث معنيا بالفرح .. بل ومعنيا بصناعته وتحقيق السعادة في حياة الفرد والجماعة .. وأن الإسلام لا يمجد الحزن كما قد يظن البعض ولا يحرض عليه .. لأن الفرح مؤشر على نجاح وقع .. أو تفاؤل في نجاح متوقع .. والحزن جزع على ما فات .. والخوف يأس مما هو آت .. والإسلام يجعل اليأس كفرا .. ويستثنى من ذلك الحزن على المعصية في محراب التوبة .. ويستثنى من الفرح فرح الأشر والبطر وما ليس بطاعة.

والفرحتان المذكورتان في الحديث الشريف هما أولا فرحة العبد عند فطرة والفرح هنا نوعان: الأول الفرح كل يوم يؤذن المؤذن فيه بدخول الليل فيفطر بعد أن أطلق حل طعامه بعد تقييده، وأن انتهى اليوم العبادي بنجاح الطاعة وتقبلها إن شاء الله وهو ما أشار إليه الحديث "إذا أفطر فرح" وحَبُّ شيء إلى الإنسان ما مُنع.

والفرحة الثانية: هي فرحه بنجاحه في اجتياز شهر الابتلاء بالصبر عن تناول الطعام والشراب، ونيل الثواب على مدار شهر كامل ولذلك شرع العيد.

فمن أهم مصادر الفرح وأشهرها تحقيق النجاح .. فما علاقة النجاح بالصوم وما هي مظاهر الفرح المتصلة بهذه الشعيرة؟

وستلحظ مظاهر الفرحة الأولى تتكرر كل يوم على وجوه الصائمين وهم ينتظرون في شوق ولهف إلى لحظة الآذان كانتظار غائب حبيب إلى النفوس بعد طول انتظار فإذا أذن المؤذن فرحوا بفطرهم.

ويتضاعف الفرح هنا من تحقيق الانتصار على هوى النفس وتعزيز سلطة الإرادة، فتحقق بذلك التصالح المطلوب بين الخالق والمخلوق إن جاز التعبير .. فيكون الله راضيا عن عباده في هذا الشهر لتحمل مشقة الطاعة من أجله وإذا رضي الله تعالى عن عباده فذلك غاية

---

1 – متفق عليه.

المنى الجدير بالفرح والغبطة (قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ) [1].

من ناحية يأتي الفرح من إعادة تقديم المألوفات بطريقة جديدة .. تغيرت معها العادة وأصبح تغييرها عبادة فأضفت على الحياة سعادة انعكست على النفوس كنتيجة لهذا الارتباط الشرطي بين المقدمة والنتيجة.

فوجبات رمضان مختلفة ولياليه ذات نكهة روحية متميزة .. فترى الجميع سعداء في رمضان .. لذلك يستقبلون كل عام كضيف غال على النفوس ويودعونه كأعز حبيب رحل عن المجتمع .. يشمل هذا الطائع والعاصي في الغالب لأنه أحدث كسرا لجمود العادات ورتابتها.

والفرحة الثانية التي وردت في الحديث: هي فرح المؤمن بصومه إذا لقي ربه .. وذلك في يوم القيامة الذي هو على العاصي (يوم الحسرة) و(يوم التغابن) الحسرة لما فاته من الأجر العظيم .. والغبن لما يرى من نعيم كان قد أعده الله له وذهب لغيره.

أما المؤمن فيلقى ربه بصفحة صيام بيضاء فإذا صلح باقي عمله وقرره الله بذنوبه محا الله عنه سيئاته من صحائفه .. فيأتيه كتابه بيمينه نقيا فيطير فرحا حاملا كتابه بين أهل المحشر ينادي (... هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ *إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ) [2].

***احتفال في الملكوت الأعلى:**

وتشهد ليالي شهر رمضان مظاهر احتفائية أخرى تحدث في الملكوت الأعلى لتشمل آثارها الأرض والسماء .. إنه الاحتفاء في أفضل شهر .. وفي أفضل عشر ليالي فيه .. وفي خير ليلة منها إنها ليلة القدر وما أدراك ما ليلة القدر .. ؟؟

يتم الاحتفاء في هذه الليلة بأكثر من مناسبة.

- مناسبة عتق الملايين من النار.
- مناسبة حصول الملايين على شهادات ميلاد جديدة بعد غسل أدران ذنوبهم.
- مناسبة نزول القرآن من اللوح المحفوظ من السماء السابعة إلى السماء الدنيا إلى بيت العزة.
- مناسبة توفيق الله للملايين الذين شهدوا ليلة القدر التي أجرها خير من ألف شهر.

---

1 - [يونس : 58].

2 - [الحاقة19 : 20].

ولقد ذكر الله هذه المناسبة العظيمة بكثير من التفخيم والتعظيم فذكر المولى مناسبة نزول القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ فقال (إنا أنزلناه في ليلة القدر ...) وقال(إنا أنزلناه في ليلة مباركة) هذا الذي أنزله الله في ليلة القدر كما ورد في سورة البقرة هو القرآن (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ...) [1] فياله من حدث فريد في عالم الوجود .. رب عظيم يتحدث بلغة المعظم ذاته العلية بأنه أنزل القرآن في ليلة القدر بدأت سورة القدر بأداة التوكيد (إنا أنزلناه في ليلة القدر...) أي إنا أنزلنا كتابا عظيما في ليلة عظيمة بمعية ملك عظيم هو جبريل عليه السلام على نبي عظيم هو محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم .. من أجل أمة عظيمة .. هي خير أمة أخرجت للناس أمة محمد .. أنظر أي عظمة تشهدها ليلة القدر .. ولذلك يكرر الله ذكرها على سبيل التعظيم والتفخيم (وما أدراك ما ليلة القدر ...) أي شيء عظيم هي ليلة القدر .. ولعظمتها قال (تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ ...) بتشديد الزاي .. أي تنزل الملائكة فيها ليس مرة واحدة بل أفواجا وراء أفواج منها الصاعدة ومنها الهابطة وفي مسند الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن عدد الملائكة في تلك الليلة أكثر من عدد الحصى" يقودهم الروح الأمين جبريل عليه السلام قال (تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا ...) فنزولهم لأسباب منها إحياء ذكرى حدث سماوي وهو نزول القرآن إلى السماء الدنيا. .كما سبق .. وكذلك لشهود ليالي القائمين المستغفرين والقارئين للقرآن المخبتين .. والآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر .. تنزل الملائكة تسلم عليهم وتشهد مجالسهم وترفع صحائف أعمالهم.

وكذلك لشهود أول ليلة توضع فيها أقدار المقادير وأرزاق العباد وآجالهم للعام المقبل، قال تعالى (فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ)[2] ولذلك سميت ليلة القدر لمدلولين اثنين .. الأول لقدرها والثاني لتقدير أرزاق العباد فيها ..

وقد رجح بعض العلماء أنها ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان .. ولكن يجب تحريها في ليالي الفرد من العشر الأواخر ..

فإذا انسلخ شهر الله المعظم رمضان جاءت بعده الفرحة الكبرى .. وهي عيد رمضان الذي هو بمثابة احتفاء المؤمنين بعيد ميلاد جديد بعد أن خرجوا من صيامهم مغفورا لهم .. واحتفاء بعتقهم من النار واحتفاء بحصول المحبة من الله والرضوان.

---

1 - [البقرة : 185].

2 - [الدخان : 4].

وبالمحصلة فإن حياة المؤمنين هي أفراح وأعياد لا هموم وأحزان. .حياة سلام وإسلام.. حياة شكر لله وتهليل وتكبير لاحياة تفجير وتكفير البلوى التي عمت المسلمين.

أسرار الصوم (15-15)

السر الخامس عشر- تحقيق التقوى:

تأخرت التقوى إلى آخر درس من أسرار رمضان لا لأنهما أقلها أهمية بل هي الغاية الأولى من الصيام، كما قال الله : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) [1] وهي جماع أسرار الصيام ومحصلتها، فالتقوى تمثل كمال التدين، ويتغيا الشارع الحكيم بالتقوى إيصال المؤمن إلى علاقة خاصة مع خالقه، فيتشرب قلبه بمعاني عظمته ويجلُّ مقامه في عينيه.

فاتقوى عهده مع الخالق وضابط علاقته مع المخلوقين (وألزمهم كلمة التقوى).

وهي لباسه الحقيقي التي يتحلى بها في أخلاقه وسلوكه مع الناس: (ولباس التقوى ذلك خير).

وهي زاده التي يستعين بها في مواجهة الدنيا، والشيطان، والنفس، والهوى (وتزودوا فإن خير الزاد التقوى).

وقد تكون التقوى نتيجة لمقدمة وقد تكون مقدمة لنتيجة؛ فقد ورد في القرآن الكريم (لعلكم تتقون) (6) مرات و(لعلهم يتقون) أيضا (6) مرات، أي افعلوا ذلك لعله يكون سببا في التقوى، بما يعني أنها ثمرة الأعمال، كما أنها في بعض الآيات مقدمة لنتيجة فقد وردت (5) آيات منها (3) آيات (اتقوا الله لعلكم تفلحون) و آية (لعلكم ترحمون) وآية (لعلكم تشكرون). كما جاءت كثيرا في معرض الترهيب والترغيب والجزاء وقد "تواتر ذكر اشتقاق جذر (و ق ي) في القرآن حسب المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم نحو 257 مرة"[2] مما يعني أن موضوع التقوى كبير وواسع ويحتاج لمزيد من البحث والتحقيق والتدقيق.

وما يهمنا هنا هو تناول ما جاء في التقوى متعلقا بما سبق من الأسرار ولكن ليس قبل تعريف التقوى ما هي؟

التقوى مأخوذ من الوقاية، وهي في الاصطلاح: جعل الطاعة وقاية لصاحبها من مآلات سيئة فقد جاء في الذكر الحكيم (واتقوا فتنة) (واتقوا يوما).. (واتقوا النار) .. أي اعملوا ما

---

1 - [البقرة : 183].

2 - انظر https://brill.com (مفهوم التقوى والمنظومة الأخلاقية القرآنية د. عبد الرحمن حللي) عن (المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم لمحمد فؤاد عبد الباقي 1364هـ، ص 758-761).

يكون وقاية لكم من الوقوع في مآلات ما يجب اتقاؤه ومنها الفتنة واليوم الآخر والنار، وبالتالي معنى اتقوا الله: أي اعملوا ما يكون لكم وقاية من صفات جلال الله التي منها سخطه وعذابه، فأصل التقوى الحجز بين شيئين. قال العلامة محمد بن عثيمين رحمه الله: « التقوى اسم مأخوذ من الوقاية، وهو أن يتخذ الإنسان ما يقيه من عذاب الله. والذي يقيك من عذاب الله هو فعل أوامر الله، واجتناب نواهيه" [1] ويلخص بعضهم تعريف التقوى بأن لايراك الله حيث نهاك ولا يفتقدك حيث أمرك.

وهذا الالتزام الديني يقود إلى الورع والزهد وهي الإضافة التي نجدها في تعريف سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه للتقوى: وهي الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والرضا بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل.

والتقوى عبادة قلبية قال صلى الله عليه وسلم :"التقوى هاهنا – ويشير إلى صدره ثلاث مرات"[2] ومحصلة لعبادات حسية.

ومن خلال التعريف فإنك بالصوم قد جعلت بينك وبين غضب الله وبين النار وقاية من أنك نمَّيت عنصر الروح، وركزت غذاءها على حساب غذاء الجسد لتكون أقرب إلى الله .. واستسلمت لله وأذعنت لأوامره ونواهيه لترتفع عنده منزلة .. وعملت من الطاعات ما هي كفيلة بغفران الذنوب ورفع الدرجات .. وانضبطت على قواعد الصوم المحددة من الأخلاق والتزمت بحدود الصيام وشروطه ليعزز الاتجاه السلوكي نحو الخير .. وأحسست بمعاناة الفقراء وكان دافعا للبذل ورفع رصيد الحسنات .. وعرفت بالامتناع عن غذاء الجسد ما أعاد إليك قيمة النعم التي أطلقها الله لك وحمدت الله عليها.

تلك هي بعض روافد التقوى في هذا الشهر .. ولابد أن هذا البعد يؤكده مجيء تلك الأسرار مرتبطة بكلمة التقوى بطريقة أو بأخرى وكما نرى على النحو التالي:

- **تغذية الروح:**

نجدها في قوله تعالى: (يُنَزِّلُ الْمَلآئِكَةَ بِالْرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُواْ أَنَّهُ لاَ إِلَـــهَ إِلاَّ أَنَاْ فَاتَّقُونِ) [3] جاءت (فاتقون) عقيب الحديث عن نزول الروح التي هي الوحي قال الإمام البيضاوي – رحمه الله – في أنوار التنزيل :" يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ بالوحي

1 – شرح رياض الصالحين (1/ 513) نقلا عن شبكة الألوكة.

2 – رواه مسلم.

3 – [النحل : 2].

أو القرآن، فإنه يحيي به القلوب الميتة بالجهل، أو يقوم في الدين مقام الروح في الجسد" [1] كما جاءت عقيب العبادة بشكل عام (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) [2] والعبادة اتصال مباشر بالروح.

- **الانضباط السلوكي:**

قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً) [3] جمعت بين السلوك اللفظي والتقوى ومثلها آيات أخرى (... فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا) [4] وفي سورة الحجرات ضوابط أخلاقية وردت التقوى في سياقها (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ) [5].

فليس كخوف الله رادع من التخوض في الحرمات وهتك الاستار والتجاسر على الخلق.

- **الانضباط الزمني:**

قال تعالى: (... وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّواْ الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلاَ تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)[6] يتجلى ربط الانضباط الزمني بالتقوى (لعلكم تتقون) من مراعاة حدود الله ومنها ضبط وقت الإمساك (حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود) أي يستبين ضوء الصباح من سواد الليل .. ووقت الإفطار (ثم أتموا الصيام إلى الليل) الذي يبدأ بغروب الشمس، ومن شأن الانضباط التوقيتي والتوقف عند حدود الله أن يقود إلى التقوى، فيصير بين المؤمن وخالقه منهج حياة وضعه الرقيب وراقبه العبد المنيب .

---

1 – أنوار التنزيل وأسرار التأويل في تفسير الآية.

2 – [البقرة: 21].

3 – [الأحزاب : 70].

4 – [النساء: 9].

5 – [الحجرات : 12].

6 – [سُورَةُ البَقَرَةِ: ١٨٧].

- **تحقيق مبدأ الطاعة والاستسلام لله عز وجل:**

وردت آيات كثيرة تقرن الطاعة بالتقوى من ذلك (فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ مَا ٱستَطَعتُم وَٱسمَعُوا وَأَطِيعُوا ...) [1] (...فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)[2] وهاهنا جاء السمع والطاعة بعد التقوى، كأن الإذعان والتسليم التام يأتي مترتبا على تجلي خوف الله ورجائه في قلب المؤمن، إذ يتعذر تصور الإذعان التام بالإخلاص التام بغير التقوى والخشية من الله .. وإنما تنشط طاعة المطيع لمن عرف قدر من يطيع وعظم في عينيه مقامه.

- **غفران الذنوب ورفع الدرجات:**

التقوى مطهرة للصحائف رافعة للدرجات قال تعالى: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِن تَتَّقُواْ اللّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) [3] (... وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً) [4] (...وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ) [5] وآيات أخرى كثيرة.

- **الإنفاق على الفقراء والمحتاجين:**

بدأت السورة الثانية من القرآن الكريم بوصف المتقين بأجل ثلاث صفات منها أنهم ينفقون مما أعطاهم الله: (الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ *الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ) [6] وقال :(فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْراً لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) [7].

---

1 – [سُورَةُ التَّغَابُنِ: ١٦].
2 – [الأنفال : 1].
3 – [الأنفال : 29].
4 – [الطلاق : 5].
5 – [آل عمران : 179].
6 – [البقرة : 3].
7 – [التغابن : 16].

- **نعمة البسط:**

(وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ *أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ *وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ) [1]. اتقوا هذا الرازق الذي أمدكم بعناصر البقاء قدِّروه حق قدره واخشوا عذابه.

- **تحقيق الوحدة الشعورية بين المسلمين:**

قال المولى تعالى: (وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ)[2] أمة واحدة في منهجية الإسلام ونظام الحياة التعبدية ومساقاتها.

ولعل آية (البقرة : 177) هذه الآية العظيمة قد مثلت الغاية المركزية من التقوى فتضمن العقيدة والعبادة والشريعة والسلوك، مما يشير إلى أهمية التقوى ومركزيتها في التدين قال تعالى: (لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَـكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَـئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ).

---

1 - [الشعراء :132- 134].

2 - [المؤمنون : 52].

بين الأعياد الدينية والأعياد القومية

لماذا لم يحتفل رسول الله صلى الله عليه وسلم بالانتصارات العسكرية وشرع عيد الفطر وعيد الأضحى؟

لم يُقِم رسول الله عليه الصلاة والسلام مناسبة احتفالية سنوية لأي انتصار عسكري، ولا المسلمون من بعده فعلوا ذلك على كثرة الانتصارات التاريخية الكبرى التي شكلت انعطافات حاسمة لصالح تمكين الإسلام والمسلمين، لم توزع الأنواط والنياشين والرتب العسكرية التي تخلد أمجاد الأبطال المحاربين .. بل لم يقم رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكرى احتفالية سنوية لا بذكرى نزول الوحي .. ولا بذكرى الهجرة .. ولا بذكرى ميلاده .. لماذا؟

جواب ذلك: هو أن كل ما سبق وسائل لغاية مهمة ونتيجة نهائية هي خلاصة كل الرسالات .. تلك الغاية هي دخول العباد الجنة ونجاتهم من النار والغاية أهم من الوسيلة .. لذلك جاء عيد الفطر وعيد الأضحى مرتبطين بهذه الغاية المحورية ارتباطا بمعاني الفوز الحقيقي، وبكمال الإنسانية في امتداد وجودها وعدم وجود العدم في ثقافة المؤمن .. بخلاف الأعياد القومية التي هي مرتبطة إما بأمجاد أشخاص، أو بالصراع على الدنيا وتحقيق الغلبة فيها .. وهذه معان تعكس التنافي لا علاقة لها بالقيم الإنسانية العليا .. حتى وإن قيل إن في بعضها رمزية تحررية من ظلم الإنسان لأخيه الإنسان، إلا أنها باقية في إطار التدافع الدنيوي والإلغاء الوجودي بين الناس، وهذا سر عدم وجود أعياد في الإسلام مرتبط بالانتصارات، لأنها لا تمثل قيمة في ذاتها بل فيما تفضي إليه من خير الإنسان.

من هنا ففي عيدي المسلمين ذكرى فرح متجدد بظفر ملايين من العباد بهدية الغفران التام والنجاة من النار واستحقاق دخول الجنة، العيد بتجديد ولادة حياة جديدة حيث تطلع عليهم شمس يوم العيد على غير أهل الكبائر، وهم أنقياء من الخطايا كيوم ولدتهم أمهاتهم؛ بعد أن اجتهدوا في صومهم وحجهم واستلموا من الله الهدايا السنية والهبات العلية .. فمن صام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه .. ومن قام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه .. ومن قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه هذا بالنسبة لعيد الفطر .. وعيد الأضحى كذلك مرتبط بهذه المعاني وهي خروج مئات الآلاف من حجهم أنقياء

من الذنوب كيوم ولدتهم أمهاتهم قال صلى الله عليه وسلم: «مَنْ حَجَّ هَذَا الْبَيْتَ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»[1].

وفي يوم عيد الأضحى (يوم النحر) أتم الله النعمة باكتمال الدين، فتعددت موجبات الفرح، ومظاهر الاحتفاء، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رجلا من اليهود قال له: يا أمير المؤمنين آية في كتابكم تقرؤونها، لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيدا، قال: أي آية؟ قال: (... الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً ...)[2] قال عمر: قد عرفنا ذلك اليوم، والمكان الذي نزلت فيه على النبي – صلى الله عليه وسلم –، وهو قائم بعرفة، يوم جمعة[3].

فأي نعمة، وأي فضل، وأي هبة ربانية أعظم وأجل من دين يمثل مكنونات الإنسان الفطرية، به يعرف المؤمن خالقه ويعرف نفسه، ومنه يخرج بتلك الطاعات التي تجعله صحيفة بيضاء، وقد تحلل من أدران الذنوب والمعاصي: (قُلْ بِفَضْلِ اللّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ) خير من متاع الدنيا الزائل، فمن لقي السعادة الأبدية ماذا فقد؟ ومن فقدها ماذا وجد؟ إن الخسارة كل الخسارة أن يخسر الإنسان نفسه ويدحرجها في جهنم (... قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ)[4] إنه ليس مقتنى يمكن تعويضه ولا عرضا يمكن الاستغناء عنه، إنه النفس نفسها .. لذلك كانت سعادة العيد وفرح العيد بتلك المعاني الجليلة المتجلية.

ثم إن مظاهر الاحتفال بالعيدين عند المسلمين أيضا مليئة بالمعاني الإنسانية، فهي تبدأ بالصلاة للاتصال بالخالق وتنتهي بالصلة للاتصال بالمخلوقين، من زيارة الأرحام وصلتهم وبرهم وتفقد أوضاعهم .. ويمر بنشر السلام بين المجتمع ونشر السعادة بتبادل التهاني وتجديد مظاهر الفرح والتوقف عن الخصومات والمشاحنات .. أعياد كلها رحمة وسكينة ومواساة وإيثار .. لا أعياد صخب، وفسوق، ومجون، وتضخيم الأنا كما هي أحوال أعياد الدنيا.

ولسوء الحظ هناك من المسلمين من ابتدع أعيادا دينية، فاستحسن ما لم يحسنه رسول الله، واستكمل ما ظن أنه خفي على الله ورسوله، مثل (عيد الميلاد النبوي) ولو كان احتفاء لكان معقولا ومقبولا، أما أن يسمى عيدا وتنفق فيه الميزانيات الضخمة فذلك ابتداع في الدين

---

1 – رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

2 – [المائدة : 3].

3 – مختصر البخاري برقم (34).

4 – [الزمر : 15].

ما لم يأذن به الله، إنهم يستدلون بقياسات فاسدة وهي أن الناس يحتفلون بأشياء تافهة وهذا رسول الله، ولا يفرقون بين ما هو من شؤون الدنيا وماهو من شؤون الدين، فالأصل في الدنيا الإباحة حتى يأتي دليل يحرمه والأصل في الدين التوقيف عن الله ورسوله (أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ ...) [1] ويستدلون بقوله تعالى: (قُلْ بِفَضْلِ اللّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ) فلم يكن رسول الله رحمة إلا بارتباطه بالرسالة لا بذاته، وربما كان أوفق أن يحتفى بميلاد محمد النبي لا بميلاد محمد الإنسان، فقد كان قبل الوحي ضالا فهداه الله، لا يدري ما الكتاب ولا الإيمان، (... وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ) [2] وإنما علت مراتب الأنبياء بالمهمة الرسالية التي أسندت إليهم، (قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاَتِي وَبِكَلاَمِي ...) [3] فالاحتفاء بمحمد المقترن بالدين أشرف من الاحتفال بمحمد المقترن بالطين إن كان ما من بُدٍّ، ولا نكاد نجد آية واحدة فيها إشارة إلى مولده، مقابل عشرات الآيات تشير إلى مبعثه، وللأسف يحرص على المعنى الأخير غالبا المنتسبون إلى الهاشمية، من الشيعة والصوفية؛ لأن تعظيم ذات النبي يرون فيه تعظيما لذاتهم أدركوا ذلك أم لم يدركوا.

إن المبالغة في شخصنة الرسالة المحمدية لجدير بأن يحرف التصورات، فقد وجدنا أن من المبتهجين من يشعرون وكأنهم قد أقاموا (بعيد الميلاد) الدين، واتبعوا سيد المرسلين، وما ضرهم ما فعلوا بعد ذلك .. ويصغر في أعينهم من لم يجاريهم في هذا الابتداع ويسمهم البعض منافقين، على ما في عيدهم هذا من مخالفات شرعية لا تعد ولا تحصى، وإنما تكمن عظمة الإسلام في جانب منه مسألة التجرد عن الأشخاص، بخلاف دين كالمسيحية التي يبدأ الاهتمام وينتهي بالمخلوق، فإذا جاريناهم تساوينا معهم .. ثم إن التساهل قد فتح الباب على أعياد كلها باسم الله مثل عيد الغدير (الولاية) وفي بعض الأقطار تجاوزت عدد شهور السنة.

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يسن إلا عيدين ارتبطا بشعائر الله .. فإن كان احتفاء كأي مناسبة مثل حلول رمضان، أو ذكرى غزوة بدر أو ليلة القدر ونحو ذلك فلابأس به إن شاء الله ولا اعتراض.

1 – [الشورى : 21].

2 – [يوسف : 3].

3 – [الأعراف : 144].

أساطير عذبت الإنسانية

قال صبري الدمرداش – رحمه الله – كان إبليس في الفيزياء حمارا عندما ظن بامتناعه السجود لآدم – عليه السلام – أنه يحتفظ لنفسه بمقام الخصوصية .. لما رأى أن أصل آدم من طين في حين هو من نار .. وقال الدمرداش إنه لافرق بين النار والطين فكلاهما طاقة، غير أن النار طاقة محررة، والطين طاقة مقيدة، ممكن أن تتحول بحرارة فرنية إلى نار مشتعلة .. وهل كان البترول والغاز إلا مواد عضوية؟ وهل أصل المواد العضوية إلا تراب ثم تحول إلى نار؟ .. فالتراب طاقة .. وإذا كان إبليس قد وقع في وهم الفرق بين أصل جوهر خلق الجن والإنس، فإن من البشر من وقعوا أيضا ضحية هذا الوهم .. أي الفرق بين بعضهم البعض في طبيعة الخلق ولكن من دون دليل ظاهر قابل للمحاججة.

والتاريخ يعج بظاهرة انحراف التصور في التفاوت الخَلقي الذي قاد إلى مآس إنسانية جمة .. وكأمثلة بسيطة، ففي الديانة الهندوسية تم تقسيم الناس إلى خمس طبقات .. ترى أن أجلَّها وأكرمها هي طبقة (البراهمة) الطبقة البيضاء .. إذ يرون ولا يزالون "أنهم بشر خلقهم الإله (كريشنا) من جوهر رأسه، فهم بذلك أشرف البشر لكونهم من أشرف جزء من زعيم الآلهة .. وكل من سواهم حرس وخدم وعبيد لهم"[1] أما الطبقة الخامسة فهي الطبقة السوداء سموهم الأنجاس (باريان) وهم أصحاب الحرف الدنيا" هؤلاء لايحق لهم مجالسة الطبقات العليا، فضلا عن أن تقبل غيرهم من الطبقات بالعيش معهم أو مصاهرتهم .. واستمر هذا حتى جاءت القوانين الهندية وألغت الطبقية.

وكان يعد ملك فارس الشاهنشاة (ملك الملوك) .. سليل سدنة الآلهة في مقام الرب .. ثم يليه طبقة النبلاء يليهم المحاربون .. والمحاربون في أيام السلم يتحولون إلى عبيد وسخرة تابعين لطبقة النبلاء .. وكانت الفواصل الطبقية صارمة، والاستعباد قائما في كل شيء حتى جاء الإسلام وأنهى هذا التفاوت الزرادشتي.

---

1 – ينظر موسوعة الوكيبيديا الالكترونية.

وفي الفكر التلمودي اُخترعت كذبة تفوق العرق اليهودي كونهم شعب الله المختار .. وأن الله خلق غيرهم عبيدا لهم (جوييم) ولهم الحق في التصرف بحياة عبيدهم وأموالهم وكل ما عنَّ لهذا الشعب الخاص.

وفي ألمانيا النازية 1933- 1945م فُرض حظر الزواج من خارج العرق الآري، وصار هذا جزءا من القوانين التي سُنت في (نورمبرغ) على أيدي النازيين في ألمانيا .. وكان هتلر يرى أن الدم الآري هو أرقى وأنقى من غيره من الدماء .. وكان من أسباب اضطهاده اليهود أنهم ساميون أي من أحفاد سام ابن نوح .. أما دين الإسلام فقد جاء وأعلى من مكانة الإنسان بشكل عام من غير فرق في الجنس أو اللون .. وأي قيمة إضافية زائدة على أصل الخلق فمردها إلى التزام المخلوق بما كلفه به الخالق .. ولو كان العنصر التكويني هو معيار التكريم لقلنا إن الملائكة كانت الأحق بالادعاء من إبليس بالأفضلية .. فهي مخلوقة من نور، والنور عنصر سماوي .. لكن الله كرم الإنسان لسر آخر لا علاقة له بأصل العنصر التركيبي .. ذلك السر هو مهمة العبودية لله في ظرف إنساني خاص .. وهو إحاطته بالابتلاء والامتحان .. لذلك كرمه فقال: (ولقد كرمنا بني آدم) [1] فالإنسان كنوع تركيبي ومهمة رسالية فضَّله الله بذلك على كثير ممن خلق .. ونفخ فيه من روحه .. وأسجد له ملائكته .. وجعله خليفته في أرضه .. وجعله سيدا على الكون .. ولم توجد سوى صيغة واحدة هي الـــ(أتقى) صيغة تفضيل فمن كان الأتقى هو الأكرم عند الله، هذه الصيغة حسمت الجدل وهدمت النظريات الرغبية فهي غير متصلة بعرق، ولا لون بل متصلة بجامع الإنسانية: (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) [2] فالخطاب موجه لجميع الناس، الذين ينحدرون من أصل واحد، وأب واحد، وأم واحدة، والتفاضل في التقوى متحصلة لجميع الناس .. بلا استثناء (يا أيها الناس اتقوا ربكم) دعوة الناس جميعا للتقوى .. ويتكرر ربط صفة الأكرم بأصل الخلق الجامع (الذي خلقكم من نفس واحدة) وكما قال النبي – صلى الله عليه وعلى آله وسلم– في خطبة الوداع:" يا أيها الناس ألا

1- [الإسراء:70].

2- [الحجرات:13].

إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى" وقال:"لَيدعنَّ رجال فخرهم بأقوام إنما هم فحْمٌ من فحم جهنم أو ليكونُنَّ أهون على الله من الجعلان التي تدفع بأنفها النتن .. إن الله قد أذهب عنكم عيبة الجاهلية وفخرها بالإباء مؤمن تقي وفاجر شقي، كلكم لآدم وآدم من تراب" [1] والأنبياء لم يتميزوا عن غيرهم بالعنصر .. ولا بما يسمى بالنطفة النورانية المنتقلة في أصلاب الأرحام هذه خرافات ووثنيات غزت المسلمين، وإنما ميز الله الأنبياء عن غيرهم بمهمة تلقي الوحي من السماء (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي) [2] قال (بشر) كيف بشر؟ قال (مثلكم) أي غير متميز بشيء عن بقية البشر إلا أنه (يوحى إلي) فقط لاغير.

إن العنصرية حالة مرضية تعطي الشعور الزائف بالتفوق على الآخر .. إنها وصفة مخدرة تضع صاحبها في حالة من الإنتشاء الوهمي .. ومتى أراد تغذية هذا الشعور عمد إلى احتقار الآخر، والتمتع بالتأفف منهم .. كما كان العنصريون البيض في أمريكا يفعلون مع السود كأن يكتبوا على محلاتهم (يمنع دخول الكلاب والسود) وإنما هي حالة مرضية يريد الفرد بها أن يرفع من نفسه بتقزيم غيره .. ويشبع مرض السادية بجرح مشاعره .. وبسبب هذا المرض فقد رضي إبليس بجهنم عن أن يقبل بموقف فيه تنازل لمن يراه أدنى مكانة منه؛ لأن التواضع عنده انتقاص لمكانة التفوق التي وضع نفسه فيها وصارت حقا من حقوقه، والتنازل عنها سيحرمه الاستمتاع بهذا الوهم المريح: (قال أنا خير منه) .. لقد صارت جهنم نفسها خيارا مُرضيا .. إنه الجنون؛ لذلك أول درس للمتكبرين يوم القيامة أن الله يحشرهم أحقر من الذر تطؤهم الخلائق بأقدامها .. فالكبرياء صفة لا ينبغي أن تكون لغير الخالق وقد جاء في الحديث القدسي " الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحدا منهما أدخلته ناري"[3] .. إذ إن ادعاء التفوق ضرب من ضروب الشرك، فسيعني أن هناك أوسع قدرات وأقل قدرات، ومن حق الأقل أن يطلب قضاء الحوائج لا من الله بل من القريب المتفوق عليه

---

1 – رواه أبو داود والإمام أحمد.

2– [الكهف:110].

3– رواه أبو داود وغيره.

في أصل العنصر؛ لأنه أقدر على فهمه وهذا ما بات يحدث فعلا بين أهل ديانة التوحيد، فكثرت الشعوذات باسم العِرق الأرقى والدم الأنقى، وحاشا لله أن يجعل له شريكا في العظمة وندا في العبودية.

رابعا- تأملات في التسخير

شؤون الدنيا وعمارتها في القرآن الكريم (1-4)

السعي في الأرض والملك:

يقول ربنا: (... هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلأَرضِ واستَعمَرَكُم فِيهَا ...) [1] بالتأمل في ظلال الآية الكريمة سنجد أن الله طلب من الإنسان عمارة الأرض، والسين في (استعمركم) للطلب، وهذا مقتضى من مقتضيات الاستخلاف المذكور في قوله: (إني جاعل في الأرض خليفة).

ومما يدعو إلى التوقف عنده في سياق الحديث عن عمارة الدنيا هو ذلك التخليد القرآني لصرح سليمان الممرد .. والصرح بمعنى القصر المرتفع (وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ)[2] وكذا تسجيل القرآن للحظة نطق ملكة سبأ بالإسلام وهي تشاهد عظمة ذلك البناء الإعجازي وفخامته، وفي ذلك العديد من الإشارات منها:

- أن عمارة الدنيا والتجمل فيها مشروع في الدين، وإلا لزهّد سليمان الدنيا في عين ملكة أوتيت من كل شيء.
- أن صلاح الفرد ليس باعتزال الدنيا، فهذا نبي يبني هذا القصر الفريد بل ويدعو الله أن يهبه ملكا لا ينبغي لأحد من بعده، فيستجيب الله دعاءه.
- أن صلاح الدنيا أو فسادها قد يراه الكثير من الناس انعكاسا لصلاح الدين، وهذا ما جعل بلقيس تعلن إسلامها لحظة مشاهدة ذلك الرقي الدنيوي المدهش .. وهذا الربط بين الدنيا والدين يتكرر سلبا أو إيجابا في كل زمان ومكان.

وإلى جانب العمارة سنجد الدعوة إدارة شؤون الأرض، والتحكم في مذخوراتها، ومواجهة احتياجات الحياة التي تتعدى تأمين عناصر البقاء فيها، إلى توفير أسباب السعادة والرفاه .. نجده في مجمل الشواهد القرآنية المتضافرة .. فلم يهتم الإسلام فقط بمنظوم العلاقات الإنسانية، والتشريع المدني، والحقوق والواجبات، بل وبالجوانب المادية كالعمارة كما سبق وبالغذاء .. والصحة .. والتجارة ..

---

1 - [هود:61].

2 - [غافر : 36].

والصناعة .. والسياحة .. والزينة .. وغير ذلك كما تجد في تناولنا لها على النحو التالي:

1- التسخير والسعي في الأرض:

جعل الله الإنسان سيدا على الكون كما نجد في قوله : (وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ ...)[1] فمقاليد الكون وما فيه من مكنونات ونواميس (جميعا) مسخرة للإنسان .. وبدأ المولى بذكر ما هو بعيد وهي (السماوات) قبل القريب (الأرض) لتأكيد شمولية التسخير، وبهذا الإطلاق استطاع الإنسان تسخير السماء لرحلات الطائرات والأقمار الصناعية وغير ذلك من المنافع.

وقال: (أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ...)[2] وهذا التسخير الذي بمعنى التذليل، والتيسير، والانتفاع قائم على معادلة نجدها في هذا المأثور "عبدي خلقتك لنفسي وخلقت كل شيء لك" .. فكما أطلق الله يد الإنسان في الكون لصالح نفعه، فالإنسان وهدف وجوده هو بيد الله: (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) .. وهذه مجال حديث آخر.

ثم حث الإنسان إلى جانب ذلك على السعي في الأرض فمن ظن أن الدنيا لمجرد العبادة فقد قال: (فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ...)[3] وقال: (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ)[4] والعمل بمضمون هذه الآيات ائتمار المخلوق لأمر الخالق وذلك عبادة.

وقد جعل النبي صلى الله عليه وسلم السعي في الأرض جهادا في سبيل الله، فحين عجب الصحابة من همة رجل في السعي وقالوا لو كان ذلك في سبيل الله! فقال:" إنْ كان خرجَ يَسعى على ولَدِهِ صِغارًا فهوَ في سبيلِ اللهِ، وإنْ كان خرجَ يَسعى على أبويْنِ شيْخيْنِ كبيريْنِ، فهوَ في سبيلِ اللهِ، وإنْ كان خرجَ يَسعى على نفسِهِ يَعِفُّها

1 - [الجاثية : 13].
2 - [لقمان : 20].
3 - [الجمعة : 10].
4 - [الملك : 15].

فهوَ في سبيلِ اللهِ .. "[1]. وليس ترك الدنيا باسم الزهد عبادة، فالزهد في الإسلام طاعة قلبية أكثر منها حسية، بحيث يجعل المؤمن دنياه في يده لا في قلبه، يصرّفُها هو لا تُصرّفه هي، يأخذ الشيء من حِلّه ويضعه في مَحله، ولا يجعل الدنيا أكبر همه ولا غاية رغبته تلك هي كل القصة، وليبلغ بعد ذلك في ملكه وتنعمه ما شاء.

وقد ذم الإسلام التنطع في الدين وتحريم ما أحل الله من الطيبات قال الله .. (قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَاماً وَحَلاَلاً قُلْ آللّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللّهِ تَفْتَرُونَ)[2] نزلت الآية في قريش التي ابتكرت قوانين حرمت من الأنعام ما لم يأذن به الله كالبحيرة والوصيلة والسائبة والحامي .. والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .. ويسأل المولى بطريق الإنكار على من حرم زينة الله التي أخرج لعباده : (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) [3] تحدث عن الزينة وأضافها إليه (زينة الله) ثم لنتأمل في قوله: (هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا) لا نبعد عن لب القصد إن قلنا إن المؤمنين في الأصل أحق بالدنيا من غيرهم، غير أن الوضع استمر معكوسا، غير المؤمنين فهموا أن الحياة فرصة لا تتكرر، فتفانوا في استنفاد طاقاتها المتُعية قبل ذهابهم عنها، وأفلحوا بهذا الدافع الدنيوي، وفهم بعض المسلمين أن الدنيا مجرد عبور للحياة الباقية فطرحوها عن انشغالاتهم، وظنوا أن الكياسة في تركها والفصاحة في ذمها، وهذا محض خطأ، وتجافي عن صحيح الدين، ولو علموا أن عمارة الأرض جزء من العبادة لكان دافعهم أكبر من غيرهم، وللأسف أن هذا الانحراف في الفهم كان أحد أسباب تراجع المسلمين وتخلفهم.

2- المُلك:

لم يُزهّد الإسلام في الملك وإدارة شؤون الحياة، كيف والله يمتنُّ على داود عليه السلام أن آتاه الملك والحكمة فقال: (.. .وَآتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ ...)[4]. وقال:

---

1 - (الألباني صحيح الجامع ١٤٢٨).

2 - [يونس : 59].

3 - [الأعراف : 32].

4 - [البقرة : 251].

(وشددنا ملكه ...) وبعث طالوت ملكا لبني إسرائيل فقال: (وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً ...)[1].

ووعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالاستخلاف في الأرض: (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ...)[2] وهنا وطبقا لهذه الآية لا يفوتني أن ألفت عناية القارئ إلى تلازم الإيمان بالعمل الصالح، كشرط سابق لهذا الاستخلاف، والذي غفل عنه الكثير ممن ينتظرون هذا المآل، فلا بد قبل السعي للاستخلاف توفر الإيمان متلازما بالعمل الصالح .. والعمل الصالح هو كل ما فيه صلاح الدنيا وصلاح الآخرة، وليس فقط صلاح الآخرة لأنه مطلق، فمتى نهضوا بأعباء الدنيا كما نهضوا بأعباء الآخرة وكانوا أعضاء فاعلين في بناء أمتهم وتنميتها تحقق قيد الآية، وهذا نبي الله يوسف عندما وجد حاجة الناس إليه عرض نفسه على الإدارة لخدمتهم: (قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ)[3] وكان هذا هو طلب يوسف الوحيد من عزيز مصر، فقبل الحديث عن جمال الدين مجردا ذوّق الناس جماله في الاعتناء بدنياهم، فكثير من الناس يؤمن بمعدته قبل قلبه وتلك طبيعة الحياة.

1 – [البقرة : 247].

2 – [النور : 55].

3 – [يوسف : 55].

شؤون الدنيا وعمارتها في القرآن الكريم (2-4)

2- الأمن الغذائي:

لم يترك الله عباده في متاهات الخوف من الرزق، فيأخذ الذي له من حق الشكر والطاعة على نعمة الإيجاد والإرشاد والإمداد، ويتركهم يواجهون النعم الكسبية دون أن يتعهد لهم بتأمينها، مع أن النعم الكسبية مقدور عليها، ولكن رحمة منه وإبراز اهتمام الإسلام بحياة الناس وغذائهم وأنه ليس مجرد تنسك ورهبانية، نجد التأكيد العجيب في القرآن الكريم على ضمان رزق العباد بأكثر من صيغة ووجه، مع الحث على ابتغاء الرزق وطلبه هذا من ناحية .. ومن ناحية ثانية نجد ربطا عجيبا متكررا بين العبادة والرزق .. بين نعم الله وموجبات الشكر.

أما المظهر الأول وهو الأمن الغذائي فيتجلى في صورتين عامة وخاصة، فمن الأولى قول ربنا : (وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللّهِ رِزْقُهَا ...) [1] فإذا كان رزق ما هو دون مقام الإنسان وهو كل ما دب على الأرض مكفول، فمن باب أولى رزق من فضله الله على كثير ممن خلق، قال تعالى: (... وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ ...) [2]وغير ذلك كثير من الآيات .

ونجد من الضمانات الخاصة أن الله تعهد بالأمن الغذائي لمن لم يولد بعد، جاء في سورة الإسراء : (وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم ...) [3]فقد يلجأ الأب إلى التخلص من ولده الذي لم يظهر بعد خوفا عليه من الفقر، وتأكيدا على هذه الحقيقة بدأ بالأولاد فقال: (نحن نرزقهم) ثم قال: (وإياكم) .. ولئن كان خوف الآباء على حظوظهم بعد وجود الأبناء، فإن صيغة الضمانة الإلهية ستختلف لتقدم رزق الآباء على أبنائهم تأكيدا في الرعاية وتطمينا لهم فقال في سورة الأنعام:151 (... وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إِمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ...)بدأ ب(نرزقكم) ثم قال (وإياهم).

---

1 - [هود : 6].

2 - [البقرة : 22].

3 - [الإسراء : 31].

وهنا استنتاج مهم، وهو أن تأسيس مفهوم ضمان الرزق في الإسلام لَهو دعوة صريحة للبحث عن هذا الرزق في الأرض أين هو؟ وبذل الطاقة والوسع لاكتشاف خزائن الله أين أودعها؟ وفيه تحميل الإنسان مسؤولية التقاعس عن شيء ضمن الله وجوده، ولا يعني الأمن الغذائي أنه سيأتي هو ليبحث عن الإنسان، فلايزال جزءا من عبادة الله العمل بقانون التسخير وهو القيام بما هو من واجب الإنسان، الذي غفل عنه الكثير من الناس وبخاصة أبناء هذا الدين.

ومن بواعث العجب أن نجد الحث على السعي وابتغاء الرزق بصيغة الأمر، وفيه من الحث والترغيب ما فيه، ولقد ذكر الله كلمة "تبتغوا من فضله" وما في حكمها (8) مرات، والتي تعني البحث عن سبل العيش، ونجد من صيغ الأمر (سيروا في الأرض) (فامشوا في مناكبها) (فانتشروا في الأرض) (وقل اعملوا ...) (فابتغوا عند الله الرزق ...) وقوله: (كلوا من طيبات ما رزقناكم ...) (ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم ...)(كلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا ...).

وهكذا نجد سيلا من الأوامر التي تفيد ما هو أكثر من الإباحة وهي تعاطي الحياة والإقبال على ما أودع الله فيها والتنعم بخيراتها من نحو: سيروا .. امشوا .. انتشروا .. اعملوا .. ابتغوا .. كلوا .. والأمر وحده (كلوا) تكرر في القرآن 29 مرة .. إنها دعوة لاستغلال مكنونات ما أودع الله وإلا لماذا ولمن خلقها؟ وإن الله ليذكر فضائل نعمه ويذكر ألوان الطعام في سورتي عبس والنازعات ثم يختمها بقوله: (متاعا لكم ولأنعامكم) فلم يخلق عبثا بل أودعه للناس .. فالسعي في الدنيا دعوة ربانية ومقصد من مقاصد الشرع، وإن هجرها مخالف للدين لا يحبذه ولا يدعو إليه.

- **ربط الدنيا بالدين:**

وما أكثر أن تجد الآيات السابقة قد انتهت بالدعوة إلى شكر الله الذي بسط النعم وأوجد عناصر البقاء (وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان) وسنجد الكثير من شواهد ربط العبادة بالرزق من ذلك أن المؤمن كل يوم في صلاته وفي لقائه بخالقه يكرر هذا التلازم: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)[1] فمثلما نعبدك يا ربنا نستعين بك في قضاء حوائجنا.

---

1 - [الفاتحة : 5].

ولما أمر الله قريشا أن تعبده جعل أمره مسببا بالأمن الغذائي، فقال: (فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ) [1].

واستمر هذا التلازم بشكل ملفت، فإذا كان الإنسان عبد الإحسان فالله قد أكمل نعمه عليه فأين موجبات الطاعة؟: (فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً * يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَاراً * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَاراً)[2] (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ...)[3] (.. .وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ...)[4].

ولا بد أن ربط عبادة الله وشكره بنعم الله في الدنيا وطيباتها له دلالته التي لاتخفى، وهي أن التنعم بالدنيا هي عند الله بدرجة من الأهمية بحيث تستحق من العباد الطاعة والشكر، وأنت لا تنتظر من أحد شكرا على شيء إلا على شيء له قيمة عندك واعتبار، لا على شيء حقير لا يعبأ له، وفي هذا كفاية للرد على الظانين في الدنيا ظن السوء، فالله ما أودع فيها ما أودع إلا تسخيرا منه لعباده.

ولقد كان يكفي ما حبا الله الإنسان من أجهزة إعجازية وما زود الأرض من نواميس تحفظ الحياة وتضمن استمرارها ليطلب الله من عباده حق الطاعة والشكر، كون مسألة تحصيل الرزق مما هو مقدور عليه كما سبق، وهاهم الكفار يسبقون المؤمنين بكسب رزقهم بدون توجيهات سماوية، لكن لأن إدارة عجلة الحياة والسعي فيها له في الدين اعتباره فقد ربطها بأجل أعمال الإنسان وهي العبادة .. فهلا عمل أتباع هذا الدين العملي بتوجيهات ربهم؟ وأخذوا بشواهد القرآن التي ترغِّب في السعي في الأرض والتّنعُّم بطيباتها.

وإن المولى تعالى ليعطينا درسا عجيبا بمريم ابنة عمران عليها السلام التي أنذرت أمها أن تخلصها لعبادة الله وحسب، ولما كان الوفاء بالنذر من الدين، تبتّلت وحبست نفسها لذلك، لكن الشيء العجيب أن الله يأتي لها بنعمه إلى المحراب فيأتي لها بفواكه في غير أوانها: (... فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَـذَا قَالَتْ هُوَ

1 – [قريش :3– 4].
2 – [نوح :10– 12].
3 – [الأعراف : 96].
4 – [الطلاق : 2– 3].

مِنْ عِندِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ) [1] فلم يجعل الله العُدْم وقِلّة ذات اليد وأكل الخشن من الطعام مظهرا من مظاهر تبتلها، لقد كسر هذا الاعتقاد، وأظهر أن التزهد بالتقشف ليس بطاعة؟ مع أنها قد انصرفت عن دنيا الناس وزينتها .. فوق أنها كامرأة لا مطمع لها فيما لا يدركه كثير من الرجال من طيب العيش .. فوق أنها تحت كفالة آخر هو زكريا عليه السلام؟ فهذه الظروف كانت كفيلة بتحقيق الرضا التام بأي شيء يسد جوعها .. لكن تأبى السماء إلا هذا الدرس، فلو قرر أحد التبتل لله عن ظهر غنى فلاينبغي أن يكون معناه هجر الدنيا وازدرائها وتحريم ما أحل الله .. ولأنه درس خاص، لم يأتها رزقها وهي في حالة مخاض، بل أمرت أن تهز إليها بجذع النخلة وتشارك في العمل.

وهنا أكرر المعادلة التي ذكرتها في الحلقة السابقة، وهو أن الله إذ يدعو إلى استغلال ما في الدنيا من طاقات مودعة والتوسع بما قدر عليه المرء من النعم لايعني أنها ستسبق أهمية الآخرة عنده بحال، ولكن ينبغي فهم المعادلة وهو كون الآخرة خير من الأولى لايعني هجر الدنيا بل هو حمق ومخالف لمبدأ الاستخلاف، ولله المثل الأعلى لو أن أحدا أعطاك سكنا ووعدك بمكان أكثر راحة من الذي أنت فيه فهل يكون سببا لإهمالك سكناك وازدراء عطاء المنعم والتأفف منه، وهل ستهجره لتنام على الرصيف لأنك موعود بأفضل منه إن مثل هذا لايفعله العقلاء.

1 – [آل عمران : 37].

شؤون الدنيا وعمارتها في القرآن الكريم (3-4)

3- البناء والزينة والجمال:

قال المولى: (وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاء وَغَوَّاصٍ) [1] سخر الله الشياطين للبناء في حاضرة ملك سليمان عليه السلام .. فماذا كانوا يعملون؟ قال الفخر الرازي – رحمه الله – "يغوصون له في البحار فيستخرجون الجواهر ويتجاوزون ذلك إلى الأعمال، والمهن، وبناء المدن والقصور، واختراع الصنائع العجيبة، كما قال: (يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ ...)[2]أما الصناعات فكاتخاذ الحمام والنورة والطواحين والقوارير والصابون"[3].

إن القرآن ليتحدث عن دنيا اثنين من أعظم الأنبياء بالطريقة التي تزيل تلك الصورة النمطية عن المصلحين أنهم أولئك السائحون في الأرض يحذرون الناس من الدنيا، ويلبسون الثياب الخَلِق .. ويأكلون الطعام الخشن .. وصحيح أنهم أكثر الناس استعدادا لذلك إن ألجاتهم إليها الضرورة، ولكن الصحيح أيضا أن الذي طلب أعظم مُلك هو نبي، فالدنيا ليست واقعة بين الكراهة ومجرد الرخصة، بل بين الندب وحالة الاضطرار.

وإن الله لَيمتنّ على ثمود (قوم صالح) أن جعلهم خلفاء ويسّر لهم بناء القصور، في السهول ونحْت البيوت في الصخور فقال:(وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً ...)[4]

فجعل الله بناء القصور ونحت البيوت العجيبة من نعمه التي تستوجب الشكر، لذلك قال في ختام الآية: (فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين).

وفي سورة الشعراء تشير الآية (149) إلى أن بيوت قوم صالح لم تكن بيوتا عادية، بل فيها تكلُّف الجمال، قال: (وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهِينَ) [1]قال

---

1 – [صـــ : 37].

2 – [سبأ : 13].

3 – (مفاتيح الغيب 22/169).

4 – [الأعراف : 74].

البيضاوي رحمه الله (فارهين) "حاذقين من الفراهة وهي النشاط فإن الحاذق يعمل بنشاط وطيب قلب"[2] والنحات في الجبال الحاذق النشط لايبحث عن مجرد مأوى يكنه من حر الصيف، وقرّ الشتاء في متون الجبال، بل إنه يستعرض حذاقته وقدرته في تطويع الطبيعة، وتشكيلها على النحو الذي يعكس المهارة والإبداع، وحتى الآن لاتزال آثار بيوت مدائن صالح تحكي قصة حياة حافلة بالرخاء والعظمة.

ولعل هذه الإشارات الفنية في بيوت ثمود تعزز من تفسر البعد الجمالي الذي تضمنته الآية (27) من سورة فاطر وهي قول الله: (... ومن الجبال جُدَدٌ بيض وحُمْر مختلف ألوانها وغَرابيبُ سود) (جدد): أي، طُرق، أو طرائق (غرابيب) مأخوذة من كلمة غُراب أي شديدة السواد، وقد توقف المفسرون عند هذه الإشارات الفنية وقالوا بظاهر معناها، وهي أن الله جعل الجبال طرقا بألوان مختلفة، ولعلهم معذورون، فمن يسكن الجبال وحده كاليمن سيدرك أن جماليات ألوان الجبال هذه وطرائق بديعها تتصل بالعمران وتجميلها، فلقد كشفت الجبال عن محاجر ملونة غاية في الروعة والجمال، فأخذ الميسورون يزينون بيوتهم بألوان الصخور المختلفة من أبيض، وأحمر، وأخضر، وأسود، فيعكس البناء تشكيلا طبيعيا مبهرا، لتكون هذه التشكيلة هبة إلهية لا يعرف سحر جمالها إلا من عاشها.

إذن فالجمال، والزينة، والتزين، وتجديد الحياة دعوة إلهية متعددة الاتجاهات للتمتع بها، وقد تكررت كلمة (الزينة) التي تعني الجمال (21) مرة في كتاب الله العزيز، وقد لاحظنا حضور الزينة في ملك سليمان منها صناعة التماثيل في شرع من قبلنا، وكان من مهام الشياطين استخراج اللؤلؤ من البحر قال: (والشياطين كل بناء وغواص) (وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِين) [3]إنه الغوص لاستخراج حلية البحر للبسها والتزين بها كجزء من نعم الله على الإنسان قال: (.. .وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ...) [4].

---

1 – [الشعراء : 149].

2 – (أنوار التنزيل 4/147).

3 – [الأنبياء : 82].

4 – [النحل : 14].

وذكر المولى أنه سخر المراكب ليس لمجرد الركوب عليها بل وزينة (وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ) [1] وبهذه الزينة يظهر الجمال (وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ) [2] وبدأ ربنا تعالى بالخيل لأن جمال الركوب عليه أظهر، وقوله: (ويخلق ما لا تعلمون) خطاب لمن سبق من أمة محمد صلى الله عليه وسلم بأنه سيكون من الزينة وسائل المواصلات الحديثة، التي علَت من كرامة الإنسان على الأرض، وزينت حياته بجماليات إبداع مدهشة وغير مسبوقة، وذلك بفضل ما حباه الخالق من قدرة على تطويع الأرض وتسخير إمكاناتها.

وفي الإسلام تجد حديث الزينة تشمل ما حول الإنسان ومنها غلاف السماء، قال الصانع الحكيم: (وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاء بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ) [3] فليست مهمة السماء لتتوقف عند إمداد الأرض بعناصر البقاء وحسب، بل وبجمال المنظر الذي يبهج الناظرين ..

وفي الإسلام أيضا تحضر الزينة في العبادة .. فبينما المؤمن في إدبار عن الدنيا وإقبال على الله ينادي الله: (يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ...) [4] قال جمهور المفسرين المراد اللباس الذي يستر العورة عند الصلاة؛ لأن الجاهليين كانوا يطوفون بالكعبة عرايا، إلا أن لأبي حيان رأيا آخر قال: "والذي يظهر أن الزينة هو ما يُتجمل به ويُتزين عند الصلاة، ولايدخل فيه ما يستر العورة لأن ذلك مأمور به مطلقا"[5] فهي إذن الشامة التي يحب الإسلام أن يظهر عليها المسلم في كل حياته حتى وهو منقطع لخالقه.

ومن المثير المدهش أيضا أن يكون للألوان في القرآن الكريم في إطار الاهتمام بالزينة مساحة تناول غير عادية، كجزء من الزينة الكفيلة بتجاوز رتابة النمط الواحد .. وهنا لايتحدث القرآن فقط عن اختلاف ألوان الناس كما قال: (وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ...)[6] بل واختلاف ألوان الجبال كما سبق والأنعام، والدواب، والزرع، والشراب، قال: (وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ

1 – [النحل : 8].
2 – [النحل : 6].
3 – [الحجر : 16].
4 – [الأعراف : 31].
5 – (البحر المحيط 5/41)
6 – [الروم : 22].

مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ ...) [1] (... ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ...)[2] (.. .فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا ..) [3](.. .يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ ...)[4] والآية الأشمل: (وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ...)[5].

ولم يحدد ألوانا بعينا في الطبيعة؛ لأنها أكثر من أن تُحد، وإن التشكيلة لتتعدد على مستوى المخلوق الواحد .. فلماذا هذه الألوان؟ إنها لتزيين الحياة فكل ما فتح الإنسان عينه جددها بمناظر جذب وإدهاش جديدة، فتتجدد حياته، وتثير خياله، ويداخله بها السرور، وتلفه البهجة .. وماذا لو كانت الحياة بلون واحد، وجمال واحد، وطعم واحد أي حياة ستكون رتيبة قاسية شديدة الوطء على النفس؟

إن هذا الإبداع في الإيداع تشريع إلهي للناس، وحث على تلوين حياتهم وتزيينها بالمقدور عليه، لغرض الاستمتاع وإدامة السعادة، وشكر المنعم على نعمه، لا للّعب، واللهو، والتفاخر، والتكاثر بين الناس الذي صار هذا هو الهدف منها في الغالب الأعم وذمه الله تعالي في كتابه الكريم.

1 – [فاطر : 28].
2 – [الزمر : 21].
3 – [فاطر : 27].
4 – [النحل : 69].
5 – [النحل : 13].

شؤون الدنيا وعمارتها في القرآن الكريم.(4-4)

4- السياحة:

معنى السياحة: السير في الأرض، قال تعالى: (فَسِيحُواْ فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ...)[1] وقال جل ثناؤه: (التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ ...) [2].

قال الرازي في سياق شرح الآية:" أصل السياحة الاستمرار على الذهاب في الأرض" ونقل عن أبي مسلم قال السائحون السائرون في الأرض" [3] .. وقيل بل المراد بالسائحين في الآية الصائمون؛ لأن فيه سياحة الروح وتجليها، ولكن لا يُصرف المعنى من الحقيقة إلى المجاز إلا بدليل.

ولو بحثنا عن عبادة التفكر والتأمل والاعتبار، لوجدنا أدلتها في كتاب الله تربوا على الحصر، فالسياحة جزء من الشريعة شرعت للتأمل "للنظر في خلق الله وأحوال الشعوب، والأمم للاعتبار والاستبصار، ومعرفة سنن الله تعالى وحكمه وآياته، وهذا ما تدل عليه الآيات المتعددة في الحث على السير في الأرض"[4].

ولقد تحدث القرآن الكريم عن نوعين من السياحة:

-سياحة التأمل الاعتباري (الآثار).

-سياحة التأمل العلمي.

أما سياحة التأمل الاعتباري فقد وردت في إحدى عشرة آية بدلالة قطعية محكمة، كلها تدعو إلى السير في الأرض للنظر في الآثار الدارسة التي تركتها الأقوام السالفة، وبقايا عمرانهم، ومدنهم، وغابر أيامهم، ليعقد السايح بين ما كانوا عليه وما انتهوا إليه بعصيانهم وإهلاكهم، فيتعظ من الوقوف عليها قال تعالى: (أَولم يسيروا في ٱلأرض فينظروا كيف كَانَ

---

1 - [التوبة : 2].

2 - [التوبة : 112].

3 - (مفاتيح الغيب 16/154).

4 - تفسير المنار لمحمد رشيد رضا 11/24).

عَـاقِبَة الذين مِن قَبلهم كَانُوٓاْ أشد مِنهم قوة وَأَثَارُوا الأرض وَعَمَرُوهَآ أَكثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا ...)[1].

غير أن من مواجع جهل بعض المسلمين اليوم بدينهم لا أقول هجرهم لهذه السنة التعبدية، بل تصورهم أن السياحة في الآثار والمدن الدارسة هي تمجيد لآثار الكفار الهالكين، وتعظيم للتماثيل، والمنحوتات، والمصورات التي قد تكون مظنة لتقديسهم .. هذا ما انتهى إليه علم قصيري النظر، وما انتهي إليه فهم محدودي الإدراك، فمتى يعون كتاب ربهم؟ فهذا فرعون الذي كان يدّعي الإلوهية ويُعبد من دون الله يتعهد المولى بأن ينجيه ببدنه .. وليس في شكل تمثال صخري .. بل يترك نسخته الأصلية .. وهو الذي نصب نفسه إلها من دون الله ولم يكن في تركه مظنة للتقديس عند الله .. لماذا ينجيه ببدنه؟ تجيب على ذلك الآية الكريمة: (فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ) [2] فالله أبقى بدن عدوه لمن خلفه آية للاعتبار والتفكر، فكيف صار فهم تعظيم التماثيل راجحا وكلام الله مرجوحا عند هؤلاء؟! وقال تعالى: (فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين) كيف يكنون سلفا ومثلا للآخرين إن طمست آثارهم؟

من هنا فالذين دمروا الآثار في بعض البلدان الإسلامية، إن لم يكونوا جواسيس مجندين ضمن الصراع الحضاري، فهم مجرمون، محاربون للنهج الإسلامي ومقاصده، متنطعون مخالفون للقرآن، ومخالفون لنهج السلف الذين تركوها لمئات السنين، ولم يتعبدوا إلى الله بإفسادها، حتى جاء أحداث الأسنان، سفاه الأحلام في عصرنا الحديث ليقدموا الدين بصورة مشوهة وليقفوا جانبا من غايات الإسلام ومقاصده.

أما السياحة العلمية فنجدها في شواهد من نحو قول الله: (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) [3] وما علاقة السياحة ببدء الخلق وإعادته كما بدأ؟

العلاقة هي في القيام بالبحث الجيولوجي ودراسة بداية تاريخ وجود الكون ومنها كوكبنا الصغير وكيف بدأ .. وعن التوصّل إلى معرفة كيفية ذلك يُسأل علماء الطبيعة الذين أرّخوا لنا بداية نشوء الكون والعلاقة بين نظرية الانفجار العظيم والانسحاق العظيم .. بداية الكون ونهايته وعودته كما كان في بدء الخليقة.

---

1 – [الروم : 9].

2 – [يونس : 92].

3 – [العنكبوت : 20].

- الطب:

أليس من أجل الأدلة وأظهرها على عناية الإسلام بشؤون الحياة وعمارتها أن يجعل الله معجزة أحد أنبيائه الطب؟ .. وأن يجعل الطب ومعالجة الناس إحدى الطرق الموصلة إلى الله؟ .. تلك هي معجزة عيسى عليه السلام، الذي جعله الله مثالا للعناية بالإنسان، يبرئ الأكمه والأبرص، ويحيى الموتى بإذن الله .. ومن جعل على يديه إحياء الموتى لن تعجزه معضلة طبية دون أن يعالجها.

وهذا تشريع يدلنا على مدى اهتمام الإسلام بصحة الناس .. ولقد وجهنا النبي - صلى الله عليه وسلم- إلى التداوي فقال في أحاديث كثيرة صحيحة جاء منها بما معناه :تداووا فإن الله عز وجل لم يضع داء إلا وضع له دواء علمه من علمه وجهله من جهله.

وهذا التوجيه النبوي يساعدنا في الرد على سؤال مهم .. وهو إذا كان الإسلام يهتم بشؤون الدنيا فلماذا لم يأت الأنبياء لينشؤوا المستشفيات، ويعبدوا الطرقات، ويبنوا الجسور كما فعل الكفار اليوم الذين خدموا الإنسانية؟

والجواب على ذلك هو أن الأنبياء أرشدوا إليها ولكن ما كان لهم أن يفكروا للناس بدلا عنهم .. وما كان الله ليلغي عقول خلقه ويتولى الوحي مسألة التفكير لهم، فهذا تعطيل لقدراتهم .. لقد جعل لهم عقولا وحثهم على استخدامها وبها وصل الإنسان اليوم إلى ما وصل .. على أن مهمة الأنبياء الأولى هي القيام بما لا يستطيع البشر العاديون فعله وهو تعريفهم بخالقهم، وتعريفهم بواجباتهم في الحياة .. وتعريفهم بمآلاتهم .. إلى جانب أنهم أرشدوا الناس إلى صلاح دنياهم كما أرشدوهم إلى صلاح دينهم .. وجعل الله منهم نماذج في بناء الحياة، فنوح عليه السلام يسن لنا الصناعة المدنية: (ويصنع الفلك) وداود عليه السلام في الصناعة الحربية: (وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ ...) [1]وشعيب عليه السلام في الرعي، ويوسف عليه السلام في فن الزراعة والتخزين وفن والإدارة، والنبي صلى الله عليه وسلم في فن التجارة .. وهكذا .. وما ترك ديننا العظيم ثغرة إلا وسدها.

1 - [الأنبياء : 80].

دروس حيوانية لبني الإنسان

حيوانات وحشرات ذُكرت في القرآن الكريم وكان بعضها لأخلاق البشر الكريمة مصاديق لتبقى حُجَّة شاهدة على الإنسان، قال الله تعالى: (وَما مِن دابَّةٍ فِي الأَرضِ وَلا طائِرٍ يَطيرُ بِجَناحَيهِ إِلّا أُمَمٌ أَمثالُكُم ما فَرَّطنا فِي الكِتابِ مِن شَيءٍ ثُمَّ إِلى رَبِّهِم يُحشَرونَ)[1] وإن كان الإنسان أعلى قيمة منها فهي تفوقه في أنها لا تحيد عن نظام جُبلت عليه، فإن انحرف الإنسان عن فطرته لم تنحرف هي عن جبلتها .. من هذه الأمم التي تشبهنا ذكر القرآن الكريم نماذج سلوكية راقية في مجالات منها:

- التنظيم والبناء:

فهذه حشرة اختصها الخالق بالوحي ودلها على حياة بديعة وملهمة : (وَأَوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلجِبَالِ بيوتا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعرِشُونَ)[2]. لقد هيأها الله لمهمة هي بدرجة أولى خدمة صحة الإنسان بشراب فيه شفاء للناس، وعالمها كله صالح لأن يكون ملهما، فحري بمنتوجها أن يكون لشَرَفه في أماكن شريفة مرتفعة فلا يتلوّث بالأتربة والأوحال والزواحف، وبحيث لا يصل إليه غالبا إلا مستحقه، فتأخذ من مجهودها القليل وتعطيه الكثير .. وفي لحظة تأمل في جمال مملكتها يأخذك العجب كل مأخذ من تناظر بناء خليتها التي تتكون من العديد من الأشكال أبرزها الشكل السداسي ومن تميز رحيقها بتفاوت قيمته، وسحر ألوانه، وتعدد منافعه .. ثم تقدّم هذه الحشرة حصيلة كسبها خالصا للإنسان ولا تنتفع منه إلا بأقله .. شرابا مستخلصا نقيا غير مغشوش حتى يكون الإنسان هو من يغشه لأخيه الإنسان.

ثم إن مجتمعها تكاملي أساسه حسن التنظيم .. وتوزيع المهام وبآلية ثابتة، لاتشاكس فيه ولاتشاحن، فمهمة الذكر تلقيح الملكة، ومهمة الملكة وضع البيض، ومهمة العاملات جمع اللقاح والرحيق وإنتاج العسل والشمع وبناء الخلية وصيانتها .. وهل خرب الإنسان دنياه إلا بالغش والفوضى وتداخل الاختصاصات، وحب الذات والاستئثار وشهوة السلطة .. ما أكثر ما ينزل به الحال دون هذه الحشرة تفكيرا وتنظيما.

---

1 - [الأنعام: 38].

2 - [النحل 68].

- المسؤولية القيادية:

وهذه حشرة في مملكة منظمة أخرى تعطينا درسا في المسؤولية القيادية، تخاف على رعيتها من أقدام جيش قد يحطمها وهم لايشعرون .. (حَتَّى إِذا أَتَوا عَلى وادِ النَّملِ قالَت نَملَةٌ يا أَيُّهَا النَّملُ ادخُلوا مَساكِنَكُم لا يَحطِمَنَّكُم سُلَيمانُ وَجُنودُهُ وَهُم لا يَشعُرونَ) [1].

إحساسٌ كمْ يغيب عن بني البشر .. ومسؤوليةٌ كم فرّط فيها حكام لهم عقل يُدرك .. وعلم متوارث .. وتجارب متعاقبة .. نملة عرفت معنى الأمانة وليس أمامها حساب يفضي إلى جهنم .. بينما بشر يتقحّمون بنزوع الشر سوء العواقب ولايبالون .. وإنّ منهم من لايهمل واجب توفير السلامة وحسب، بل ويحطم شعبه بأقدام جنوده وهم يشعرون .. فيالعميق المفارقة وبعد الموقفين!.

لقد استحق عالم النحل والنمل بذلك التنظيم وتحمل المسؤولية وحسن القيادة أن تسمى سورتان باسمهما هما سورتا (النحل) و(النمل).

- الوفاء والأمانة:

وكائن دوني آخر هو الكلب يسجل القرآن الكريم من خصائصه ما تخلّف عنها بنو البشر وعزّت في حياتهم كثيرا تلك هي صفة الوفاء والأمانة .. لذلك كرر الله ذكره في قصة أهل الكهف أربع مرات، ولم يكن لهذا الحيوان من دور فيها سوى حماية رفاقه، وإنما سجل الله لنا هذا الدور بتلك الدرجة من الرصد ليجعله درسا صالحا للاعتبار، فبينا أهل الكهف في الصورة الذهنية نيام، يبرز كلبهم باسطا ذراعية على عتبة باب كهفهم .. وجاءت هذه السردية القرآنية من باب تصوير الماضي بخبر الحال (وكلبهم باسط) كأنه يبسط ذراعيه في حالة تأهب وانتباه لئلا يتسبب غريب في إزعاجهم وإيقاظهم من نومهم .. أما أمانته فتكمن في أن الكلب المعلّم يوصّل صيده إلى مُعلمه دون أن يأكل منه وإن استبد به الجوع، حتى يكون معلمه هو من يمن عليه باليسير، وما أكثر أن تجد الخذلان فينا بني البشر وأن تجد من يخون أمانته ويغدر بولي نعمته ويفتك به فتك السباع الضارية فيكون أحط من هذا الحيوان وفاء والتزاما.

- المهام الرسالية:

لقد أُسند إلى الحيوان في القرآن الكريم أدوار في مجال الجندية والطاعة كالفيل، والطير، الأبابيل حين غاب عنها الإنسان، غير أنه اضطلع بما هو أكبر من ذلك وما هو من

---

1 - [النمل: 18].

شأن الأنبياء والدعاة والمصلحين .. إنها الدعوة إلى الله، وموضع العجب في ذلك أن غير المكلف بالعبادة وغير المهيأ للقيام بعمليات عقلية كبرى التي هي من صفات العقلاء يفلسف للإنسان من هو المستحق بالعبادة، ويعدد موجبات طاعته، وأن مستحقها إنما هو الذي يخرج الخبء في السماوات والأرض: (أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ) [1].

إنه درس قرآني آخر يسوقه الله للمكلفين على لسان طائر الهدهد .. على أن علم منطق الطير مما اختص الله به نبيه سليمان عليه السلام، وما من منطق عاقل ولغة مفكرة لغير الإنسان والجن والملائكة، ولكنها حالة خاصة صالحة لقياس حال الموقف لا بتكراره، كأنما لو نطقت الحيوانات لم يكن إلا هذا منطقها وإلا هذا موقفها .. إذ كيف يُعبد من لا يَخلُق ويُشكر من لايَرزق؟! إنكار مسوغ بالبداهة وبتضافر شواهد هي من الكثرة والوضوح بحيث يدركها حتى ما لا يعقل .. لقد نطق الهدهد بلغة الطاعة كأنه مثَّل بذلك موقف كل الحيوانات التي تسجد لله وكل الشجر والحجر، وليس كل الناس ككل المخلوقات فكثير منهم حق عليه العذاب كما جاء في سورة الحج آية (18).

لقد جلّت آيات الهدهد في سورة النمل ذلك التناغم الغريزي لنداء الكون الخاضع لله لا للشمس ولا لمخلوق آخر، فيقدم اعتراضه واحتجاجه على سلوك البشر، ويضع مواعظه وتعاليمه للمكلفين العقلاء، ويصدر في موقفه عن أصل المنطق، وبداهة المسؤولية، ونداء الفطرة السليمة، أفلا يتجاوب الإنسان العاقل مع إيقاع عبودية هذه الكائنات لصاحب الإيجاد، والإمداد، والإرشاد فيعبده وحده .. ويدعو إليه وحده؟!

- حفظ الحقوق:

لقد بعث الله للإنسان الأول غرابا ليريه كيف يواري سوءة أخيه؛ هذا الطائر الذي تفنن الإنسان في التطير به والتشاؤم من طلعته، يقول بهذا الدرس إن وقع الأخ مع أخيه في موقف غضب فأهدر حقه في الحياة، فلا ينبغي أن يهدر ما بقي له من حقوق محفوظة منها حقه في الدفن بكرامة: (فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ)[2].

هذه النماذج القرآنية لسلوك بعض الحيوانات تشير إلى إمكان وجود سلوكيات حيوانية أخرى لم تذكر، فهذا القط إذا أعطيته قطعة اللحم يأكلها باطمئنان أمامك، لكنه إذا سرقها يفر

---

1 - [النمل : 25].

2 - [المائدة : 31].

وينظر خلفه لشعوره أن ما فعله ليس من حقه، وأنه بذلك يستحق العقاب، هذا الشعور قد يتعرض للضمور في دواخل بعض البشر فيأخذ الشيء من غير حله ويضعه في غير محله، دون خوف ولا تأنيب ضمير، فكيف صارت بعض الحيوانات أهدى من بعض الناس سبيلا؟.

إن قيم الحياة السليمة هي قانون الله في الأرض، ينتظم في سلكها عوالم شتى وإن كان بعضها أصيلة في بعض فهو في غيرها صدى يمكن تمثلها كشهادة على سلامتها والدليل نزوع بعض الكائنات الدنيا إلى تمثلها، وبالتالي ليست في الإنسان مجرد تواضع واصطلاح أملتها ثقافة ظروف معينة ويمكن الاستغناء عنها بل هي قانون عام كما قال الله في الآية (وَما مِن دابَّةٍ فِي الأَرضِ وَلا طائِرٍ يَطيرُ بِجَناحَيهِ إِلّا أُمَمٌ أَمثالُكُم ...).

إننا قد نجد حيوانا مفترسا يتورع عن افتراس رضيع لا يعرف أن هذا المفترس مصدر خطر فقد تكررت مشاهد رعاية نمور للغزال الرضيع أو القرد الرضيع في مقاطع منشورة، كأنما من حق هذا الرضيع أن ينهض ويكبر ويأخذ دورته في الحياة وينجب ويحافظ على استمرار النوع، وهل يهم الإنسان عندما يتصارع مع أخيه الإنسان طفل أو امرأة أو عجوز فان؟ أسألوا ما بال أسلحة الدمار الشامل ولمن صنعت؟

ونجد الحيوانات المفترس إذا شبع كف عن الافتراس في حين كلما شبع الإنسان ازداد نهما وجشعا.

ونجد الحيوان لا ينزو الفحل منه على الفحل وقد يغار الذكر على أنثاه، فيما تراجعت هذه القيم في واقع بعض البشر وتسفلت أخلاقهم، وتوسعوا في الانحدار فنادوا بزواج الرجل بالرجل والمرأة بالمرأة وصدق الله القائل :(أَم تَحسَبُ أَنَّ أَكثَرَهُم يَسمَعونَ أَو يَعقِلونَ إِن هُم إِلّا كَالأَنعامِ بَل هُم أَضَلُّ سَبيلًا) [1].

1 – [الفرقان: 44].

خامسا– تأملات في علم الاجتماع

تفكك الأسرة في الغرب – حقائق وأرقام

يظهر (ديفيد) على الشاطئ وإلى جانبه زميلته في المدرسة الشابة الآنسة (نيكول) .. فيسألها عن أمها فتقول: إنها لم تعد تتذكر آخر مرة خرجت من المنزل، وإنها لم تعد تتذكر حتى ملامح أمها جيدا، وذلك لطول مغادرتها لشقة أهلها !!. وفي المدرسة تظهر (نيكول) وهي تعانق زميلا آخر فينهال عليه (ديفيد) لكما وضربا حتى يصرعه أرضا فتتدخل نيكول لفض الاشتباك، لكن ديفيد يسدد لها لكمة في عينها فتعود إلى منزلها بعد طول غياب بعين منتفخة. فيطلب أبوها (ستيفن) من ابنته ترك هذا الشاب المتوحش، فترد أن هذا الأمر ليس من شأنه وأنها حرة في حياتها .. فيذهب الأب إلى فراش نومه حزينا مكلوما غير قادر على فعل شيء.

في اللقطة التالية يدخل الأب ستيفن سعيدا إلى المنزل، لكن سعادته لا تدوم حيث يطل من الشرفة ليرى زوجته (لورا) في فناء المنزل في حضن صديق جديد لزوجته فينادي عليها فتحضر سعيدة تعانق زوجها، لكنه متخشب لنار الغيرة تحرق فؤاده فيقول لها متسائلا: من هذا؟ فترد متذمرة: لماذا تكلف نفسك حساب الداخلين والخارجين، ثم تدير ظهرها منزعجة من حشر زوجها أنفه في ما لايعنيه .. ومرة ثانية يذهب ستيفن حزينا كئيبا لا حول له ولا قوة فيما يفعل أهله بأنفسهم لأنه يريد والقانون يريد ولايكون إلا ما يريده القانون.

في لقطة أخرى يلتقي الشاب العاشق زميلته نيكول فيعتذر لها على ما بدر منه وأنه لم يفعل ذلك إلا لأن نار الغيرة اضطرمت في فؤاده فلم يستطع لذلك صبرا .. فترد أن عليه أن يقف عند حده فهي حرة بمن تعانق ومن تصادق ومن تخالِل وو .. خمس رسائل تمرد على الأسرة في فيلم مدبلج يبث عبر قناة صهيونية تنطق بالعربية. كلها في نحو عشر دقائق تزيد أو تنقص دروس للأسرة العربية أن تحتذي بنظيراتها في الغرب .. هذه هي الأسرة النموذجية في العالم الآخر صداقة فندقية أو صداقة افتراضية برباطات مفككة مهددة بالتشتت.

ومن طريف ما يحكى من أقاصيص حضارة الانفلات أن شابا ذهب يؤاذن أباه في الزواج بفتاة من الجيران أعجبته .. فيرد عليه أبوه: يا بني لا تتزوجها فإنها أختك وأمك لاتدري!. فيذهب الشاب مرة أخرى ليأخذ رأي أبيه في فتاة ثانية يتزوجها، فيرد الأب: يا بني لا تتزوجها فإنها أختك وأمك لاتدري.

المرة الثالثة أيضا يتكرر من أبيه نفس الموقف .. فيذهب الشاب متذمرا إلى أمه يشكو لها حكاية أبيه معه كلما أراد أن يتقدم لفتاة يرد الأب إنها أختك وأمك لاتدري .. عندها ردت أمه بهدوء: يا بني تزوج أيهن شئت فإنك لست ابنه وهو لا يدري!!! فالدنيا هناك على بعضها .. نعم. العلمانيون العرب سيردُّون (مستثنين أهاليهم أكيد) آه ما أحسنها من حياة!!! .. يتنقل الواحد هناك كالنحلة بين أزهار بستان الصداقات يشم ويضم ويقطف ويجني بلا رقيب ولا حسيب .. ولا سلطة من دين ولا رجال دين.

سيقولون. اتركوا الناس وما أرادوا .. ولتذهب المؤسسات اللاجمة للحريات إلى الجحيم .. كل فرد حر بنفسه. لكنهم ينسون – أي العلمانيين– أنهم جميعا سيتحولون إلى ستيفن الحزين الذي يفتح عينيه كل يوم على صديق جديد يشاركه الاستمتاع بأهله في ردهات المنزل .. ويشاطره التقلب في أعطاف فراشه الدافئ مع أهله .. سيتحولون إلى ستيفن الذي لا يدري إن كانت زوجته تنجب له أم تنجب لزبائنها الكرام!! .. وإن كان هؤلاء الأبناء الذين يغذيهم، ويداويهم، وينفق على تعليمهم، ويسهر على مصالحهم إن كانوا أبناءه أم أبناء رجال مدينته غير الفاضلة .. سيتحولون إلى ستيفن الحزين الذي ينام قلقا على فتاة صغيرة خرجت من المنزل ولم تعد إليه لأيام متوالية ولا يدري أين وضَعها كف الدهر أو انتهت بها عوادي الأيام .. ثم تعود أخيرا ولكن ومعها صديق جديد .. شاب غر مراهق يلعب بها ثم يتركها عظاما لقطط جائعة أخرى.

ولكن دعوني أتكلم بلسان نزواتهم .. وخيال عواطفهم .. ونشوة لحظاتهم .. ثم أفتح عيونهم على نتائج كارثية تتجاوز شخص ستيفن إلى مجتمعات تتعرض للتدمير والموت البطيء تعكس ذلك حقائق وأرقام صادمة لا يرغب الغرب أن يناقشوها كما لا يرغبون أن يناقشوا عوامل تدمير البيئة، بسبب مخلفَّات الحضارة التدميرية وإن ناقشوها فعلى مضض،

لأنهم يريدون الصناعة والإنتاج ويريدون المال كما يريدون الاستمتاع ببعضهم ثم يصرفون النظر عن النتائج المدمرة لمادية الحضارة المتوحشة وتهديدها لكل جميل .. فإذا أسرة ستيفن تعد مثالية في الغرب .. فالقليل من تستمر معهم أسرة متماسكة دون أن تتعرض في أي وقت للانهيار .. فربما أنجب الصديقان قبل زواجهما لينظرا في مدى التوافق بينهما؛ لأن الكنيسة كانت تمنع الطلاق فيركِّبان أسرة كتجربة (بروفة) ثم إذا تزوجا ذهبا إلى عملهما ودفعا بالأطفال إلى دار الحضانة .. فإذا كبر سنهما هجرهما الأبناء لينتهي بهما الحال إلى دار العجزة.

ومما يذكر أن عجوزا في دار المسنين وهي تقرأ في جريدة عرفت كاتبا، أنه ابنها فترسل له عبر بريده أنها تود زيارته .. فيرد عليها في رسالة أنه لا يمانع لولا أنه لا يملك سوى غرفتين غرفة له وغرفة للكلب!!

يسير الابن هناك بالسيارة ويجد أباه يمشي فلا يقف له .. إذ لايعدو عن كونه صديقا بأحسن الأحوال، وذلك لعدم تأكده إن كان هو الأب الحقيقي أم أن عنوانه ينتهي إلى رجل آخر .. وهكذا الآباء يتخلصون من أبنائهم لنفس السبب.

وهذه الحقائق ليست من قبيل الشتائم أو الاستنقاص بل هي عندهم عادية جدا فليس ابن الزنا شتيمة هناك، بل إن أحدهم يتفاخر أنه شاذ جنسيا وصار للمثليين مؤسسات راعية تموَّن من الدولة .. وإن أحدهم ليكون وزيرا فيعرِّف بنفسه أنه ابنٌ غير شرعي أو من المثليين، وتقول الإحصائيات أن في بريطانيا بلغ نسبة الأبناء غير الشرعيين نحو 49% وتذكر بعض الدراسات أن بعض المدن الأمريكية وصلت نسبة الحوامل في سن الدراسة إلى 48% ويقدر القاضي الأمريكي (لندس) أن 45% من فتيات المدارس يدنسن أعراضهن قبل خروجهن من المدارس. وكشفت جريدة الأخبار عن مقارنة أجريت في (بروكسل) في الآونة ا.حيث بلغت نسبة من يبنين علاقات قبل الخروج من المدرسة 50% من الدول (الاسكندنافية) و41% في (هولندا) و10% في (إيطاليا) .. وحدث ولا حرج عن فضائح با بوات الكنيسة السنوية الذين يمارسون الفاحشة مع الغلمان كون الدين يحرم عليهم الاقتراب من المرأة لأنها مصدر الخطيئة فليجؤون للمردان.

وهكذا تظهر ضريبة الحرية حتى صرح الرئيس الأمريكي كندي في بداية الستينات أن مستقبل أمريكا في خطر؛ لأن شبابها مائع وغارق في الشهوات، لا يقدر المسؤولية الملقاة على عاتقه، وأنه من بين كل سبعة شباب يتقدمون للتجنيد يوجد منهم ستة غير صالحين؛ لأن الشهوات التي أغرقوا فيها أفسدت لياقتهم الطبية والنفسية[1]. وقد خرج أخطر كتاب لكاتب أمريكي: كتاب: (موت الغرب) للمؤلف الأمريكي باتريك جيه بوكانن. ولمن لايعرفه هو: سياسي ومفكر أمريكي معروف عمل في منصب مستشار لثلاثة رؤساء أمريكيين، وهو كاتب لعمود صحافي دائم في عدد من الصحف الأمريكية ومؤسس لثلاثة من أشهر برامج التلفزيون في أكبر قناتين أمريكيتين (إن. بي. سي) و (سي. إن. إن)ألف العديد من الكتب منها:

– كتاب (موت الغرب) يبشر بموت وانتهاء الغرب، والمؤلف في هذا الكتاب ينبه إلى أن الموت الذي يلوح في أفق الغرب هو في الواقع موتان:

– موت أخلاقي بسبب السقوط الأخلاقي الذي ألغى كل القيم التربوية والأسرية والأخلاقية التقليدية.

– وموت ديموغرافي وبيولجي (النقص السكاني بالموت الطبيعي).

ويقول إن الموت المقبل مريع و مخيف !! لأنه وباء ومرض من صنع أيدينا ومن صناعة أفكارنا .. وليس بسبب خارجي مما يجعل هذا الموت أسوأ بكثير من الوباء الأسود الذي قتل ثلث سكان أوروبا في القرن الرابع عشر .. فالوباء الجديد لا يقتل إلا الشباب مما يحوّل الغرب عموما وأوروبا بشكل خاص إلى (قارة للعجائز) !!يقول ليست القصة مجرد تخمينات أو توقعات أو احتمالات إنما هي حقيقة واقعة تصدمك لشدة وضوحها .. وهذا كله بسبب تفسخ الأسرة وإطلاق الحرية بلا قيود!!

فوفقا للإحصاءات الحديثة:

هبط (معدل الخصوبة) عند المرأة الأوروبية إلى (1 طفل) لكل امرأة علما أن الحاجة تدعو إلى معدل (2 طفل) كحد أدنى لتعويض وفيات السكان الموجودين الآن، دون الحديث

1– ينظر في الإحصاء موقع طريق الإسلامhttps://ar.islamway.net/articl

عن زيادة عددهم .. هذا التدني سببه تفكك الأسرة نتيجة العلاقات غير الشرعية ولجوء المسافحات إلى الإجهاض .. وإذا بقيت معدلات الخصوبة الحالية على ما هو عليه فإن سكان أوروبا البالغ عددهم 728 مليون نسمة بحسب إحصاء عام 2000م سيتقلصون إلى 207 ملايين في نهاية هذا القرن إلى أقل من الثلث.

وفي المقابل ففي الوقت الذي تموت فيه أوروبا لنقص المواليد يشهد العالم الثالث الهند، والصين، ودول أمريكا اللاتينية (وخاصة المسلمين) انفجارا سكانيا لم يسبق له مثيل. بمعدل 80 مليونا كل عام ومع حلول عام 2050م سيبلغ مجمل نموهم السكاني (4 مليارات إضافية من البشر) وبهذا يصبح كابوس الغرب حقيقة، وتصبح أوروبا بكل بساطة ملكا لهولاء بعد وقت ليس بالبعيد! فهاهنا حيث الأسرة المحافظة وهناك حيث الأسرة المفككة فجسدا بذلك فارقا كبيرا في النواتج.

ويقول المؤلف:" إن الأرقام تصبح مخيفة أكثر عند تناولها لتشخيص مرض النقص السكاني على مستوى الدول والأمم بعد 50 عاما من الآن".

ففي ألمانيا سيهبط التعداد السكاني من 82 مليونا إلى 59 مليون نسمة (وسيشكل عدد المسنين ممن تجاوزوا الـــ65 عاما أكثر من ثلث السكان).

أما إيطاليا فستشهد تقلص عدد سكانها البالغ 57 مليونا إلى 41 مليونا (وستصبح نسبة المسنين 40 % من التعداد العام للسكان) وفي إسبانيا ستكون نسبة الهبوط 25 %

وستشهد روسيا تناقص قواها البشرية من 147 مليونا إلى 114 مليون نسمة، ولا تتخلف اليابان كثيرا في اللحاق بمسيرة الموت السكاني فقد هبط معدل المواليد في اليابان إلى النصف مقارنة بعام 1950 وينتظر اليابانيون تناقص أعدادهم من 127 مليون نسمة إلى 104 ملايين عام 2050م. أرقام مخيفة !!لكن السؤال المحير !!

لماذا توقفت أمم أوروبا وشعوبها عن إنجاب الأطفال وبدأت تتقبل فكرة اختفائها عن هذه الأرض بمثل هذه اللامبالاة؟

يقول المؤلف: إن الجواب يكمن في النتائج المميتة لهذه الثقافة الجديدة في الغرب !والموت الأخلاقي الذي جرته هذه الثقافة على الغربيين هذا هو الذي صنع موتهم البيولوجي،فانهيار (القيمة) الأساسية الأولى في المجتمع (وهي الأسرة) وانحسار الأعراف الأخلاقية الدينية التي كانت فيما مضى تشكل سدا في وجه (منع الحمل والإجهاض والعلاقات الجنسية خارج إطار المؤسسة الزوجية إضافة إلى تبرير لا بل تشجيع العلاقات الشاذة المنحرفة بين أبناء الجنس الواحد كل هذا دمر بشكل تدريجي الخلية المركزية للمجتمع وأساس استمراره (ألا وهي الأسرة) .. وتبدو لغة الأرقام هنا أكثر هولا !فقد ارتفع الرقم السنوي لعمليات الإجهاض في الولايات المتحدة من ستة آلاف حالة سنويا عام 1966 إلى 600 ألف عام 1976 بعد أن سمح بالإجهاض واعتبرت عملية قتل الأجنة حقا للمرأة يحميه الدستور وبعد عشر سنوات وصل الرقم إلى (مليون ونصف حالة إجهاض) في العام الواحد .. أما نسبة الأطفال غير الشرعيين فهي تبلغ اليوم 25 في المائة من العدد الإجمالي للأطفال الأمريكيين وهي نسبة قديمة .. ويعيش ثلث أطفال أمريكا في منازل دون أحد الأبوين (إما بدون الأب وهو الغالب وإما بدون الأم)[1].

فيا علماني العرب! مع كل نزوة بهيمية عابرة تذكروا دوما هذه الضريبة الإنسانية الباهظة التي يتحتم دفعها .. احسبوا المقدمات قبل النتائج.

1- منقول من صفحة د.سليمان خاطر. وانظر https://m.facebook.com/dw.sha

احذروا إعلام النموذج الكامل

أ- الصورة الأولى:

منذ بداية عصر الصورة وظهور الفيلم، لاتتوقف صورة الحياة المادية الليبرالية المترفة يشاهدها على الشاشة الياباني، والعربي، والصيني، والأفريقي، ودوما سيفتح الضحية عينيه على الرجل الغربي أو التغريبي الاستثنائي والكامل في العقلية، والذكاء، والأناقة .. الأمير في فلّته التي تسحر الناظرين، وتخطف الأبصار، بجواره آخر إنتاج الحضارة، ولن تغيب عن الصورة السيارات الذكية والفارهة، يزيد من جمالها المرأة كاملة الجمال والرقة، عالية الذكاء واللباقة، تعرف الايتيكيت وتساير الموضة ..الخ تتنوع صورها من متأبطة كلبها الصغير المدلل، إلى قائدة للسيارة بنظارتها الشمسية الواسعة، إلى متكسرة مع أنغام الموسيقى الصاخبة، وخلفيات الصورة كلها جمال عمران.. وأناقة شوارع .. وفخامة جسور.. وقد تظهر إلى جانبهم إبنة جميلة تعكس نضارة الشباب وحيويته تفعل في ظل أبوين ثريين ما تشاء .. وتقول وتلبس ما تريد وكيفما تريد .. وتخرج وتعود متى تحب ومع من تحب .. وهي لاترفل إلا في حلل السعادة .. ولا تتقلب إلا في أعطاف النعيم .. خرَّاجة ولاَّجة مع أصدقائها المختلفين ولا تجد من أبويها إلا الدعم والتشجيع .. فهي تحصد متع أحلامها بلاضابط ولا رابط ولا حدود ولا قيود.

ويتكرر السوبر .. من سوبر لايف .. إلى سوبر مان فهناك البطل الكامل الأسطوري، ذلك الخارق الذي يقهر المستحيل ويواجه الصعاب بمفردة، ويتصرف بحنكة فريدة في أصعب الظروف .. لا تؤثر فيه أسلحة الأعداء .. ولا تهزمه العصابات المحاربة .. ولا وعورة الأرض ومغاراتها المخيفة، وغاباتها المظلمة وعلى نمط (رامبو) أمريكا.

وبسبب نماذج السوبر هذه الكاملة التي يضخها إعلام الخيال تَعرَّض إنسان العصر لصدمات من الإحباط والقهر النفسي الشديد؛ حيث تلاعب خيال المادة بعواطف الشعوب وتعمد رسمَ واقع من فيض الخيال .. مليء بالرفاهية والانتصارات .. خال من المنغصات والهزائم.

وينسى المشاهد أن هذا كله صناعة موجهة لتحطيمه .. وأنه واقع في حبائل الوهم .. وأن هذا الواقع السعيد والمنتصر دوما ليس هو الغالب .. حتى مع توفر المال والكماليات فهناك أمراض أسرية واجتماعية تحيل الحياة إلى ظلمات، لكنها لاتظهر فيخيل للمشاهد في العالم المتخلف ماديا أن السعادة متوفرة فقط في البيئات الحضارية، وأن البيئة المحلية هي

المسؤولة عن النمط الفقير، والمحافظ والمكبل بأنماط قديمة وبالية .. فيخرج الكثير من كل ذلك بحسرة ترمي بوجوده الإنساني إلى أبعاد خيالية مادية لا يحتمل واقعه تحقيق اليسير منها .. فتترك الهزيمة في النفوس .. وتكثر الجريمة وحالات الطلاق .. بسبب تقزيم نموذجهم الحياتي الذي يجسده الفارق الصناعي المعروض.

والإفراط في الخيال إن لم يتحقق يتحول إلى كابوس ويأس وانتحار، ولا بد أنه أحد أسباب مغامرات الهجرات الانتحارية بشعار الحال إما جنة الغرب أو الموت حتى إن أحدهم لينفق ما قد يزيد على نحو 30 ألف دولار للوصول إلى فردوس الغرب وكان يمكن أن يستثمرها في بلده لكن واقع بلده لا يصنع ذلك النموذج الكامل في كل شيء .. فإذا حصل على الجنسية كأنما حصل على جواز دخول إلى الجنة .. ثم ما يمضي سوى اليسير من الوقت حتى يجد أنه لقي شيئا وضاعت منه أشياء أبرزها التضحية برأس ماله وهو ثقافته وشخصيته ودينه بسبب تعريض أبنائه من بعده للضياع.

فهل الحياة في الغرب كاملة في كل شيء أين عصاباتهم الإجرامية ولصوصهم وفاسدوهم وفقراؤهم؟ .. أين عقوق الوالدين والاغتصاب، ومدمنو المخدرات، وعاطلوهم وأصحاب العاهات والساكنين في الأرصفة والصور المستقذرة؟ أين ظاهرة العنصرية والاضطهاد والغدر والاحتيال؟ ..الخ .. حتى فصول إسباتهم وجحيم تساقط الثلوج وتعطيل الحياة لا يبرز منها سوى صور التزلج والاستمتاع بجبال الجليد بينما يخفون خروجهم عن نطاق الحياة الطبيعية لشهور في الوقت الذي يعيرون العرب بالصحراء والرمال، وجعلوها مظهر سيء ومنفِّر مع أن في الرمال ما يمكن ممارسة كل جميل .. وعلى الأقل لاتعيق الحياة ويمكن دفعها واستصلاحها.

إن الذي يقول ليس هناك سوى الجمال والغنى والأمانة وفوق النسبية ووالخ فقد وقع في وهم الملائكية الزائفة وآمن بالمستحيل .. فهم بشر كالبشر لكن تعمدهم صناعة النموذج هو الذي صنع الصورة النقية في الذهن.

يضاف لهم الليبراليون في دول ما سموها بالأطراف الذين حملوا على عاتقهم تسويق صورة كمال الإنسان الغربي، ولايبرحون يعوون ويلطمون الخدود ويشقون الجيوب على واقعهم المتخلف مقارنة بواقع الغرب المتحضر .. انظر كيف زينوا الكيان العبري وعكسوا للعالم العربي الصورة الوردية للمجتمع الإسرائيلي وعلى مدار ثلثي قرن ثم ظهرت فجأة مع ثورة العلمانيين ضد حكومة المتشددين مطلع عام 2023 كتلة من الأمراض السياسية، والدينية، والاثنية والتعامل غير العادل مع المكونات لينتقل الخبر من إسرائيل الكبرى إلى

الحديث عن تفكيك إسرائيل الصغرى.. إنه التضليل الإعلامي الموجه والمركز لغسل العقول، حتى انتهى الحال بالعلماني والليبرالي المخبول إلى التمسح باعتاب اليهود وأهدابهم كأنما ولاءهم والخضوع لهم قدر السماء المحتوم .. فعلى طلائع الإنهزام سحائب اللعنات .. فهذه الطليعة المنهزمة أحفاد أبي رغال التي تسمي نفسها تنويرية كل جهدها وجهادها ليس تطوير واقعها بل استلحاقه بثقافة الغرب، فالغرب الذي يخفي عن غيره التكنلوجيا والتصنيع يحرص على تصدير ثقافته بلاحدود وبشتى السبل وصار المتخلف هو المخالف له ولو تطور ماديا وتكنلوجيا.

- **الصورة الثانية:**

لم أكن أدرك سر ولع السياح الأجانب بتصوير كل سيء في دولنا من الزبالات .. والتشوهات .. العاهات .. حتى وجدت ذلك التبشيع المتعمد لواقع غيرهم في الأفلام، والكتابات والمؤلفات .. فمن هو الإنسان العربي في ثقافة الإعلام الغربي؟

إنه ذلك الإنسان غير المنظم الصحراوي البدائي الذي يشرب أبوال الإبل الذي يفتقر إلى منظومة القيم الإنسانية .. ولا تبرز من قضايا العرب التي تستحق اهتمام الغرب سوى ختان الفتيات .. وزواج القاصرات .. ومساواة الجنسين .. وتطبيق الشريعة .. إلخ حسنا فماذا يريدون؟ يريدون ثقافتهم هذا كل ما يهمهم .. يريدون الدعارة .. والمثلية .. وفتح الخمارات .. وتفكيك الأسرة وما إلى ذلك .. مالم فسيبقى العرب والمسلمون متخلفين وليس ورثة حضارة عالمية، ودين عظيم، وخصائص فريدة .. ولن تجد سوى الصور الالتقاطية المعزولة ليجعلوها هي الأساس بلا علمية ولا سلوك مبدئي .. وإنما هي إستراتيجية فلكي يصلوا إلى إلحاق غيرهم بنمط ثقافتهم يسيرون على محورين من الهجوم.. الأول تجميل واقعهم والثاني تبشيع واقع المستهدف وتهميجه.

وفي الأخير نحن لا ندعي أن الحياة الغربية نموذج فاشل وحسب بل وتدميري لأنه نموذج بهائمي غرائزي، إن أدركوا المتعة الآنية فقد فاتهم متعة حياة الفضيلة والعفة، وتراحم الأرحام، وطاعة الصغير للكبير، ورحمة الكبير للصغير، والتكافل المجتمعي فنحن نستمتع بها ونجدها فيها سكينتنا وسعادتنا شاؤوا أم أبوا.. وأن تلك الفتاة الغربية التي تظهر متحررة تتمتع بشبابها بلاضابط سيتم بموجب القانون طردها من حياة أبيها في سن 18 فهو غير ملزم بتعهدها بعد هذا السن كما أنها غير ملزمة بطاعة والديها .. فلا تغرنكم الأشكال فتحتها النكال.

ولا يعني عدم حاجتنا للكثير مما لدى الغرب منها التقاليد الديمقراطية، والخضوع للقانون، ولكنهم يظلون ثقافيا شيئا آخر ونحن شيئا آخر، وأؤيد قولة من قال سيظل الشرق شرقا والغرب غربا ولا يلتقيان.

الفردانية في الغرب

الفردانية[1] كابوس عصري جديد أطلت كنظرية في مطلع القرن العشرين .. لم تعد تعني مجرد تضخيم الحقوق الشخصية والمعنوية للفرد في مقابل التقليل من التزامات المجتمع بل انتهت إلى نظرية مقلوبة ترى أن الإنسان فردي بطبعه بدل اجتماعي بطبعه .. دولة السويد كانت أول دولة تطبق هذه النظرية بصرامة.

فمتى جاع الفرد ذهب إلى المطعم .. ومتى أراد التسوق جاءته طلباته على العنوان .. ومتى أراد الإشباع الغريزي ذهب إلى النادي الليلي .. ومتى قضى وطره عاد وأغلق عليه شقته بلا أسرة بلا أهل بلا التزامات .. هكذا بدت الحياة الفردية مريحة لاسيما أن الكثير لا يعلم عن والديه أو على الأقل عن هوية أبيه ومدى صحة نسب إخوانه بسبب الحرية المطلقة .. متى أراد الدردشة ذهب إلى المنصات الاجتماعية وبحث عن أصدقاء افتراضيين.

إذا أرادت المرأة طفلا ذهبت إلى بنك الأنابيب وقدمت مواصفات الطفل التي تريد .. فتحصل على طلبها وتعود لتحقن نفسها ثم هي حرة بهذا الطفل فهو إما لمجرد التسلية مثل القطة أو الكلب أو لإشباع غريزة الأمومة .. ثم متى قضت حاجتها إما أن تهديه لمن يرغب في طفل يخدمه أو يستعمله لأي غرض أو تذهب به للحضانة أو..الخ، فالمسألة نسبية لذلك لم يكن السوسيال في السويد يعبئون ببكاء الآباء حين اختطاف أبنائهم لأنهم يرونهم أشبه بمزرعة تفقيس أوادم لا عاطفة لديهم.

لاترغب المرأة في الإنجاب من زوج معروف حتى لا تقيد حريتها وحتى لا تتحمل تبعات الأبوية كون الأب ينتظر طفلا بلا التزامات فالكل سواسية في المسؤولية .. والرجل لايريد أن يتزوج لأنه إن كره زوجه وطلقها دفع لها نصف ثروته .. لذا قد يتفقان على الإنجاب قبل الزواج كبروفة وتكون المرأة أشد إلحاحا على الارتباط لأن الرجل قد يتركها هي وأبناءها بلا تضامن لاسيما أن مصدر الأطفال غير مضمون دوما.

---

1 – ونعني بالفردانية هنا هو فردانية الحياة مقابل الجماعية أو الانعزال مقابل الاختلاط والتشاركية الحياتية ضمن أسرة ورابط العشيرة ومنهم من يسميها الفردية تخرج بهذا الفردانية التي بمعنى (حرية الفرد) في مقابل تقديم الاشتراكية الحقوقية على حساب حقوق الأفراد.

***النتيجة:**

الحياة في دول الشمال تم أتمتتها فباتت آلية مملة يسودها الهدوء القاتل لاسيما في الشهور الثلجية الطويلة .. الكلام باقتصاد شديد ويجب أن يكون الجواب بقدر السؤال كالآلات الحاسبة فلاثرثرة ولا استطراد وربما وقع الفرد ضحية هواجس وأفكار مفترسة، فهو دائم التفكير في التخلص من حياته لأنه لايتعرض للتفكير بالغير بل بمستقبله الغامض وهدف وجوده .. في اليابان تم تخصيص غابات للمنتحرين تمر الشرطة بشكل دوري لإنزالهم من الأغصان وتواري أجسادهم دون أن يبكي عليهم أحد لأنه لا أقرباء لهم ..

يشعرون بالفقر الشديد للاحتكاك بالإنسان فلا آباء ولا أبناء ولا أصدقاء وفيين فإذا جلست في حديقة وجدت من يقترب منك كثيرا ويدخل معك في حوار لا معنى له لكنه يجد حاجته فيه .. هناك نواد لتوفير الملامسة والاحتكاك بالإنسان لتقليص حالة الفردية .. الشقق قبور ساكنيها يدخل الجار لايعلم عن هوية جاره .. الذي يمرض يتصل بشركة التأمين لمعالجته والذي يموت في شقته لا يعلم بموته إلا نتن رائحته بعد أسابيع أو شهور وربما لايهتدى إليه فيظل سنينا .. فإذا تم الإبلاغ عنه جاءت الدول ودفنته كناقص رقم بشري لا أكثر .. ثروته إن لم يوص بها لجمعية أو لكلب أو لصديق أو.. إما تتوه في البنوك أو تكون من نصيب أول من تقع يده عليها.

*اليوم يحاولون العودة إلى الأسرة لكن بعد هذه التجربة صارت العودة صعبة فمن ناحية يكرهون الالتزامات تجاه الغير فالباعث الديني معدوم والعفة معدومة وتفكيك الأسرة واقع لا محالة .. ولكن من ناحية أخرى أصبحت الحياة الفردانية كابوسا قاتلا لايدرون كيف علاجها .. نعم لا يعني انتهاء ظاهرة الأسرية بل لايزال لها حضور ولكنه يتآكل.

أخيرا يا من يستمتع بحياته بين إخوانه المحبين.. وأسرته السعيدة .. وأصدقائه الأوفياء .. ومجتمعه النابض بالحياة الزاخر بالتكافل والتكامل .. يا من يشهد كل يوم خمس مرات اجتماعا بشريا مع الآخرين ولقاء أعظم مع الخالق تعالى .. ويا من يحضرون كل أسبوع اجتماعا عاما وكل عام اجتماعا أعم لو لم يكن من نعمة دينك إلا هذا لكان فيه الكفاية.

الفاحشة بين الألفاظ الخادشة والسلوك (المتمدّن)؟

ابتعد الغرب عن الإيمان والقيم الإنسانية النبيلة، ونحن في الشرق نستقبل عاهات الحضارة الحاكمة فإذا حكم اليمينيون هددوا العالم بالعنصرية، والنازية، والفاشية، والصهيونية .. وإذا حكم اليساريون صدروا للعالم الخنث، والإلحاد، والمخدرات، والجندرة، وقد كانت هدية بايدن رئيس الولايات المتحدة الأمريكية اليساري الديمقراطي للعالم آخر تقليعة للشيطان وهي زواج الذكر بالذكر والأنثى بالأنثى، فلاحدود أمام البهائمية الغربية، مع الاعتذار للبهائم فقد سبق أن الحيوان لا ينزو الفحل منه على الفحل، ذلك في عالم الحيوانات أما في عالم الإنسان فللشيطان من بوائقه حظوظ وافرة يستزل بها الإنسان في مزالق تنحدر به إلى ما هو أدنى من الحيوان قدرا إلا من عصمه الله، ومن ذلك ترويجهم الفج لأغلظ فاحشة وهي (اللواط).

وحتى ندرك مدى تجافي ذلك للفطرة السليمة تعمدت في مقال تجريبي قبل هذا نزل بعنوان (حقوق المخنثين) تعمدت تضمينه ألفاظا معجمية خادشة للحياء، لأسماء المرضى جنسيا، ألفاظا كالعنوان الذي بين قوسين هي في ثقافة العفة والفضيلة نابية وغير محترمة، ولاتستخدم إلا كشتائم يعف اللسان عن ذكرها، مع أنها إنما حلت محل ألفاظ مُحدّثة ومُحسّنة صارت حاملا مستساغا عند المتلقين مثل: (مثليين) (الميول المثلي) (بائعات الهوى) (علاقات الحب) (الزواج غير التقليدي) (التعدد الجنسي) (جماعة الميم) هذه الألفاظ (الكيوت) لو كتبتها هي لَكان الكلام ذوقيا ومقبولا، وسيكون السلوك الشاذ نفسه معها والانحراف نفسه ومسميات أسمائها مما يتلاءم مع الذوق وجمال الأسلوب، ومقبول تمريره .. أما تلك الألفاظ فقد كانت صادمة، حتى لقد رفضها جمهور القراء وطالبوا بسرعة حذفها واستغربوا على هذا التجاسر من كاتب يفترض أنه محافظ.

ومنه خرجت بخلاصة خطيرة مؤسفة، وهي أن المسألة لم تعد تتعلق أحيانا ببشاعة الأفعال نفسها بقدر ما تتعلق بطريقة عرضها وتسويقها .. وأن جمال المصطلحات وتزويق العبارات ومظاهر الاحتفاء بمضامينها هو الذي جعل اللواط قضية حقوقية طبيعية بل وإنسانية

لدى بعض المؤسسات .. ولو أن واحدا من مرضى هذا الإنحراف نُعت بتلك الأوصاف القديمة التي هي في الثقافة بذيئة وخادشة لعدّها اعتداء لفظيا على مقامه المبجل؛ لأن اسمه مثلي فقط لا مخنث ولا .. ولا .. و .. الخ .. وبهذا ندرك خطورة المصطلحات في إطار الحروب الثقافية، إنها خطوط جميلة على جلود ناعمة تغطي ثعابين سامة .. ولم يغادر الذاكرة بعد اسم فيلم (أصدقاء ولا أعز) المصري الذي ظهر مطلع عام 2022 ويتضمن دعوة للمثلية وبتمويل من شركات إماراتية ومصرية ولبنانية .. لقد سموه (أصدقاء ولا أعز) فلا أعز من شريحة المنحطين هذه والشاذين .. لقد تقدموا بانحرافهم على العلماء والعظماء وقادات التاريخ .. هكذا تُعلّب الخبائث .. ومع عصر الإبداعات حقق أهل الباطل الذين يسوقون لمثل هذه المنكرات وخاصة الغرب المحكوم بالماسونية انتصارات غير عادية على مستوى فن اختراع المصطلحات الناعمة والمحايدة التي تدخل ضمن فن العرض والتسويق.

لقد نعت الله قرية قوم لوط بأنها (كانت تعمل الخبائث) ونعت أهلها بأنهم (كانوا قوم سوء فاسقين) ولم تتكرر كظاهرة عبر التأريخ (ما سبقكم بها أحد من العالمين) حتى جاء العصر الحديث وصارت الماسونية الخبيثة تضغط في اتجاه إدخالها في القوانين المدنية كزواج طبيعي يَعقِد القسيس على الزوج والمتزوج به في الكنيسة، ويسجل هذا الزواج في الأحوال المدنية وبموجبه يقطع للفاعل والمفعول به عقد زواج شرعي .. ويسجل في الجواز الحالة: متزوج .. اسم الزوج: جون، اسم المتزوج به: جورج .. ويكفي لندرك مدى حجم المخاطر للإصرار على تعميم هذا المرض الجنسي عار الإنسانية وسبتها أن تصل الدول التي أقرته إلى 28 دولة كانت أشقاها هولندا كأول دولة تقر به كزواج طبيعي عام 2001.

والغريب أن موسوعة الويكيبيديا التي روجت له وقدمت الكثير من المغالطات العلمية الفجة لكي تجعله زواجا طبيعيا وعزت منعه لدواع ثقافية وحسب تُقرّ بأن هذا النوع من الزواج أقصى مدة لاستمراره لم يزد على 5سنوات في دراسة شملت نحو 200 حالة.

لقد ذكر الله أن هذا الانحراف الخطير لم يكن له سابق عهد بقوم لوط وكان من البدهي مع تطور الثقافة الإنسانية ونمو مدارك الإنسان وارتفاع ذوقه أن تكون اليوم أبعد عن البشرية من أي وقت مضى غير أن العكس هو الذي حدث، وإنك لتعجب لهذا النشاط العالي للشيطان

وأوليائه حتى إن الصحفي الغربي ليقطع آلاف الأميال لكي يعقد لقاء صحفيا مع مرشح في دولة فقيرة ليسأله أول ما يسأله لا عن برنامجه حول الغذاء والكساء والدواء، بل عن موقفه من حقوق المثليين، مع أن مثل هذه المسألة قد لاتمثل في بلده ظاهرة اجتماعية، ولكن شعور الغرب بالمسؤولية لاتنظر في مواجهة احتياج البطون الخاوية والأبدان الهزيلة، والأثواب السملة بقدر تبحث عن تسوية أوضاع مقدمة ومؤخرة الشاذين، وكشف النهود والقدود من غير ضوابط ولا قيود .. لاتصدقوا أنهم يقبلون أي خطوة نحو التقدم الحقيقي لغيرهم، بل يسعون لهدم منظومة قيم المجتمعات وإلهائهم بالتفاهات .. إنهم وكلاء الشيطان الحصريون الذين أخذوا على عواتقهم نشر كل رذيلة وقمع كل فضيلة .. لقد ترتب على مصادمتهم للفطرة السليمة مخاطر صحية وانتشار أمراض غريبة كالإيدز والسيلان، والآن جدري القرود الخاص بمنتجات (الزواج المثلي).

ويحاولون خداع العالم بأن الشذوذ الجنسي غريزة كامنة في الشخص ويقف العلم إلى جانبه، وظهر بالتجريب العلمي أن هذا القول افتراء ومحض هراء، ولا تجد في خواطر النفس السوية حين النظر إلى الجنس المماثل أو الجلوس بجواره أو صحبته في خلوة إثارة غريزة أو تحرك مكامن شهوة كما يحدث بين الذكر والأنثى .. ولم يتداول من قصص الحيوان أن الفحل من الحيوانات قد ينزو على مثله ويستغني ببعضهما عن التزاوج الطبيعي فضلا عن أن يحدث ذلك بين أنثى وأنثى، إنما وضعت الغريزة الجنسية للحفاظ على النوع وليس مجرد المتعة في الاستفراغ الشهوي المجرد .. ولكنهم يتمسحون بالعلم حين يحتاجون لتضليل الجماهير كما تمسحوا به حين احتاجوا لنظرية الارتقاء لتبرير كفرهم بوجود خالق.

على أن حديثنا لا يتعلق بحاملي الصفتين المزدوجة أي وجود استعداد أنثوي وذكوري في الفرد الواحد بسبب الخلق فيكون أنثى وميوله للتحول إلى ذكر أو العكس، وهو الذي يسميه الفقهاء الخنثى فمثل هؤلاء ينبغي أن ينظر إليهم كظاهرة إنسانية تحتاج إلى معالجة وتفهم المجتمع لرغبة الشخص في التحول إلى الهوية الراجحة، ولكنهم في حكم النادر ولا يشكلون ظاهرة تستحق استنفار العالم .. وكذا من دحرجته عوادي الزمن ووقع في هذا الوضع المرضي يعد لهم معالجات صحية وأطباء نفسانيون ومرشدون دينيون إنما حديثنا عن التوجه الرسمي في جعل هذه الرذيلة حقوقا طبيعية تلتزم بها دول العالم.

*** الحرب على الفضيلة ودعم نشر الرذيلة:**

في الوقت الذي تواجه المحجبات في الغرب المضايقات ويصدرون اللوائح ضد ممارسة حقهن في وضع شعار الالتزام (الحجاب) نجد بريطانيا وفرنسا تدشنان حملات تضامنية مع المثليين من خلال فعاليات كالدوري الإنجليزي أواخر عام 2021 عن طريق إلزام اللاعبين بارتداء شعارات تدعم المثليين، مثل ربطة ذراع، ودبابيس، وأربطة حذاء بألوان قوس قزح.

وحين انتقد اللاعب المصري محمد أبو تريكة من قناة "بي إن سبورت" الدوري الإنكليزي على قيامه بهذه الخطوة شنت عليه الصحافة البريطانية حملة انتقاد غاضبة، قابلتها الكثير من الجماهير والكثير من المشاهير من جميع أنحاء العالم بالتأييد لموقف هذا اللاعب النبيل رافعين هشتاق (كلنا أبو تريكة) .. لتتكرر الفعاليات التضامنية وإن شئت (الترويجية) للواطيين في فرنسا عام 2022م وليظهر معارض مسلم آخر هو اللاعب البطل إدريس غانا الذي يلعب في صفوف نادي باريس الذي غاب عن مباراة فيها هذه المهازل فوصف بالعنصري والمعادي للمثليين .. وسيتكرر التدافع بين الفضيلة والرذيلة ما بقيتا وبقي الناس.

هل لدينا ما هو أفضل من الحضارة المادية؟

من أصدق المقولات التي أحفظها أن الغرب بنوا ولكن بلا أساس، وأن لدينا أساسا ولكن بلا بناء .. فلا يزال لدينا من فلسفة الحياة ورصيد الإنسانية المهدَّفة ما ليس بالإنسان عنها غنى .. نعم لايزال لدينا للإنسانية ما هو أهم من الحضارة المادية التي لم تعط الإنسانية أكثر مما أخذت .. فهَبْ أننا لن نستطيع أن نلْحقَ يوما بميكانيكية الحياة المادية .. وأن السابق لميادين التقدم العلمي ما ترك شيئا للاَّحق .. وأنه لم يعد في الإمكان أبدع مما كان .. أليسوا في النهاية متقدمين ماديا وحسب؟ .. وهل المادة واللذة والمتعة ووسائل العصر المادية هي الجواب الوحيد على سؤال فلسفة الوجود لأكرم موجود (الإنسان)؟ .. وهل بالمتع المادية نحصل على التفسير الشافي لقصة البدء والمعاد؟ .. من قال إن اللذة وحدها تمثل القيمة العليا لهدف الخلق؟ هذه إساءة للإنسانية، فلا يعدو أن يكون حيوانا معتلفا لا قيمة له ولايحمل في الحياة رسالة عليا تليق بمقامه .. الإنسان ليس كائنا غرائزيا وحسب ولكن له كمالات عليا، أليس حبه للفضيلة بدل الرذيلة، والحق بدل الباطل، والخير بدل الشر جزءا من تفوقه على الكائنات الغريزية الأخرى؟ هذا ما هو مجمع عليه، ولكن ما ليس مجمع عليه هو أهمية الروح التي هي في الدين الجوهر، والمادة عرض له .. وأن الأكل والشرب والشهوة هي وسيلة لغاية أسمى، وليست هي نهاية القصد إذ إننا نجتمع فيها مع الحيوان ونختلف في الغاية وإن لم يعرفها الماديون فنحن نعرفها وندعي حيازة حقيقتها، ولا نرضى احتكارها في نفس الوقت .. صحيح أن كلاما كهذا سيضاف لدى طلائع الانهزام الحضاري إلى خانة تخدير الفكر الغيبي والطوباوي، ولكن الصحيح أيضا أنه يمثل الحقيقة.

لقد اكتشف الماديون أشياء كثيرة، ولكنّ شيئين اثنين لم يصلوا إلى اكتشاف حقيقتهما .. وهما الإنسان نفسه وهدفه في الحياة، واليد التي أودعت وأبدعت.

وقد لخص حوار قصير نظرة الماديين للحياة حين سئل أحدهم:

- لماذا تنحت في الصخر؟
- قال: لكي أحصل على المال.
- ولماذا تحصل على المال؟

- لكي أعيش.
- ولماذا تعيش؟
- أمم . لكي أنحت في الصخر.

إنها حياة الحلقة المفرغة، ونحن نقول إن الإنسان خلق لغاية وهي عبادة الله بجوهر تكوينه، وأنه لم يأت عبثا ولا ينتهي إلى لاشيء، هل يكون للثوب الذي يلبسه هدف، وللسيارة التي يركب عليها هدف، وللأداة التي يستعملها هدف، ولا يكون له هو هدف في الحياة؟ وما ليس له هدف ولا غاية أقل قيمة مما له هدف وغاية.

** إنهم يشرحون لنا شرحا وصفيا دقيقا لوظيفة كل عضو في الجنين وهو في بطن أمه .. فاليدان خُلقتا لهدف البطش بهما، ولكن في حياة غير حياة الرَّحِم .. والرِّجلان خُلقتا لهدف المشي بهما، ولكن في مكان غير بطن الأم .. والعينان خُلقتا لهدف الرؤية بهما ولكن في مكان سيأتي بعد مغادرة عالم التخليق .وو .. الخ ثم إذا سئلوا ومن الذي عرف أن هذا الجنين سيخرج إلى عالم غير عالم الرحم فزوده بأجهزة تتناسب مع هذا العالم القادم؟ قالوا: لا أحد .. !!! وإذا قيل لهم: فإذا كان لكل عضو من أعضاء هذا الإنسان القادم إلى الحياة هدف واضح وحتمي فما الهدف من خلق الإنسان نفسه؟ قالوا: لا شيء .. !!!

سبحان الله ! عِلميون في كل شيء .. يؤمنون أن وجود الإنسان مسألة حسابية علمية تبدأ بمقدمات منطقية .. وتتسلسل بمعطيات إيجاد منطقية مبهرة .. ولكنهم في ذات الوقت يؤمنون بأن نتائج مسألة الخلق هذه عبثية، وغايتها عدمية، ومآلاتها فوضوية، وعلى هذا التصور تبنى الحياة وتطوى فصول مسرحها .. فما عندهم في هذا هو عين الإفلاس والتخبط والجهل .. وما عندنا فيه هو صوت العقل السليم .. حقا نحن عقلاء في فلسفة خلق الوجود وهم مجانين .. فكل رائعة عندهم من روائع الخلق وجدت اعتباطا بلا موجد وتنتهي اعتباطا بلاهدف .. مثلهم في ذلك مثل الإنسان الذي يرى قصرا مشيدا خاليا في صحراء خالية .. فيه منتهى الإبداع وجمال التصميم الهندسي والتوزيع الفني .. ثم يحكم على هذا القصر أنه وجد بلا صانع، فهذا إنسان مجنون بكل تأكيد .. والذي يقول باستحالة وجوده بلاموجد هو إنسان

عاقل .. أفلا يستحق الوجوديون أصحاب الحضارة المادية أن نهديهم هذه الحقيقة، ونقول لهم مثلما عقْلَنْتم لنا الأسباب عندنا التصور الكامل الذي يُعقْلن لكم مسبب الأسباب وموجدها.

** إنهم يقولون: إن الإنسان يمثل مركز الوجود وحاكمه .. ويقولون إنَّ المادة متحولة ولكن لا تفنى .. وإنَّ النبات وجد حيا من بذرة ميتة وسيبقى في حلقات متصلة .. وإنَّ خلق الكون يجري بطريقة آلية بين الانفجار العظيم والانسحاق العظيم .. فما ينتهي حتى يعود كونا من جديد .. لكنهم يقولون في الإنسان إن وجوده فرصة واحدة لا تتكرر .. وأنه وجد لينتهي إلى لا شيء .. كل شيء له غاية ويعود ويتجدد إلا الإنسان .. فإذا كان سيد الكون ونقطة ارتكازه فعلا .. وكل شيء خلق مسخرا له وتحت تصرفه .. وأنه أشرف مخلوق فيه .. وإذا كان ما دونه خاضع لقانون البدء والإعادة، الماء .. النبات .. الكون .. ولا ينتهي .. فكيف ينتهي سيده إلى لا شيء .. بل الإنسان باق، وجوهره ليس الجسم المتحول إلى تراب .. فليس الجسم سوى وعاء للإنسان الذي هو الروح والعقل .. فإذا تحطم الوعاء بقي الإنسان واستمر جوهره .. وليست هذه الدنيا سوى أول فصول حياته، وأنه باق في حياة خالدة لا تبيد .. إذن في عقيدتنا فلسفة إنسان آخر له غاية أسمى ووجود آخر أرقى من مجرد الحصول على المتع اللَّحظية، وجود مهدَّف، يمثل حقيقة الإنسانية التي تتجاوز علائق الأرض إلى كمالات السماء. وتتجاوز قِصَر الحياة إلى امتداد آخر ليس فيه مطلق المتعة الزائلة، بل المتعة المطلقة التي لا تزول .. وهذا المستوى العالي من التصور هو الذي يليق بمكانة الإنسان، تصورٌ لا يتسع لها حياة قصيرة وغايات واطية ودوافع جسدية .. هذا التصور يجيب بالحجة والبرهان على تساؤلات الحياة القلقة .. نعم يستحق أصحاب الحضارة المادية أن نهديهم هذا التصور الراقي مقابل ما أهدوه لنا من متع الحياة الدنيا ورفاهيتها .. عندهم أشياء جميلة ولكن عندنا الأجمل .. عندهم رفاهية الإنسان ولكن عندنا الإنسان .. وإن فلسفتنا لتحمل معاني كمال الإنسانية .. فلسفة ربانية عليا غير عبثية لاتنتهي بلا معنى تحت رحى جدلية الصراع المادي كعالم الافتراس .. وأن نرمى بتهمة الكسالى الذين أداروا ظهورهم للدنيا في انتظار حياة تعوضهم ما حل بهم من الخيبة والتخلف، وأننا أمة مخدرة بأفيون الغيب وعالم الميتافيزيقا، فهذا كل ما يمكن أن نسمعه من الرد على فلسفة الإنسان الأكمل .. مع أن الإسلام يدعو إلى استنفاد كل ما في الحياة من طاقة نفعية لصالح سعادة الإنسان، قال الله: (وسخر لكم ما في السماوات وما في

الأرض جميعا منه) (والأرض وضعها للأنام) فإذا كان بُناة الحضارة يبحثون عن السعادة، فلماذا لا يبحثون عنها أيضا مطلقة خالدة غير منقطعة وهي حياة الجنة ونعيمها، وإذا كانوا يبحثون عن الإنسان الراقي فلماذا لا يبحثون عن الإنسان الرسالي الخالد صاحب الهدف الأسمى والنظر الأبعد الذي يصل الأرض بالسماء، فخير من أن يمثل وجوده العبث أن يكون له هدف ومغزى، وخير من أن يمثل موته العدم أن يكون له اتصال أوسع وحياة أكمل ومتعة أسمى، فلئن ذهب الجسم وفني بقيت الروح .. وخير من أن تسقط حيلته أمام لغز الحياة أن يكون له منهج حياة وطريق واضح يسير عليها وغاية عظيمة ينتهي إليها .. وهذا هو الجديد الأهم الذي عندنا .. معرفة صاحب الإيجاد والإمداد والإرشاد من هو؟ .. إدراك فلسفة الحياة الرسالية التي تحقق الكمال البشري .. كشف حقيقة اتصال حياة فانية بمتع حياة أخرى لا تنقضي .. تحقيق التوازن بين جانب المادة والروح وتوفير لكل غذاءها .. وهذا ما لا تستطيع حضارة التجربة والمعمل أن تصل إليه، تماما كما أنها لاتستطيع أن تصل إلى أسرار الروح، وما هية العقل وعناصر الوجدان (يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ)[1].

ولو أن المنبهرين بالحضارة الغربية نقلوا لهم مفاهيم كهذه، فقالوا للغرب إن كان لديكم جمال الحضارة المادية .. فعندنا جمال الحضارة الروحية .. نعرضها عليكم ربما تجدون فيها لذة جديدة تروق لكم غير لذة الغرائز .. اللذة المعادلة للجسد وهي لذة الروح .. ولذة اكتشاف الحقيقة الأولى .. ولذة معرفة سر الوجود .. والتخلص من قلق التساؤل في حقيقة البدء والمعاد، والسبب والمسبب .. إنكم تحبون المغامرات فغامروا بحثا للوصول إلى خالقكم، وذلكم أعظم اكتشاف على وجه الوجود، لأنكم به ستكتشفون من أنتم، ولماذا خلقتم، وأنكم ما جئتم عبثا لتنتهوا عبثا!.

1- [الروم : 7].

الحرية الدينية في الغرب بين الشعار والتطبيق

المواطنة المتساوية .. التعايش .. تعدد الثقافات .. الدين لله والوطن للجميع .. عدم ازدراء الأديان.. شعارات زينت الحضارة الغربية بها نفسها طويلا وتم تصديرها إلى العرب والمسلمين كقيم إنسانية عليا يجب احترامها، لكن ما هو موجود هناك هو محاكم التفتيش لتغيير دين المسلمين ولكن عن طريق مسميات نفاقية تلميعية لجريمة الجبر على التحول الديني باتفاق أوربي " فقد أعدَّت الدُّوَل الأوربيَّة وغيرها خُطَطًا مُحكَمة لصَهْرِ المسلمين لديها في مُجتَمَعاتها، وأطلقت على ذلك: الدمج الاجتِماعي" [1].

فماكرون يطلق مصطلحات مثل إسلام التنوير، أو الإسلام الفرنسي، واحترام القيم العلمانية؟ ومحاربة النزعات الانفصالية ومنع الانعزالية الإسلامية، كما خطب في ضاحية باريس في أكتوبر من 2020م ويتحدث في لقاء مع مجلس شكله بيده في فبراير من 2023م أنه أغلق 900 مسجد ومؤسسة إسلامية، ويفخر أنه نفذ نحو 28 ألف تفتيش للمساجد والمراكز الإسلامية وتحت هذه الإجراءات يتم الدمج .. والتذويب .. وطمس الهوية بتغريب ثقافة الأقليات .. منع المظاهر الإسلامية في المؤسسات والمنتديات كالحجاب، والمايوه الساتر، وخضوع منع الأذان في بعض الدول للاقتراع .. ونتساءل عن أي انعزال يتحدث ماكرون؟ إذا كان المواطن الفرنسي المسلم يطبق القانون ويحترم مبدأ التعايش، هل لن يكون مواطنا صالحا إلا بأكل الخنزير وشرب الخمر والمشاعية الجنسية، والزواج المثلي (الشاذ) وترك الأسرة عرضة لقيم الجندرة والانسلاخ من الإسلام؟ إنهم يطلقون مصطلحات فقاعية تستهمج العقول وتستغبيها وإنما هدفهم التذويب التام .. وليس مجرد الانفتاح والتعايش بل تدوير الهوية ليتحول المسلم إلى غير مسلم سواء علماني مسيحي لاديني بوذي المهم لا إسلامي.

وهناك من الدول مَن ترفض الاعتراف بالدين الإسلامي رسميا عدا القليل منها رغم وصول الأقلية إلى الملايين أحيانا .. ثمة إجماع أوربي همجي على ازدراء الدين الإسلامي عن طريق تناوب تلك الدول على الإساءة إلى كتابه المقدس بإقامة مهرجانات إحراقه، وإلى رموزه برسوم مسيئة من مؤسسات استعمارية ساقطة ومنافقة أجمعت على ممارسة هذه الجريمة الهمجية وتشجيعها على كل المستويات، وبطريقة متكررة ومقززة تكشف عن مستوى غير معقول من القبح والسلوك الأرعن الذي يحكم هؤلاء .. وليس كل الديانات تواجه هذا

1 - muslims_world/net.alukah

القمع فقط الدين الإسلامي لأنه دين تحرري مستقل يمتلك منهج حياة لأفراده وثقافة متكاملة وبه هزم بعنفوان تسيد ثقافة الإنسان الغربي وتسلطه على ما يراها أطرافا تابعة لقطبيته المتفردة.

ثانيا– من إجراءات التحويل الديني القسري غير الظاهرة تتَبُّع أجيال المسلمين الناشئة في الغرب إلى الجيل الثاني والثالث و" يرى مهندسو الاندماج الغربيون أنه لا يوجد أمل في تغيير ذهنيات أو عقليات وشخصيات الجيل الأول من المهاجرين بما ينسجم مع مفردات الحياة الغربية. ولذلك يجب أن تخصص جهود جبارة لتغريب الأجيال التالية من الأبناء والأحفاد، الذين يعتبرون أكثر قابلية من آبائهم اندماجاً في الحياة الغربية، وذلك من خلال التعليم في المدارس والجامعات، والعيش مع الآخرين في الأحياء السكنية، والاختلاط معهم في الأندية الرياضية والمراكز الاجتماعية والثقافية وغيرها.

يقر هؤلاء الاستراتيجيون بأن رهانهم الأساسي يقع على الأبناء والأحفاد دون الآباء، أي الجيل الثاني والثالث من المهاجرين" [1] وهذا يعني أن الغرب يخطط لنتائج مستقبلية صفرية للوجود الإسلامي ولا تسمعوا كثيرا لأحاديث أسلمة الغرب وتحول الناس إلى الإسلام فهم يعرفون ماذا يريدون، فقد جندوا لذلك مؤسسات مثل المؤسسة المدنية بهولندا السوسيال التي تعمد إلى خطف الأطفال لأتفه الأسباب وتنشئتهم على الثقافة الغربية وعن طريق إدخالهم في جميع الأنشطة المدرسية ذات التربية الانحلالية وإيلاء أطفال المسلمين عناية خاصة حتى تتشرب قلوبهم بحب الثقافة الغربية المنفلتة وكره أسرهم وثقافتهم، أما الأبناء من أم أوربية فغالبا يكونون من نصيبها وإذا كانت مسيحية فهي المتحكم الأول بصياغة ذهنيتهم.

من هنا نفهم انزعاج ماكرون مما أسماه الإسلام الإنعزالي ويريد به الإسلام المتشبث بالثقاة الخاصة، فهذه الجزر الدينية لا يريدها يريد صهر الجميع في بوتقة ثقافته وإلا بدأ الحديث عن تعشعش الإرهاب الذي يراد به الإسلام، في حين أن اليهودي والهندوسي والسيخي والبوذي بزيهم المتميز وطقوسهم الخاصة يتمتعون بممارسة حريتهم الكاملة، بل وتحرص تلك الدول على إبراز ثقافتهم ليقولوا نحن منفتحون على الحضارات، ولكنه الانفتاح الانتقائي.

وتأسيسا على ما سبق فإن ثمة تهديدات جدية بتذويب المسلمين في المجتمعات الغربية وهناك دراسة عن مؤسسة (بيو للأبحاث) في الولايات المتحدة الأمريكية تشير إلى أن عدد

---

1 – موقع rabicposta.

الأشخاص الذين تحولوا للإسلام في الولايات المتحدة يساوي العدد ذاته للذين تخلوا عنه، أي 23%، وهو الأمر الذي لم يحدث مع بقية الديانات .. وتوضح الدراسة أن النسبة الأكبر من الذين تركوا الإسلام هم من المهاجرين حيث بلغت نسبتهم 22%"[1]

صحيح أن بعض الخبراء أشار إلى أن العينة أجريت على الشيعة القادمين من إيران بصورة أخص ولكن الحديث هنا عن الولايات المتحدة الأمريكية التي هي أكثر الدول الغربية تسامحا مع الديانات لا سيما في ظل الحكومات الديمقراطية فكيف بدول متشددة مثل هولندا، وفرنسا، والدنمارك وغيرها؟

قد يبرز محام من حماة ثقافة التغريب باعتراض على هذا الطرح قائلا إن هذه بلدانهم وهم أحرار بها، وكان على العرب والمسلمين أن يبقوا في بلدانهم وشكرا للغرب أنه قبل بإيوائهم.

والجواب من عدة نقاط:

1- ليس الحديث عن المهاجرين بدرجة أولى بل عن الأوربيين المسلمين الذين حصلوا بالقانون على الجنسية، أو أنهم من أصل أوربي، أو أنهم ولدوا أوربيين وصاروا أقلية مجتمعية مثلهم مثل المسيحية في الدول العربية والمسلمة وكل أقليات الديانات بما فيها تلك الملل والنحل الغريبة منذ بزوغ الإسلام ولم يجد اليهود في القرون الوسطى سوى بلاد المسلمين للفرار من بطش المسيحيين واضطهادهم .. ولا يتدخل الحكام في اختيار بطارقتهم وبابواتهم .. ولم نسمع من يزدري دينا من الأديان إلا بنقاش علمي مسؤول .. ولم نسمع مسؤولا مسلما ولا مواطنا يشكو من صجَّة أصوات أجراس الكنائس المزعجة على مدار اللحظة لأنهم يحترمون أصحاب الديانات الأخرى كون الحفاظ على دياناتهم دين من رب العالمين قال الله : (... وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ) [2].

2- اقتضى تناقص الآيادي العاملة في الدول الغربية، بعد الحربين العالميتين الأولى والثانية، وتضخم الصناعات، وتفكك الأسرة وقلة الإنجاب استقدام عمالات من العالم الثالث مع مراعاة التنوع والتوازن في الجنسيات وكان منهم المسلمون فصار :" يسهم مئات الآلاف

---

1 - تنظر موقع الجمعية الكويتية للتواصل الحضاري.

2 - [الحج : 40].

العمال الأجانب في اقتصاديات دول أوروبا المتطورة والتي بحاجة إلى الأيدي العاملة" [1] تقول العربي بوست :" يعود إلى حاجة الاقتصاد الغربي والأوروبي تحديداً للمزيد من السكان بشكل عام، والمزيد من القوى العاملة، خاصة الزهيدة، وذلك في سبيل الحفاظ على التوازن السكاني وبعث الحيوية والروح في الواقع الاجتماعي والاقتصادي الغربي، خصوصاً في ظل التضاؤل الرهيب للنمو السكاني وتراجع معدلات الإنجاب المحلية [2].

لذلك استقبلوا مئات الآلاف من السوريين وغيرهم من دول الربيع العربي التي أحدثوا فيها الفوضى والخراب؛ لتفريغ المنطقة من أهل السنة عدوهم التاريخي، ومن ثم تذويبهم هناك وسد النقص المتزايد فحققوا بذلك هدفين ونجحوا في التخطيط، ولا نبدي هنا مظلومية تجاه حربهم، فيجب أن يكون هذا واضحا لنا، بقدر ما نحذر من النفاق وسواد طوايا أهدافهم، وأن شعارات الإنسانية صناعة تضليلية في المقام الأول .

3- لم يقل الغرب أن بلدانهم هناك في القارتين الغربية حين قدموا لاستعمار جميع العالم واستنزفوا خيراتها وتركوا شعوبها فقيرة وجرفوا ما قدروا عليه من السكان للعمل عندهم كسخرة أو بأجور متدنية، ولا يزال الغرب قواعده وشركاته ومصالحه في جميع أنحاء العالم تنشر الفوضى والصراعات، فتحدث القلاقل وينتفي الأمن الوجودي والغذائي وتحدث الهجرات القسرية، فالغرب ليس جزءا من حل المشكلة بل هو جزء من صنعها، فلاشكر للدوائر السياسية الغربية ولا فضل ولا منة .. فأولى أن يقال لها أن ترفع يدها عن الشرق وليس العكس.

1 - موسوعة الويكيبيديا.

2 - موقع العربي بوست. arabicpost.

حساسية اليمني تجاه الآخر

عندما تدرس التاريخ تجد أن ثمة معضلة في داخل الشخصية اليمنية وهي عدم التكبر على الآخرين ليس إلى حد الاعتدال بل إلى حد ضعف الثقة بالنفس وقابلية الاستلحاق لأي وافد .. فما يلبث أن يكون مقدما واليمني بين أهله مؤخرا مع أن الله يقول (والأقربون أولى بالمعروف) (وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله).

تعالوا إلى قراءة بعض سطور التاريخ.

عندما نكَّل الملك ذو نواس بنصارى نجران في القرن السادس الميلادي لم ينتظر الرجل السبئي (دوس ذو الثعلبان) تشكُّل حركة رفض للطغيان وتصحيح المسار .. بل ذهب مباشرة إلى قيصر الروم النصراني لكي يستنصره على الملك اليمني الطاغية وهو يدرك أنه يطلب التدخل الأجنبي .. وأي تدخل لن يكون بلا ثمن فالاحتلال يعني مصادرة القرار المحلي بطبيعة الحال .. وهذا ما تم فعلا فقد أوعز قيصر إلى إخوانه النصارى في الحبشة بنجدة المسيحيين فدخل إرياط ب 70 ألفا ثم من ورائه أبرهة واستمر حكم الأحباش الذين جاؤوا مخلّصين خمسين عاما من 525 م إلى 570 م..وفيه هدموا الحواضر وقصور بينون وسلحين وغمدان وعاثوا في الأرض فسادا فقال رجل من أهل اليمن – وهو يذكر ما ساق إليهم دوس من أمر الحبشة :

(لا كدوس ولا كأعلاق رحله) أي ما مثل دوس وما جلبه رحله على اليمن من الذل والعار بعد العز والمنعة فصارت في الناس مثلا.

وفي هذه القصة قال ذو جدن الحميري:

هونكِ ليس يرد الدمع ما فاتا ** لا تهلكي أسفا في إثر من ماتا

أبَعد بينون لا عين ولا أثر ** وبعد سلحين يبني الناس أبياتا

بينون وسلحين وغمدان : من قصور وحصون اليمن التي هدمها أرياط . ولم يكن في الناس مثلها .. وكان الأحباش يريدون إنهاء خرابهم بهدم الكعبة.

ثم ظهرت مقاومة لحكم الأحباش القهري ولكنها كانت ضعيفة فثمة مشكلة إضافية تتمثل في بعض سادات اليمن بخاصة المحيطة بصنعاء وهي القدرة على تنويمهم بالإعاشات من

الحاكم أيا كان، فبتأمين المدخول الشخصي يتحول العامة تبعهم إلى مخزون حربي مع غياب معنى للمسؤولية فكانوا مع الحاكم أكثر من هوى الشعب .. من هنا لجأ سيف بن ذي يزن لخطة استقدام الأجنبي لمحاربة أجنبي قبله وبمعنى أوضح إلى تحديث الاحتلال باحتلال جديد .. فذهب إلى كسرى فارس فأمده بنزلاء السجون فتحقق بهم النصر لفارس على الروم في اليمن .. ثم أودت عقدة الأجنبي بالملك سيف نفسه حيث اتخذ له خدما وحراسا من الأحباش فقتلوه انتقاما؟! كأن اليمن خلت من حراس أمناء! فخلت الساحة للفرس واستمروا حتى مبعث سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فأقر باذان على حكمه بعد دخوله الإسلام كون الأرض لله والحكم لله ومسلم يحكم مسلم .. ولا اعتراض على ولاة الحكم المركزي بما أن الأمة صارت كيانا واحدا من حكم الخلفاء حتى العثمانيين لكن علامة التعجب فقط توضع أمام الكثير من الضيوف الذين حكموا اليمنيين من الهادي إلى الرسوليين إلى الأيوبيين بقيادة طوران شاه إلى النجاحيين إلى الطاهريين والأخيرون اختلفوا في أصلهم..عدا الدولة الصليحية التي أخذت نصيبها حتى رضيت من الولاء للخارج أيضا عن طريق ارتباطها بالفاطميين بمصر .. ونتف من سلطنات غير ذات تاريخ.

وفي العصر الحديث وبعد أن استمرت ضيافة بريطانيا نحو قرن وثلث تسابق زعماء اليمن على ربط الولاءات وفتح أبواب التدخلات وحكم اليمن من الداخل والخارج وصياغة مستقبله عن طريق دول مثل الاتحاد السوفيتي ومصر ثم بعد دخول الحوثيين صنعاء تسابقوا على تقديم قرابين الولاء والطاعة لدول الإقليم وبقيت الحساسية مفرطة فقط تجاه التدخل اليمني في شؤون اليمني فهو احتلال لايمكن قبوله فيما يستمتعون بواقع الاستلحاق المذل ويخلصون له أشد الإخلاص.

طبعا ليس حديثي منصبا على رفض التسامح بل على رفض القابلية للاسترقاق من شعب يقال عنه أصل العرب .. ورفض ضعف الثقة بالنفس التي باتت ظاهرة .. ليس فقط على مستوى الحكم بل حتى على مستوى الإدارة والشعب فمعلوم أن دول العالم تعطي مواطنيها الأولوية في كل شيء إلا في اليمن فقد كان غير اليمني يأخذ الوظيفة بالدولار واليمني يحمل أعلى المؤهلات في نفس الوظيفة ولكنه مدفوع بالأبواب ولا يُعترف بمواهبه لا شعبيا ولا رسميا حتى إذا غادر بلده وأظهر تميزا وإبداعا في الخارج ذهب اليمنيون يهللون لنجاحاته وتفوقه وافتخارهم بيمنيته ولا يدركون أن لخروجه قصة اسمها غربة اليمني في بلده.

واليوم لا يصحح الخطأ بخطأ أكبر فربما وجدنا نزعة لليمانية ولكنها قد تنجح في يمننة القشرة الخارجية ويبقى الجوهر متبلدا .. ستجد أن من النخبة ورجالات اليمن من يتحدث عن توجيهات السفير الأمريكي وكأنه ولي أمر اليمنيين بل ومنهم من يفتخر أن يقال عنه تابع بريطانيا أو تابع فرنسا أو أمريكا.

ماذا أفعل بحركة مثل أقيال أيضا تحمل شعار يمننة اليمن من الهاشميين اليمنيين ومنهم من يزدري الهوية اليمنية ومكون ضمير الأمة بحجة أنها قرشية ويمجد شخصيات ثارت على خيار اليمنيين في دينهم ثم هو من الداخل قد أشرب قلبه بحب الغرب وثقافة الغرب فيكون السعي للدخول من بوابة اليمن ليس إلا للقفز من نافذته إلى العراء وباسم اليمننة .. فتغيير المنكر لايكون بما هو أنكر .. والتضييق على مكون لايكون بالانفتاح على نادي المستعمرين فنجد من يتأفف من التاريخ الهجري ويدافع عن الميلادي ويتبرم من الصبغة الإسلامية ويناضل من أجل التجربة الغربية العلمانية التي حكمت العرب مائة عام وفشلت .. نعم لا مكان للمذهبية ولكن لا معدى عن مرجعية الأمة وإرادة الأمة التي يجب أن تحترم فلايؤتى اليمنيون من عقدة الأجنبي المتأصلة مرة أخرى .. (والحديث عن البعض لا الكل).

فلسفة البخل والكرم

إذا كان للغِنى من مُسمّى حقيقي، فيجب أن ينصرف من الحُزم الورقية، والأرقام الحسابية، إلى معاني رصيد الإنسانية الحقة .. فالغِنى الحقيقي ليس برصيد المال إن ملَكْتَ اشتريت .. بل برصيد الإنسانية إن ملكت اعتليت.

فما يعني مال مكدس وإلى جواره أخشن طبعا، وأغلظ كبدا، ينام قرير العين على إيقاع أنين الإنسانية المعذبة، وهو يملك ترياق أدوائهم .. فيضحي برصيد إنسانيته ليربح رصيد ماله .. يخشى على غدٍ مرهون بكف الغيب ويَضِنُّ بما يصلح يوم غيره .. يحسب أنه إن أعطى نقص .. ولئن كان المال أحد مصادر السعادة؛ فإنما تتحقق فعليا بين طرفين مرسل ومستقبل .. فإن أراد أخْذَها وجب عليه أن يعطيها.

وإنها لصورة غاية في الغرابة، أن نتصور إنسانا يستمتع بماله وسط حُزْن المكلومين .. ويضحك بملء شدقيه وسط بكاء المحرومين .. وأبعد من هذا وضعا أن يكون بؤس الناس مصدر سعادته .. إذ تكون غريزة السباع المتوحشة لديه قد غلبت على طبع الإنسانية الرقيقة.

على أنه من أراد أن يدير حساب الإنفاق في وجوه الخير بمعيار الربح والخسارة الدنيوية، فلن يخسر أيضا، " فإنه ما نقصَ مال عبد من صدقة" [1] كما قال صلوات الله عليه .. بل سيربح .. وإن المنفق لَيفتتحُ – لو علم– بالقليل من المال ممالك النفوس الكريمة، ولو جيّش جيوش الدنيا ما استطاع التربع على عروش قلوبها كما يستطيع بالإحسان .. وسيجد له في كل واد دارا .. وفي كل مُلمّة أنصارا .. وسيربح مواقف إخلاص المحبين (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان) [2] .. ولا غنى أغنى من رصيد أناس تلهج ألسنتهم بذكر محامد صاحب الفضل .. وأي شيء أثمن من امتلاك حب الناس، فمن جاد بالموجود ملك أكرم ما في الوجود .. وكم من آسر لقلوب الألوف بقليل من صنائع المعروف .. لذلك قيل أسعد الناس من أسعد الناس .. وفي صحيح مسلم قيل يا رسول الله:"أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير، ويحمده الناس عليه؟ فقال:"تلك عاجل بشرى المؤمن" .. وثلاثة أشياء تسقط المرء: حب المال، والأنانية، وحب السيطرة .. وثلاثة ترفعه: التضحية، والوفاء، والفضيلة، والملاحظ أن إحياء

---

1 – رواه أحمد.

2 – [الرحمان:60].

قيم الإنسان وجميل فضائله في عيون الآخرين تستوجب التنازل والتضحية ولو بالقليل، وإن لم يجد القليل فبالكلمة الطيبة والوجه الطلق.

ولعل أحدنا يبخل بالخمسين ريالا على فقير محتاج، ليعطي بسخاء 50000 ألف ريال في حادث صدام عارض مثلا، لم يكن يحسب حسابه .. ولو رزق حظا من اليقين لعلم أن الصدقة تقي صاحبها مصارع السوء .. فمن يعطي ويهدي في نهاية المطاف؟ .. ومن يمنح ويمنع؟ إنه الرب تعالى (وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ) [1] أي أعطى فأرضى.

إننا إن استطعنا إعمال الذكاء في بذل القليل .. فإن الذكاء لن يمنعنا من ذهاب الكثير والكثير ومن حيث ندري ولا ندري .. بل الذكاء بالتحايل على فعل الخير هو الغباء الذي يلحق النكاية بالنفس بغير جريمة سوى جريمة داء البخل وعدم الشعور بالمسؤولية.

وإن هناك لنوعا آخر من الناس لا عدو أعدى لهم من أنفسهم التي يزعمون أنهم يكافحون من أجلها .. يلمُّون المال لمّا .. فيأخذونه من غير حِلِّه ويضعونه في غير مَحَلّه .. وهم إنما يربحون النقود ليخسروا أنفسهم .. فما غِنى أناس بغنىً، وهم يبنون بيوتهم على حساب دمار بيوت الآخرين .. وما سعادتهم بسعادة وهم يطعمون أطفالهم بلقيمات أطفال الآخرين، فيحصدون كثيرا ولكن الكراهية .. ويكسبون غفيرا ولكن اللعنات .. ويتعرضون يوميا لجلد سياط النظرات .. وجرح سهام الكلمات .. وكل ما بقي من سعادة المال المكدس هو أن يملأ أحدهم خارطة بطنه برطلين من الطعام الشهي .. ويستر جسمه بثوب من القماش الناعم .. ويريح ظهره بمترين من الفراش الوثير، وتلك هي كل القصة.

أما من حسب حساب الإنفاق من باب التجارة مع الله، فلا يحتاج المرء سوى إرادة العطاء، إنك أحيانا تدس يدك في جيبك ولا تدري أن فيه شيئا ذا بال، فتجد فئة 100 أو 200 أو 500 أو 1000 تزيد أو تنقص .. إن هذه النقود الخارجة عن حساب رصيدك، هي كالصدقة التي تعطيها من فضول مالك فتحسب في رصيد حسناتك، وأنت لا تحسب حسابها.

وهناك بعد فلسفي آخر يلخصه النبي صلوات الله عليه كما في صحيح البخاري حيث قال:" أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله؟" قالوا يا رسول الله، ما منا إلا ماله أحب إليه، قال: "فإن ماله ماقدم ومال وارثه ما أخر".

هل فهمنا بعد النظرة هذه التي تتجاوز التفكير اللحظي؟ .. إن النص يقول: هل من أحد ينظر إلى مال أحد وارثيه فيراه أحب إليه من ماله؟ فإذا كان ماله أحب فلا يدعه لورثته كاملا، بل إنه يستحق أن يطمئن على مستقبله أيضا ويرسل جزءا مما جمع حتى لايعض على

---

1 - [النجم 48].

يديه (يوم لا ينفع مال ولا بنون) ويقول: (يا ليتني قدمت لحياتي). سماها حياتي لأنها هي الباقية.

فعجبا لأناس يركضون في الدنيا ركض السباع في البرية؛ ليملؤوا خزائنهم بالذهب والفضة .. ثم يتركون كل شيء وراءهم لأناس لايدرون أَيَدعُون لهم أم يدعون عليهم؟ ثم يخرجون منها كما دخلوها أول مرة، وليتهم وقد تركوها تركتهم .. بل هي وراءهم هناك، فلئن كانوا قد جمعوها في الدنيا من حرام لتكون مصدر إمتاع، وسعادة، ورفعة، فستستقبلهم هناك لتكون مصدر عذاب، وذلة، وتوبيخ، ومن باب التهكم يسمي الله ما أعد لهم من العذاب بشارة (فبشرهم بعذاب أليم) (... وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ) [1].

كيف يكون العذاب بشارة؟ يُسأل عن هذا من يكنزون الذهب والفضة لذات الكنز ولا يؤدون حقها، فإذا كانوا ينتظرون بذلك نفعهم ومتعتهم، فليبشروا لا بما يسرهم بل بما يسوءهم، كنزوها لكي يرفعون بها جباههم تشامخا فستكوى بها جباههم، ولكي يتكئون عليها لبلوغ غاياتهم، فستكوى بها جنوبهم، ولكي تحمل عن ظهورهم أحمال الدنيا ومشاقها فستكوى بها ظهورهم، وهكذا يجمع الإنسان الشحيح البخيل ما يعذب به نفسه يوم القيامة (يوم لاينفع مال ولا بنون* إلا من أتى الله بقلب سليم) أعاذنا الله من هذا المآل، وهدانا إلى سبيل الرشاد.

---

1 - [التوبة 34 - 35].

العدل بين أهل الدنيا وأهل الدين

قال تعالى: (وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ * قَالَ فَعَلْتُهَا إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ)[1].

تعكس الآيتان الجليلتان موقفين مفترقين تمام الافتراق، الموقف الأول موقف فرعون وهو يحاسب موسى على القتل الخطأ لأحد الأقباط، ولا يحاسب نفسه على قتل ذكور بني إسرائيل خوفا على مستقبل ملكه من رجل من بني إسرائيل تنبأ كاهن أن زواله سيكون على يديه، فيكفي أن يكون في بني إسرائيل عدو افتراضي ليجفف نسلهم .. كأنه لاقيمة لمكون مجتمعي كامل يعيش تحت سلطته، في حين أكبر على موسى أن يتجاسر على قتل أحد أبناء جنسه وسماها فعلة (وفعلت فعلتك الذي فعلت)، سماها فرعون (فعلة) تهويلا لها، وتضخيما لشأنها فهي عنده فعلة كبيرة؛ لأن المقتول قبطي من السكان الأصليين، حتى وإن كان القتل من موسى خطأ.

وعلى عكس ذلك تماما الموقف الثاني الذي يمثل النبوة وعدالة السماء، وهو موقف موسى – عليه السلام – من قتله رجلا غير محارب فنجده يعترف بتلك الواقعة، ويحكم على نفسه بالضلال أي بالجهل، أو كما قال بعض المفسرين جهله بمعرفة حكم قتل كافر غير محارب قبل نزول الوحي عليه، مع أن هذا القبطي الضحية كافر، ومن قوم اضطهدوا قوم موسى أكثر من 400 عاما كما جاء في سفر التكوين، يقتلون أبناءهم ويستحيون نساءهم، لكن الإسلام لايجيز قتل كافر غير محارب، ولا يصح أن يؤخذ بريء بجريرة مجرم (... وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ...)[2] فالذي أحيا النفس هو الذي يميتها، ومن قتل نفسا بغير نفس فكأنما نازع الله في تقرير نهاية من خلق، حتى وإن كان كافرا فالله ما خلقه عبثا، وما هو مطلوب هو هداية الكافر لا قتله، لذلك كان قتل نفس الإنسان البريء من أعظم الجرم عند الله، قال: (مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً ...)[3] فمن يستهن بحياة واحد فقد

---

1 – [الشعراء:19– 20].

2 – [الإسراء : 15].

3 – [المائدة : 32].

استهان بإرادة الله في خلق الناس جميعا. لذلك أقر نبي الله موسى بالخطأ ونسبه إلى الشيطان قال: (... قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ) [1] أي ليس عملا يقره الله، وعدَّه ذنبا: (وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ) [2] وكان قد ندم على ما فعل واستغفر: (قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)[3].

ذلك هو تناظر بين ميزان عدل حكم الله وميزان حكم الظالم.

ثم إن الجرم يزداد فظاعة أن يُقتل المؤمن البريء عمدا بغير ذنب؛ لأن ذلك يضيف إلى جانب إهدار دم نفس بريئة إهدارا لكلمة لا إله إلا الله العامرة بها قلبه، وتهوينا لقيمة عبادة يسجد فيها أكرم ما فيه على الأرض، إعظاما لخالقه وإقرارا بربوبيته، وهو السر الذي خلقه من أجله، ولذلك قاتل المؤمن عمدا لا مخرج له من عذاب الله الخالد، ولا من غضبه ولعنته حيث قال المولى علا وعز: (وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً) [4] .. رحمتك اللهم.

1 – [القصص : 15].

2 – [الشعراء : 14].

3 – [القصص : 16].

4 – [النساء : 93].

التفكير العضلي

التفكير العضلي هو السلوك الغرائزي المادي في ثقافة التعامل مع الآخر، فيسبق النشاط الحسي تفاعل العقل المجرد، أي افعل ثم فكر، وليس فكِّر ثم افعل . وهذا السلوك الجافي يغلب على التجمعات المحاطة بالجهل؛ لأنه فنها الغالب في ثقافة الاتصال والتواصل .. وإنما سلاحها مخالب السباع المفترسة .. ومناقير الطيور الجارحة .. أما الإنسان بقدرات العقل الواعي والشعور المدرك فوجود مهمش، ولغة ترفية غريبة بلا طرف مستقبل.

وهاهنا وفي بيئة كهذه، بعيدة عن الحضر والتعليم، وفن الاتصال الإنساني، وثقافة المنطق، تظهر جماعات الافتراس العنفية التي لا تفقه معنى الحوار، ولا التنازل للآخر، ولا تؤمن بتغليب التفكير الجَمعي المنظم على التفكير الذاتي المرتجل .. حربية التفاهم .. ردود أفعالها عاطفية حادة في سياق التغالب والتزاحم .. لغة سنانها أفصح من لسانها .. تدفع بالتي هي أخشن أكثر من التي هي أحسن .. تطيش سهامها يمينا وشمالا لأتفه الأسباب .. تجيد نظرات الغضب أكثر من فن الابتسامة .. وتتعقد المشكلة أكثر عندما يتحول السلوك الغرائزي إلى ثقافة يُنْظر إليها كدليل شجاعة وأنفة وحزم، بدل النظر إليها كدليل رعونة وخشونة، هي جديرة بعالم الغاب وقانون الافتراس من منظومة القيم الإنسانية النبيلة، وينظرون إلى التفكير المركزي أو الجماعي المنظم كاسترقاق وعبودية.

وإنما ينظرون إليها هكذا لأنهم لايعرفون كيف يمكن أن يكون الإنسان قويا مع كونه منظما .. عزيزا مع كونه متواضعا .. شجاعا مع كونه مخلَّقا .. وغنيا مرتبا مع كونه نظيف اليد .. فلايزالون يرون في التواضع والجنوح للسلم جبنا ومؤشر ضعف .. وفي خفض الصوت غياب حجة وصعوبة موقف .. وفي نزاهة اليد عجزا وانعدام ذكاء .. ويغشاك الشعور بالأسى وسوء الطالع عندما يحترمونك فقط إذا قابلت كل فعل برد فعل يساويه في القوة معاكس له في الاتجاه .. فهذا وانعم به .. أما فضيلة التنازل فنقيصة لا يستحق صاحبها الاحترام .. وهي نتيجة بَدَهِية فعندما يطغى حضور الغريزة الملهمة لحق القوة يتضاءل معها حضور العقل الملهم لقوة الحق .. حيث يعيش المجتمع في وضع مقلوب .. معكوس النظرات

.. معكوس المفاهيم والتصورات .. وبيئة هذا حالها يكون كل شيء موجودا فيها، سوى الإنسان العاقل الذي أراده الله أن يكون.

وهو وضع لم يعد يفْرُق انتهاجه كثيرا بين أفراد البيئة البدائية المغلقة من جهة وبين أفراد وسكان الحضر من جهة ثانية، بين التكتلات العصبوية القبلية المستقوية وبين مكونات حضرية سواء (أيديولوجية) أو حزبية، فلقد ساءت الأخلاق وتدنت القيم الانضباطية بشكل مخيف، وصار الوضع لدينا إن لم نقل يحتاج إلى إعادة انتاج فقد بات أحوج ما يكون إلى إعادة قراءة المفاهيم السلوكية كما هي في أصلها لا كما هي في واقع الناس.

سادسا- تأملات في المعرفة

الدُّوار الميتافيزيقي في كتاب:

(الإسلام بين الشرق والغرب)

يقوم أصل محتوى كتاب (الإسلام بين الشرق والغرب) للمفكر الكبير والمجاهد علي عزت بيقوفتش – رحمه الله– على حقيقة بطلان المادية الصرفة الشرقية والغربية، التي قدمت الإنسان ككائن مادي طبيعي لا يختلف عن بقية الحيوانات إلا بدرجة الذكاء واللغة والسير واقفا .. وليس بالنوع والروح والأخلاق.

فأثبت المؤلف مركَّب الإنسان الثنائي بين المادة والروح إثباتا علميا، من خلال تاريخ إنسانية الإنسان التي اعتمدت على ثنائية تكاملية بين الروح الملهمة والمادة الغريزية الدافعة .. كتصرف فطري غريزي ليس ناتج تطور، بل هي حالة إنسانية ملازمة، أمكن رصدها من بقايا آثار الإنسان الغارق في القدم، وظلت تلازمه حتى اليوم.

ومن قراءتي الأولية للكتاب خرجت بمفاهيم أبلورها في هذه التأملة، مع إضافة بعض الإضاءات المعززة لنتائجه العلمية المبهرة.

– البحث عن القوة الخفية (الميتافيزيقا):

كثير من تصرفات الإنسان لايمكن أن تفسَّر ماديا نفعيا كما دأبت المادية على جعلها كذلك، بل تشير إلى وجود ارتباط داخلي بشيء لاعلاقة للمادة به، فظل الإنسان يبحث عنه كطرف اتصال ثان مع الروح .. يبحث عنه في النجوم، والشجر، والحجر، والأنهار، (الدوار الميتافيزيقي) يلتمس مطلوبه بين ثنايا تلك المخلوقات، فيعبدها ويلتمس منها النفع والضر ويقدم لها القرابين والنذور، ليروي عطش روحه .. وحتى اليوم لاتزال المعبودات، والمعابد، والكنائس، والمساجد، تبحث عن المعادل الموضوعي للجسد وهو إشباع الروح بالطاعة للإله القوي الذي يملك ما لا يقدر عليه الإنسان.

هذه النوازع الروحية المتطلعة لا نجدها في غير الإنسان، فالحيوان يتصرف بشكل مادي غريزي ولا يحمل في طبيعته غريزة الخوف من قوة خفية تتحكم فيه، بل يخاف خوفا بيلوجيا من حيوان مفترس يراه وحسب .. وقد كان الأقرب للمنطق في حق الإنسان طبقا

للتفسير المادي أن يكون أكثر تحررا من خوف شيء لايراه؛ لأنه أصلا يتصرف مع الطبيعة بفوقية كونه سيدا عليها، ولاشيء يرى في المادة يعجزه عن تحقيق مآربه منها إلا وأخضعها لصالحه، لكنه – ويا للعجب – يذهب ليستخلص لنفسه جزءا منها جامدا أخرسا أبكما أحيانا أقل منه قيمة وقدرة ليجعله ربا له؟ حتى لربما لجأ لصناعة إله بيده؛ ليخر لّه ساجدا بمحض إرادته، وهو يعلم لو شاء لتركه هشيما، لكنه يتمسح فيه ليملأ رغبته الكامنة في أداء طقوس الطاعة والشكر لرب يسيّر الكون ويفعل أفعالا يعجز الإنسان عنها .. فأين التفسير المادي من ظاهرة وجدانية، وهي الخضوع لشيء لا علاقة له بالغريزة المادية والتطور المادي؟!

لقد تحطمت إمبراطورية التفسير المادي وانتهت الشيوعية التي قوننت إنكار وجود إله، فعاد الإنسان مجددا في تلك الأمصار واستسلم لرغبة الروح وانهارت نظرية (لا إله والحياة مادة)، رغم امتلاكها كل مقومات البقاء المادي .. وصارت نظرية التطور وجدلية الصراع المادي أقل ترديدا وإلى حد الخجل، وقد كانت تعمل على جعل الإيمان بوجود خالق هو الشيء المخجل.

وقد استطاع علي عزت بيقوفتش رحمه الله في هذا الكتاب الرائد بما كان يمتلك من محصلة استيعابية كافية للنظرية الشيوعية وأساطينها، استطاع أن يتتبع النزوع الوجداني في كتابات رجالها أنفسهم، مثل كارل ماركس، وفريدريك انجلز، وفلاديمير لينين وغيرهم .. فهم إذ ينظرون للإلحاد لايخلو كلامهم من قيمة وجود إله.

– دوافع القيَم ودوافع المادة:

هناك قدرات ذكاء غير إنساني تتصل حتى بالجماد مثل برمجيات الحاسوب، إنها تقوم بأعمال لا يقوم بها الإنسان نفسه، لكنه ليس إنسانا ولا يعرف الإنسانية، وتفسر نواتجه بالتفسير المادي البحت، أما أفعال الإنسان فلايحكمها مجرد الذكاء، بل هناك قيم ضابطة إضافة للعقل، تتصل بالعواطف ورقابة الضمير، وأحاسيس الحب، والغيرة، والنزوع للحرية، وحب العدالة .. الخ فليس الإنسان إذن مجرد كائن عاقل، ولا آلية مادية برمجية، بل هو أعلى من هذه التسمية وأبعد.

نعم الحيوانات تتصرف طبقا لدوافع الغريزة المادية، فهي تفترس عند إحساسها بالجوع ولا تقاوَم غريزتُها بقيم الحلال أو الحرام؛ لأنها لا تشعر بهذه القيم كما تشعر بقيم المادة .. وليس كذلك الإنسان فقد يجوع والطعام بين يديه لكنه لا يمسه لأنه يعود لآخر غيره، فيردعه عن أكله دافع آخر يتصل ب(الإنسانية) وهو الخوف من سلطة الضمير (الفطرة السليمة) حتى وإن لم يعرف القوانين السماوية والأرضية .. فمن أين جاء هذا الشعور بالحلال والحرام وهل للتفسير المادي أي علاقة بهذه القيم؟

بعض الحشرات كالنحل تُميت العاجز منها لكبر سنها ونحوه، ويعود هذا إلى التفسير المادي، فمن لا يعطي لا يأخذ، ويعني ذلك الحكم بفناء العاجز، لكن الإنسان لا يقتل الإنسان العجوز العاجز أو القعيد المشلول أو حتى المجنون الذي يصدر منه إيذاء للغير، لا ينهي الإنسان حياته بالمبرر المادي كونه صار عبئا ماديا، بل ينفق عليه حتى يأتي شيء آخر لاعلاقة له به، فينهي حياته وهو الموت فقط، وهذا يعود إلى إحساس الإنسان بحرمة حياة الإنسان، سواء عرف الإنسان الدين أم لم يعرفه، وبالتالي يقف التفسير المادي أمامه متحيرا .. وربما حاولت تطبيق هذه السلوكية الحيوانية بعض الأنظمة العدمية المادية لكنها أفكار انتهت وتراجعت.

ويبحث الحيوان عن التزاوج، فينزو الفحل على الأنثى، وبجوارها ابنها أو أخوها أو فحلها الأول، لكنه لا يغار ولا يشعر بجرح الكرامة، وهذا التصرف أي عدم وجود رد فعل يفسر تفسيرا ماديا غرائزيا؛ إذ إن الغيرة قيمة مثالية لا تعود بالنفع المادي على الحيوان، فلا يلتفت لذلك؛ لأنه مرتبط بقانون مادي صرف اسمه (قانون البقاء) وليس بقانون القيم والأخلاق .. وليس كذلك الإنسان، فهو يحتفظ برصيد من القيم العليا، حتى وإن لم يعرف تعاليم الوحي، إذ ليست تعاليم الوحي إملاء من خارج التكوين .. بل هي تركيب متأصل في عمق الفطرة الإنسانية، فالدين يمثل "إمكانات الإنسان الفطرية في النهاية" كما قال مفكرنا .. فنجد الطفل الصغير يكره من يخادن قريبته بالسفاح، وتكره الطفلة أن تجد أباها مع أخرى غير أمها، قبل أن يتلقَّى الأطفال التعاليم ومعاني الحلال والحرام .. في حين يُحبُّون من يزورهم زيارات بريئة .. وقد يضحي الإنسان بنفسه وهو راض حين يدافع عن عرضه كقيمة متصلة بهذه المعصية، وكل هذا لاتجد الفلسفة المادية ما يسعفها لتبرير ذلك نفعيا .. حتى لقد تعمد الماديون

إنهاء جدلية العيب والغيرة، وحاولوا الشراكة الجنسية لكن محاولاتهم تحطمت أمام جدار الفطرة السليمة .. وحتى في ظل المشاعية لاتُطْلَب معصية كالزنا من أي طرف إلا على حياء وخوف وتردد، ومعرفة ردات فعل الطرف الآخر، حتى وإن كان في بلد يقر المشاعية الجنسية، وقُلْ مثل ذلك على معصية السرقة .. ومعصية ظلم القوي للضعيف .. ومعصية عصيان الوالدين .. معصية الكذب .. معصية الخيانة للأمانة .. كل هذه القيم الإنسانية التكوينية لاتمارس أبدا من منظور الاحتياج المادي، ولاتخضع لفلسفة النموذج المادي .. ولو كانت المادة هي التي تحكم حياة الإنسان لباع عرضه في بيت الدعارة، وباع ابنه في سوق النخاسة، وباع أباه وأمه في سوق الاتجار بالبشر .. وإن حدث شيء من ذلك فهو استثناء ومحاصر بنداء الفطرة من الداخل .. وقد يخفت بريقها إذا ران عليها وحل المعاصي، وسودها السلوك المخل، ولكن ومع ذلك لا تنتهي إنسانية الإنسان ولا يصبح كالوحش في البرية .. فإن انطمست لديه بعض معانيها بقيت أخرى مضيئة.

خلاصة كتاب: (الإسلام بين الشرق والغرب) هو أن المادية الشيوعية الشرقية والمادية الرأسمالية الغربية لم تستطع أن تفسر لنا السلوك الإنساني من منظار مادي، مثلما لم تستطع إعادة إنتاج الإنسان من منظور شهوي حيواني بحت مهما فعلوا، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن للإنسان صانعا آخر لم تؤثر فيه صناعات النظريات البشرية المتدحرجة، ولا الدوافع الغريزية النفعية الكسبية، ذلك الصانع هو الذي أودع هذه القيم الإنسانية في الإنسان، وجعل له روحا إلى جانب الجسم (المادة) تمثل جوهر إنسانيته، ومنبع قيمه، فظل الإنسان بالتالي يبحث عن خالقه الذي هو فوق التفسير الطبيعي .. ظل يقلب بصره بين الشجر، والحجر، والنهر، ليجده فيعبده، ويعبر عن افتقاره إليه، وهو الإله الخالق الموجد سبحانه وتعالى.

مغزى مصطلح المعروف والمنكر في الشرع

لماذا لم يقل المولى تعالى .. يأمرون بالحق وينهون عن الباطل مثلا؟ .. أو يأمرون بالخير وينهون عن الشر؟ أو يأمرون بالحلال وينهون عن الحرام؟ .. بل قال: (وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)[1] .. لأنه لو جاء بذلك التصنيف لكان ما هو عند هذا حقا قد يكون عند غيره باطلا .. وما هو في قوانينك خير قد يصير في قوانين غيرك شرا .. وما هو عندك حرام قد يكون في قوانين غيرك حلالا والعكس، لكن المعروف هو ما تعرفه الفطرة السليمة، والمنكر هو ما تنكره الفطرة السليمة .. أي المحتفظة بأصل الخلق قبل حصول التلويث .. ولذلك سمى الله الفطرة (الدين).

وتأسيسا عليه تَرك الشارع المتحولات الثقافية، التي قد تملي بعضَها الأهواءُ والتواضعاتُ الاجتماعية المتوارثة، وأعادنا إلى حكم الفطرة الإنسانية الأولى التي تحكم الجميع، وهي خلق الله الذي فطر الإنسان عليها بعقل يميز .. وشعور يحس .. وضمير يؤنب .. قال تعالى: (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)[2] إذا فطرة الله هي الدين، حيث بدأت الآية بالدين وانتهت بالدين وبين البداية والنهاية الفطرة، فالدين انعكاس لها وترجمة حياتية لحقيقتها .. وأجمل عبارة لخصت هذا المعنى هو ما قال المفكر المسلم علي عزت بيقوفتش – رحمه الله –:"الإسلام يمثل إمكانات الإنسان الفطرية"[3] أي أن الإسلام انعكاس لما هو مودع في داخل كل إنسان، وليس غريبا عليه مجافيا له .. ومن ثم فالأصل أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يشمل حتى غير المسلمين، فإذا كان الإسلام دين الفطرة، وإذا كان في المجتمع من لا يدينون بدين الإسلام فإنه يخاطب صاحب كل فطرة سليمة، إن لم يستجب لقوانين الإسلام،

1- [آل عمران 104].

2- [الروم 30].

3- الإسلام بين الشرق والغرب دار الشروق – ط6 – القاهرة (ص 61).

فلينصت لنداء الفطرة التي بداخله .. فمثلا قد تبيح بعض القوانين (لعبة القمار)، فتتحول في جلسة واحدة مئات الملايين من طرف يملك إلى آخر لايستحق عن طريق لعبة تحكمها مهارة اللاعبين، إلا أن الفطرة السليمة عند المسلم وغير المسلم ترفض أن يتحول مليون دينار يزيد أو ينقص من جيب إلى آخر في دقائق بدون وجه حق، ولا جهد يبذل سوى مجرد احتراف لعبة هي باب من أبواب الاحتيال والنصب والمقامرة، سواء باسم الذكاء، أو باسم الحظ، أو باسم الحرية الشخصية .. فهذه أسماء لا تلغي كونها في الفطرة السليمة منكرا لا ترتضيه، وهذا الشعور إنساني عام وليس خاصا بملة دون أخرى.

وقد تشيع معصية الزنا مثلا في بلد غير مسلم، وتطلق فيه المشاعية تحت حماية القانون .. ولكن ومهما قونن القانون الانحراف، إلا أن ممارستها لن تكون في مأمن من حرب الفطرة، ورقابة العقل، وتأنيب الضمير .. يظهر ذلك في شكل من أشكال التحوُّط الحذِر، عند المسلم وغير المسلم، ولن يطلب أحد من أحد ممارسة هذه المعصية وإن كان كافرا إلا بدرجة من الحذر والخوف من رد الفعل والتحوط اللازم؛ لأن هذه الممارسة لن تكون أمام الفطرة يوما كأي شيء أباحه الله مثل الماء والفاكهة والمنافع المباحة.

إن الفطرة مكون غريزي ثابت تظهر في شكل حياء، أو خجل، أو تأنيب ضمير، أو رفض عقل، أو غيرة، أو نخوة .. الخ، لذا فدعوة القرآن لتطبيق هذا المبدأ مسؤولية تقع على مكونات المجتمع بمختلف توجهاته، لا عالم شرع فحسب ولا رجل قانون، ولا سلطة تنفيذية، بل والإنسان العادي لأن بداخله أيضا قاضيا قد يعرف التمييز ويعرف أن يساهم في تثبيت الخير ودفع الشر .. ورقابة الفطرة واحدة من مصادر الإلزام الأربعة.

- **الرقابة الدينية.**
- **الرقابة القانونية.**
- **الرقابة المجتمعية.**
- **الرقابة الفطرية.**

لكن اختار الشارع أن يخاطب الرقابة الذاتية (الفطرية) في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على بقية الرقابات لما يلي:

أولا- تعد الرقابة الفطرية حجة ذاتية على اتخاذ الموقف الإيجابي، أكثر من حجة القانون أو الدين أو الثقافة فتلك رقابة خارجية إن لم يؤمن بها يمكن التحايل عليها.

ثانيا- كون العمل ببقية الرقابات إلزاما وطاعة، في حين العمل بدافع الرقابة الذاتية التزام وقناعة.

ثالثا- لأن الرقابة الذاتية -كما سبق- أعم من المرجعيات الأخرى الخاصة فتشمل المؤمن وغير المؤمن .. غير أن فئة شريرة بالتحالف مع الشيطان، قد تلتزم مبدأ المخالفة فتأمر بالمنكر وتنهى عن المعروف وقد خص القرآن الكريم بهذه الصفة شريحة المنافقين وليسوا حجة.

رابعا- أن انفصال الشخص عن بقية الرقابات ممكنة إما بسبب البعد المادي أو البعد المعرفي، لكن رقابة الفطرة متحركة بتحرك الفرد لا تغادره .. فهي معه أن كان بعيدا عن القانون بعيدا عن المجتمع .. حتى ذلك الذي لا يعرف الله ولا يخشى رقابته لكنه يعرف أن في داخله شعورا مقاوما للمنكر وشعورا مؤيدا للمعروف، يجد أن ضرب الشخص القوي للضعيف مثلا بدون وجه حق فعل لا يحب أن يراه، ولا تقره الرقابة الداخلية، فهو معني بمقاومته .. يشعر أن بقاء الناس يتفرجون على طفل يغرق مثلا وفي مقدورهم إنقاذه هو انحراف خلقي لا ينسجم مع ما بداخله من حب الخير .. وبهذا ندرك كم هو هذا الدين عظيم ومنصف .. فقد أراد من الإنسان أن يكون فاعلا مع رصيد الإدراك الذاتي قبل أن يكون متفاعلا مع رصيد الوحي الإلهي .. ففي الإيمان بالغيبيات نجده يخاطب العقل ليكون هو الذي يقر بالحقائق، استقراء من شواهدها المبثوثة .. قبل الإلزام الإلهي .. بما أن بداخله نداء يتجاوب مع نداء السماء فقد أثار فاعليته بالخطاب الموجه.

ومن لطيف الرعاية الإلهية أننا نجد في عصر التوثيق والتصوير مصاديق للفطرة السليمة تتكرر بشكل أحادي في الحيوانات، كأنما جعلها الله تعالى شواهد على سلامة فطرة الإنسان السليمة، فالقط يشعر أن السرق منكر لذلك يسرق اللقمة ويفر بها فثمة قانون يطارده، والكلب يدرك أن الوفاء معروف فليزمه ويخلص لهذه الخلة .. ولقد شاهدت الكثير من صفات الفطرة السليمة في مقاطع بحيث تكاد تقول إن جميع خصال الإنسان لها مصاديق في كائنات هي دونه اتصافا بها، ولولا أن ذكرها لا يسمح به العلم حتى تصل إلى الظاهرة لذكرتها ولكني أحيل القارئ الكريم إلى مخزن المعلومات المرئية اليوتيوب وغيرها من منصات التواصل .. ليجد إن الذي أودع تلك الصفات في الإنسان وغير الإنسان هو خالق واحد ومصدر واحد.

قراءة في فكر فيلسوف العرب المعاصر

د.محمد عابد الجابري

د. محمد عابد الجابري مغربي المولد، يعرف بفيلسوف العرب في العصر الحديث، فهو مفكر وفيلسوف عربي من المغرب، له 30 مؤلفاً في قضايا الفكر المعاصر، أبرزها "نقد العقل العربي" الذي تمت ترجمته إلى عدة لغات أوروبية وشرقية. كرّمته اليونسكو لكونه أحد أكبر المتخصصين في ابن رشد، إضافة إلى تميّزه بطريقة خاصة في الحوار.

له العديد من الكتب المنشورة :

نحن والتراث : قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي (1980)

العصبية والدولة : معالم نظرية خلدونية في التاريخ العربي الإسلامي (1971)

- تكوين العقل العربي (نقد العقل العربي 1) (1982)
- بنية العقل العربي (نقد العقل العربي 2) (1986)
- العقل السياسي العربي (نقد العقل العربي 3؟ (1990)
- العقل الأخلاقي العربي.

نلاحظ مشتملات العناوين (العربي) (الإسلامي) الذي يشير إلى امتداد دراساته رأسيا بطول الزمان وأفقيا بعرض المكان، وقد قرأت له جزءا من كتاب (تكوين العقل العربي) فماذا كتب فيه؟

قبل ذلك يجدر القول بأن الدكتور الجابري من حيث المبدأ قد عبر عن موسوعية الفكر التي يحملها، وعن طاقة علمية دائبة، بحيث تجد التتبع لمراحل تكوين فكر أمة، فبعد الوحيين كان أمامه تخلق أسس الفكر العربي وروافده التي تشمل الفكر واللغة والأدب والأخلاق .. وهو ما يعني تتبع تاريخ تشكّل منظومة الفكر العربي بشكل عام .. فمثلا: في تكون النظرية النحوية يتحدث عن النحو وعن وروّاده .. والنظرية الفقهية وروادها وكتبهم والتصورات التي قدموها والأسس واللبنات التي وضعوها وغيرها من مرتكزات الفكر العربي التي أثمرت عن فكر أمة بأكملها.

وقد قوبلت رباعية محمد عابد الجابري (تكوين الفكر العربي – بنية الفكر العربي – العقل السياسي العربي – العقل الأخلاق العربي) التي خرجت كلها تحت عنوان (نقد العقل العربي) قوبلت من جهة بالترحاب والتكريم فحصل على ميدالية ابن سينا من اليونسكو في حفل تكريم شاركت فيه الحكومة المغربية بمناسبة اليوم العالمي للفلسفة 16 نوفمبر 2006م وكرم من غيرما جهة.

قال عنه المفكر والداعية الإسلامي سلمان العودة في مقابلة متلفزة أنه قرأ كثيرا للجابري وأنه بدأ مسيرة حياته العلمية ماركسيا، ثم صار قوميا واعتبر الإسلام رافدا للقومية العربية ثم انتهى بكتابه (تفسير القرآن الحكيم) ثلاثة مجلدات الذي رتبه حسب النزول صار قريبا من أي عالم تفسير ملتزم .. وأنه عموما أراد أن يخدم أمته مهما وقع الاختلاف معه في بعض المعالجات المنهجية.

أما منتقدوه فمنهم الفيلسوف التونسي الدكتور فتحي التريكي (ميلاد 1947) الذي انتقد فكرة وجود عقل عربي وآخر غربي، التي قال بها الجابري، كما خالف المفكر اللبناني) علي حرب) الجابري في بعض القضايا الاصطلاحية فكان حرب "يفضل استخدام مصطلح الفكر على مصطلح العقل، لأن العقل واحد وإن اختلفت آلياته ومناهجه وتجلياته، كما يؤثره على مصطلح التراث"[1].

ويرى كمال الحيدري عالم شيعي في أحد برامجه أن الجابري قد جاء بعملية إبداع في كتابيه (تكوين العقل العربي) و (بنية العقل العربي) ولكنه تساءل عن سر اختفاء الفيلسوف والمفكر الكبير المصري أحمد أمين (ت 1954) تساءل عن سر اختفائه من مراجعه وقد سبقه بمجهود ضخم في كتب ثلاثة بنحو ما كتب الجابري وهي كتب (فجر الإسلام) و (ضحى الإسلام) و(ظهر الإسلام) وعن مفكر آخر ترك نحو 150 مؤلفا بين تأليف وتحقيق وترجمة سبقه بنحو جهوده وهو الفيلسوف المصري (عبد الرحمن بدوي ت 2002) لماذا لم يذكر اقتباسات من جهود هؤلاء وبماذا نفسر ذلك إن لم يكن قد كرر جهودهم (يريد أن يقول).

([1]) (موسوعة الويكيبيديا).

أما الجابري نفسه – رحمه الله – فقد رد على منتقديه في برنامج إضاءات عام 2007 لتركي الدخيل قائلا بأن من البديهي أن تختلف في جهوده الآراء وما يهم هو أن مئات الرسائل العلمية تكتب حول إنتاجاته تأييدا وتفنيدا وإن كان لذلك من دلالة فهو حجم أثره الذي تركه في الأوساط العلمية المختلفة.

يقسم الدكتور الجابري الجزء الأول من كتاب نقد العقل العربي الذي هو (تكوين العقل العربي) إلى (علوم البيان) و(علوم العرفان) و(علوم البرهان).

ثم يؤرخ تأريخا نقديا لكل نوع بمعنى لم يكن الجابري في عمله يؤرخ لجذور الفكر العربي وفقط ولكنه يحلل ويسبب ويقيم.

أما علوم البيان فالمراد به: ما انصرف فيه الاهتمام في عصر التدوين إلى جمع النصوص وتحليلها أي تفسيرها وتبويبها، ابتداء من القرآن والسنة ثم ما انبثق عنهما من علوم مختلفة خادمة لهما وهي: الفقة، وأصول الفقه، ومصلحات الحديث ومنهجيتها.

ففي الفقه وعلم القياس يعد الشافعي عند الجابري المشرع الأكبر لبنية العقل العربي فهو المؤسس الأول لقواعد تفسير البيان الملخص ب (ماذا قال) وفي أي حيز الخطاب يدخل فكان أول من فرق بين الأصول والفروع وبين مصادر التشريع القرآن والسنة والإجماع والقياس.

أما علوم العرفان فهو العلم اللدني (ودوما أضع على لساني معاني كلام الجابري وليس ألفاظه) ويتصل بالعلوم الغيبية العرفانية التي اشتغل بها الصوفية والشيعة تنظيرا وتأليفا وتطبيقا وتشمل فكر التصوف والتنجيم والسحر والشعوذة وقراءة الكف والغيبة والرجعة ..

أما (علوم البرهان) فيتصل بجهود العرب في أعمال العقل عبر التجريب وكشف القوانين كالرياضيات والفيزياء والكيمياء والطب.

****جانب النقد.**

كان الجابري من وجهة نظري محقا في بعض نقداته وغير دقيق في بعضها ..

أما صدق التصويب فهو كما قال معضلة اتصال الزمن الفكري، فلم يكن هناك حدود واضحة بين مراحل الفكر العربي وبخاصة من ومضات الإبداع إلى تطور الفكرة (الومضة)

وتجديدها والإضافات الفارقة بين مراحل تطورها .. حتى تنتهي إلى حد الإبهار الفكري والتفوق العلمي على غيرهم من الأمم.

يضرب لذلك أمثلة كتفسير ابن جرير الطبري وكتاب النحو لسيبويه وكتاب العين للخليل بن أحمد ودلائل الإعجاز للجرجاني، وغيرها مثل هذه الإبداعات في التأليف استمرت تكرر نفسها على يد مؤلفين نساخين لمن سبق وعالة عليهم ولم تظهر التجديدات إلا في جزئيات بسيطة فمثلا احتجنا إلى 13 قرنا حتى ظهر كتاب في ظلال القرآن إبداع وتناول جديد في التفسير تناول فاعلية التوجية وحركة بناء الأمة وتفعيل منظومة القيم، وقبله بقي المفسرون يدورون حول معاني الألفاظ وأسباب النزول والقراءت والأبعاد الحُكمية على تفاوت بينها، وقل مثل ذلك في النحو بقيت قواعده في موضع الحفظ والصون المتشرب بغير قليل من القدسية.

ولكني أراه غير دقيق في وصف طريقة تأليف اللغة العربية حيث ذهب إلى القول إن العرب هم صناعة (الأعراب) في هذا الجانب إذ كيف يعقل أن تقعد قواعد اللغة على أساس مجتمع صحراوي فقير في المفردات وهي في مجملها حسية مادية غير ثرية بالمعنويات .. لكن في رأيي أن مفردات اللغة العربية بعد مجيء الإسلام قد انتقلت من ماديات الحياة البدوية إلى عالم بلاحدود من الأفكار والمجاز والمعنويات ولا أخال يجاريها في ذلك لغة .. فأين منها ثرؤها وسعة اشتقاقها وتراكيبها التي استوت واكتملت بلغة التنزيل .

كذلك يؤخذ عليه الإيهام بأن الزمن المفتوح للفكر العربي وخلوه من محطات فاصلة هو ناتج عن نظام التفكير العربي .. والصحيح أن الحضارة الغربية أيضا من عهد الإغريق لم تشهد نقلات حضارية وفكرية فاصلة ومنتظمة .. وكان الاجترار هو سيد الموقف حتى كان العصر الحديث فبدأت التحولات الكبرى بالتتابع.

هذا تطواف بسيط في فكر أحد ألمع المفكرين والفلاسفة العرب في العصر الحديث الدكتور الجابري رحمه الله تعالى.

نظرية القرائن النحوية التي أطاحت بنظرية العامل

يعد كتاب (اللغة العربية معناها ومبناها) للدكتور تمام حسان رحمه الله طرحا جديدا وجريئا في نظرية النحو وخطوط منهجية غير مسبوقة في التحليل النحوي، فأزاح بذلك أسطورة العامل النحوي من عرشه، وأتى بدلا من ذلك بنظرية قرائن التعليق النحوي لمعرفة الوظيفة النحوية للمكون النحوي في التركيب، ولن استطرد في الوصف على حساب الشرح بالتطبيق وعلى النحو التالي:

فلو قلنا:

- مضى الفتى إلى عمله ..

فـــ(الفتى) فاعل بقرينة الإسناد وليس بقرينة العلامة التي لا وجود لها هنا، ولا يقال مرفوع بضمة مقدرة فهذا من الغش العلمي الذي لا لزوم له .. ولو قلنا:

- أكرم زيدا خالدٌ.

فـــ(خالد) فاعل بقرينة العلامة وليس بقرينة الإسناد إذ لايكفي الفعل وحده لمعرفة الفاعل المتأخر والفعل صالح لفاعلية ومفعولية كليهما ولو قلت:

- كلمتْ هذا هذه.

(هذه): فاعل بقرينة المطابقة .. كون الفعل متصلا بتاء التأنيث، وكل من هذا وهذه مبنيان لا علامة لهما ظاهرة.

ولو قلت:

- كلم عيسى موسى.

فـــ(عيسى): فاعل بقرينة الرتبة، إذ يجب التزام الترتيب لعدم وجود قرينة تميز الفاعل من المفعول فوجب أن يكون عيسى هو الفاعل.

ولو قلت:

-أرضعت الصغرى الكبرى.

الكبرى: فاعل بالقرينة العقلية سواء تقدم أو تأخر، ومثله أكل الكمثرى مصطفى.

.ولو قلنا:

1- خرج خالد خوفا.

2- خاف محمد خوفا.

3- امتلأ القلب خوفا.

4- خرج زيد خائفا.

5- كان القلب خائفا.

فـــ(خوفا-خائفا) كلها منصوبة والقرائن الأبرز على إعرابها في الأمثلة المختلفة ليس العامل الذي هو هنا الفعل كما ركز عليه النحاة تركيزا محوريا، ولا العلامة التي هي محايدة هنا والتي أخذت أيضا اهتماما مبالغا فيه، بل الأبرز فيها هو في الأولى (قرينة العليّة) حيث بين السبب وهو ما يجب التركيز عليه، وفي الثاني (التوكيدية) وفي الثالثة (التفسير) أي التمييز .. وفي الرابعة الملابسة (الحالية) وفي الخامسة بقرينة الأداة.

ومعلوم أن بقية القرائن وهي: العلامة-والعامل-والصيغة- والرتبة- ... الخ هي عوامل مساعدة لكن يجب التمحور حول الفروق المعنوية الدقيقة بين وظيفة مكون نحوي وآخر في الحقل النحوي الواحد .. فعلى سبيل المثال في المنصوبات سنجد نحو 16 منصوبا مختلفا وأوصلها بعضهم إلى 52 منصوبا، فلئن أغنت علامة النصب للتفريق بينها وبين المرفوعات والمجرورات، فلن تغني عنا ولا العامل للتفريق بين المنصوبات نفسها؛ لأن الفعل في الجميع والنصب في الجميع، بل يلزم التركيز على التفريق بين قرائن التخصيص التي تميز هذا عن هذا .. وهذا هو ما يفعله النحاة جميعا عند إعرابهم، فتضيع عندهم أسطورة العامل والعلامة من حيث لا يشعرون ويبقى التركيز على الفروق النحوية الدقيقة بين المنصوبات بحسب القرائن وكذلك بين المرفوعات.

* فكرة التعليق:

ثم تأمَّل في مسألة التعليق النحوي فتعليق فعل بمنصوب سيختلف عنه مع منصوب آخر .. على سبيل المثال:

– اخترت يومَ الخميس للراحة. يختلف مع الفعل.

– جلست يومَ الخميس للراحة.

فالفعل (اخترت) متعد فهو يتطلب المفعولية فـــ(يوم) مفعول به.في حين جلست فعل قاصر يتعلق بغير المفعولية فـــ(يوم) مفعول فيه، فالعامل ليس مجرد حدث الفعل بل ومعنى الفعل أيضا، فإذا عرفنا أن كل فعل يحتاج لفاعل بقي أن نعرف أن بعض الأفعال توجب المشاركة مثل (تحاور) وبعضها توجب المفعولية مثل (ضرب) وبعضها توجب التفسير مثل (ازداد) وبعضها لا تتقاضى سوى فاعل مع صلاحيتها للتعلق بفضلات إضافية مثل الأفعال القاصرة (اللازمة).

وهذا يعني أن تأليف النحو لايكفي فيه بمجرد معرفة الفعل المتضمن للحدث بل ومعرفة معناه وفرزها.

• تخشب النحو بسبب المعيارية:

لن يكتب للنحو أي تطور حتى يكف سدنة المعابد القديمة عن ادعاء حماية المقدسات الذين يأبون إعادة النظر في القوالب المعيارية والقياسات غير اللازمة في هذا العلم التي وسعت من توصيف المكونات النحوية بحيث غلب عليها الطابع الفلسفي وطغت على المعنى الواقعي للغة أحيانا وهنا نسرد بعض الأمثلة:

* لما حكم البصريون بأن أدوات الشرط لا تدخل إلا على الفعل اضطروا لتقدير أفعال قبل الاسم الذي سبقه أداة شرط نحو:

– إذا السماء انشقت .. فقالوا هي على تقدير إذا انشقت السماء انشقت (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره) هي على تقدير وإن استجارك أحد من المشركين استجارك .. فظهر أمام طالب العلم علامة استفهام دلالية كبيرة .. لم يجد لها حلا لاسيما أن يكون هذا

التأويل مع كتاب الله .. وكان رأي الكوفيين هاهنا أسهل وهو أن الفعل المقدر اتصاله بالأداة هو نفس الفعل المذكور.

* لما حكموا باشتغال الفعل عن المفعول بمضيره اضطروا لتقدير فعل مناسب يدل عليه ما بعده فقالوا في نحو : (وَالسَّمَاء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ)[1] فقالوا نحو: أحكم السماء رفعها (... وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً) [2].. يقدر بنحو: أهان الظالمين أعد لهم عذابا أليما .. الخ فقد كان يكفي العامل المتأخر للعمل في المفعول وضميره .. ثم يشار إلى جمال الأسلوب في التقديم.

** لما حكموا بأن الفاعل لايتقدم على الفعل:

قالوا في نحو: (زيد نجح) أن (زيد) مبتدأ والفاعل مستتر، ولو أجازوا تقديم الفاعل على فعله لقلنا إن (زيد) فاعل مقدم فإذا جاء نحو: (المسلمون توحدوا) يكون الواو علامة الجمع تسهيلا ولن يضر المعنى .. ومثله (المسلمات تفوقن) و(الطالبان تفوقا) .. ولن يشكل هذا مع علامات الرفع الأصلية مثل جاء المعلمون فهي علامة جمع وعلامة الرفع .. مثلما يصح أن نقول في (قمتم) و(قمتن) أن الميم والنون علامة الجمع.

** لما حكموا بأن كل اسم معرب تظهر عليه العلامة الإعرابية قدروا علامات افتراضية في المقصور والجملة وشبه الجملة فقالوا في نحو : (سعى الفتى إلى العلا) .. أن جميع مكونات الجملة هذه معربة بعلامات مقدرة .. وكان الأيسر أن يقال: سعى فعل ماض .. الفتى: فاعل بقرينة إسناد الفعل إليه كما سبق، العلا: مجرور بقرينة الأداة وزيد في الدار في الدار خبر بقرينة إسناده إلى المبتدأ إذ لا وجود لعلامات على الواقع فالقول بوجود علامة مما يغلب الواقع الفلسفي للنحو أكثر من الدلالي وهذا جزء من سبب شكوى الدارسين من قواعد النحو.

([1]) [الرحمن : 7].

([2]) [الإنسان : 31].

** لما حكموا بأنه لابد لكل فعل من فاعل جعلوا المفعول فاعلا أو نائب فاعل فقالوا في نحو: (تعرضت التجارة للسرقة) .. و(انكسر الزجاج) و(مات زيد) إن (التجارة، والزجاج، وزيد) فاعل .. وكان الأوفق تغيير أسلوب التحليل فيقال مفعول به معنى .. فاعل في الإسناد وقرينة العلامة .. كذلك (سُجن المجرم) مفعول به في المعنى: نائب فاعل في الإسناد وقرينة العلامة كذلك في معرض النفي نحو: (ما جاء عمرو) فعمرو لم يقم بالفعل على الحقيقة لأنه منفي فيقال فاعل منفي.

وقد كان للدكتور شوقي ضيف محاولات فذة في تسهيل النحو في كتابه (تجديد النحو) وأذكر أنه احتج على إعراب النواسخ الفعلية فلماذا يقال في نحو (كان محمد راكبا) أن محمد اسم كان وقائما خبرها لماذا لا تلحق بنحو قولنا (جاء محمد راكبا) فيكون محمد فاعلا وراكبا حالا في المثالين، وتكون (كان) فعلا متعديا بدل ناقصا [وهذه إضافة من عندي]، وتلحق التامة بالفعل القاصر مثل (كان الله ولم يكن قبله شيء) أي وجد .. إذ إن كثرة تعدد الأبواب وتشعبها يشق على الدارس تتبعها والإلمام بها بسهولة، فلماذا لا تدمج الكثير من الأبواب والمصطلحات.

الأمثلة كثيرة وقد كتبت في ذلك دراسات نحوية محكمَّة ولا أزعم استقصاء ظاهرة الحمل على النظائر، ومراعاة القوالب على حساب المقاصد .. إننا لا نجد مثلا وقوفا عند الجملة المنفية والمثبتة والخبرية والاستخبارية .. إلخ كما نجده عند الجملة التعجبية والشرطية .. إلخ وذلك لأن مهمة النحو توقفت عند التغيير الإعرابي وحسب، والكلام في هذا الإطار واسع لا يتسع له المجال .. ولعل الله يمنحنا المتسع من الجهد والعمر للجمع بين الواقع الإعرابي والدلالي، ونستكمل مشوار بحث الدكتوراه (الفروق الدلالية للمواقع الإعرابية) 600 صفحة .. وفي نظري لو تم إعادة قولبة النحو في إطار جهود د. تمام حسان في المنهجية ود. فاضل السامرائي في الدلالة مع تجديد فنيات العرض لخرج النحو بثوب العصر ولغته، ولامتلك غير قليل من الإثارة والتشويق وجمال الأسلوب والأهداف الأدائية الدافعة.

تصفير أنماط التفكير

بالتحصيل المعرفي قد يتجاوز الطفل فئته العمرية بسنوات وربما بعقود .. فيكون تصرفه بحجم الكبار، وتفكيره في مجاله الذي أتقنه تفكير الكبار .. ويمكن أن يتجاوز في بعض المهارات أعمار المسنين فيكونون عنده أطفالا يَحْبُون .. ولذلك فإن فتيانا كأسامة بن زيد، ومحمد الفاتح، وعبد الرحمن الداخل، قادوا جيوشا وحققوا انتصارات وبنوا أوطانا على صغر سنهم .. فلا تنظر إلى سن الفرد الزمني بقدر نظرتك إلى سنه المعرفي والمهاري .. والعكس يحدث مع إنسان أمي المعرفة .. ضيق الرؤية .. قد يشيب ولايزال بداخله نمط تفكير طفل صغير .. فيستمر صغيرا في تصرفه إزاء المشكلات .. صغيرا في تفسيره للأحداث .. صغيرا في نظرته للأشياء من حوله.

مثال ذلك: إنسان لم يغادر نطاق قريته .. ولم يوسع دائرة حياته العلمية والاجتماعية ليصل إلى مستوى المشاركة في تحمل هم قضايا كبرى مثلا .. سيختزل عالمه في قريته من حب وبغض وسلم وحرب وابتكار وتبادل مصالح سيبقى يحمل هم الانتصار التنافسي على مكانة عشيرته من عشيرة آل فلان كمثال .. وحبيس هم إلحاق الهزيمة بغريمه فلان عبر معركة التغالب القضائي .. وسيبقى هناء عيشه في متعة الانتصار على فرد هو كل جبهته الحربية في الحياة .. طبقا لما انتهت إليه رؤيته الضيقة لمعنى الصداقة والعداوة .. فلم يوسع دائرة اهتمامه إلى أن يحمل هم أمة أوسع، فيكون تفاعله بحجم أكبر، بل خصمه محلي في قضية تجدها تافهة .. وعنوان شرفه محلي في اعتبارات غير ذات مغزى ومع الفراغ قد ينحت خياله أعداء وهميين فلا يريح ولا يستريح .. ومصدر طِبّه محلي وبأساليب عتيقة ووصفات خرافية؛ لأن هذا كل عالم طبه الذي لم يعرف غيره .. وكثيرا ما يفشل مثل هؤلاء في التفاعل الوجداني معك إن حاولت إخراجهم إلى مستوى دوائر أوسع في نمط التفكير وأدوات العصر؛ لأن مسألة التغيير البرمجي لعادات أَلِفوها لا تلقى منهم التجاوب السريع والمطلوب .. بل ربما زهَّدوك فيها وجمّلوا محاسن القديم؛ لأن التعاطي مع الجديد قصة

أخرى ذات لغة أخرى لا تنتمي إلى جيلهم .. ولكن إن لم يحسنوا التعامل مع شروط العصر فهم شهود على عصر انتهت فترة إقامته وتركهم لنا لاعبين في الوقت الضائع.

لقد توقف التاريخ في محطة اللحظة الفارقة .. ليمثِّل هذا العصر انقلابا في الأساليب والرؤى أنهت آليات الماضي .. وأعادت إنتاج الإنسان بآليات وبرمجيات مختلفة .. فأي فرد مهما مضى من تجارب عمره بآليات قديمة فقد تعرَّض عمره شاء أو أبى لعملية تصفير حضاري شامل، وعاد طفلا يتعلم أبجديات الحياة من جديد على أيدي أطفال العصر وتلاميذه .. فإلى طفله دوما سيلجأ الرجل الكبير أو القروي لتفسير أحداث يعج بها العالم من حوله، وينصت جيدا لمعرفة خلفيات مشاكل ليس له بها سابق عهد، يطل على أسرارها من خلال أبنائه اليافعين .. لذلك فإن العقليات القديمة والبدائية إزاء لغة العصر ومتطلباته هي عقليات صفرية .. وفي سوق آليات الزمن قوى فائضة خارج نطاق الفاعلية .. لم يعد لها شرعية حكم الحاضر بأفق الماضي .. ولا مواجهة آلياته بآليات بدائية منتهية الصلاحية، فإذا فعلت ذلك تعِبَتْ وأتعبَتْ من حولها .. ودوما حديثنا عن تخطي إجادة أدوات العصر، وليس عن قيمة الفرد كفرد فقد يكون كبيرا بإنجازات أخرى أو بمقامه عند الله.

ولو أتينا إلى لغة السلاح كمثال فإن سلاحا كالسيف بالنسبة للكلانشنكوف سلاح بدائي ولا تناسب بينهما .. والكلانشنكوف بالنسبة للدبابة سلاح فردي متواضع ولا تناسب بينهما وهلم جرا .. وعندما يغيب السلاح المطلوب ويبقى السلاح المعطوب فقد انتفى التوازن بين كفتي ميزان المعركة .. غير أن الأمر سيختلف مع عقلية غير مجرِّبة، فأن تُسند مهمة إدارة معركة عسكرية أو علمية أو سياسية حديثة إلى عقلية بدائية في تصوراتها ونمط تفكيرها فإن القديم في نظرها القاصر كاف لأن يلحق الهزيمة بالسلاح الحديث .. فسقف نظرها القاصر يسطِّح الواقع، ولن ترى كبير فرق بين الماضي والحاضر لأنها على غير اطلاع بأسرار الحداثة الواسعة .. وقد وجدنا نوعا من هذا الطراز تفخر أن تزج بأفرادها في حروب تختلف فيها توازن القوى لصالح الخصم بدرجة لاتناسبية، إذ يكفي عندها ما هو أقل من الطائرات، والبارجات، لهزيمة قوى عظمى .. فربما جملة من التمائم، والتعاويذ، والأراجيز، والأهازيج، والهتاف الحماسي، وإلقاء القصائد الشعرية الحماسية، وأناشيد الذواكر المسجدية هذه الترسانة

تقوم مقام الأسلحة غير التقليدية .. وكفيلة أن تزلزل العروش .. وترعب الأعداء .. وكفيلة بما تحمله من أسرارٍ عسكرية وأبعادٍ إستراتجية عظيمة أن تحقق الانتصار الحاسم على أقوى قوة في العالم، وهؤلاء يطمئنون إلى ما يفهمونه من معنى الآية: (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم) ولا يعرفون معنى أن تكون القوة قادرة على أن ترهب العدو لا أن تجعله يسخر منها ويطمئن بالا بها.

وقد ابتلينا بجامعات اعتباطية مستهترة تظن أن التفكير العضلي مع حسن النية وتوفر الإخلاص يكفي لبلوغ الأهداف وإقامة صروح إمبراطوريات على كومات من القش، ولا يروق لهم التحدث عن السنن الإلهية وأهمية تحقيق النسبة والتناسب ومعرفة وسائل العصر وأدواته فالله تعالى سخر ملكه لمن يحسن التخطيط للوصول إليه، إن جماعات الفتوات لا تعرف ولا تحب أن تعرف أبجديات الحياة وتريد أن تنتصر على أمة وصلت في معرفتها إلى الإحاطة بالفضاءات المجريِّة والكائنات المجهرية، التي يحتاج بعضها للتكبير أكثر من مائة ألف مرة، فيدرسون أسرارها وخصائصها ونفعها وضرها وأماكن تكاثرها .. .إلخ

ومن ناحية أخرى تعمد بعض الجماعات الإسلامية المعتدلة إلى إظهار التقية في تعاملها مع السياسة الغربية، فربما جاملت سياسة الغرب بتصريحات وغض الطرف أحيانا عما قد يتناقض مع مبادئها لكي تحصل على الرضا منهم وإن كان فيه سخط الله، ظنا منها أن ذلك سيخلط الأوراق ويجنبها التآمر والحرب، تفكير بدائي قروي ساذج في زمن تعقدت وتعددت فيه مصادر المعلومات، وفاتهم أن الذين يدرسون عالم الحشرات، والفيروسات الضارة ويعدون لها أسلحة التغلب عليها ويعلمون خبايا عوالم آلاف الكائنات المجهرية لايمكن أن يجهلوا دراسة وفحص كل فرد فاعل في كل جماعة من الجماعات الإسلامية التي تحمل فلسفة الإسلام عدوهم التاريخي والمعاصر والاطلاع على منهجها، وأهدافها، وأنشطتها، وتصريحاتها ومؤلفاتها .. إلخ فيكفي أن تجعل الإسلام منبع تصورها ومنهج حياتها لكي توضع في القائمة السوداء ويوضع أمامها آلاف الخطوط الحمراء، وتستنفر لها شياطين الإنس والجن، ولكن بطريقة غاية في التمويه والذكاء لأنهم يعملون حساب تقلبات الزمن فيتحاشون معها المواجهة المباشرة.

من هنا فمحاولة التواري خلف الأنظار والأزياء التنكرية في عالم المجهر والكاميرا وبرامج التجسس والمراكز البحثية تصرفات عتيقة تجاوزت زمنها، وما هو مطلوب هو إظهار الفكر كاملا دون خوف ولا تحفظ، مع الإعداد التام لأسلحة الدفاع السياسية والفكرية بلباقة وحفاصة وجرأة أدبية وقوة حجة، بعد ذلك ما وضع في سجل الأقدار لن ينزعه منهم أحد، وعليهم أن يسيروها خطى وجبت عليهم ومن وجبت عليه خطى مشاها .. أما أين سيحطون فيها الرحال فذلك لله وحده، ويكفي إفراغ الوسع في الاجتهاد وتوفر حسن النية ونبل المقصد وهو الشرط الذي إذا توفر فلن تضيع خطاهم سدى، بل قد يأتي من يبدأ من النقطة التي انتهوا إليها وعلى أيديهم تتحقق غاية الرغبة ومنتهى المنى إن لم تتحقق على أيديهم، هذا إذا كان مرادهم التمسك بالهوية لا مجرد التمسح بها.

التكثيف الدلالي بين الإعجاز والتعجيز

تختلف البُنى النصيِّة بين مؤلَّف وآخر، من سردية وصفية، إلى طرح الفكرة وإيراد مدعماتها، إلى المقابلة بين الشيء ونقيضه، إلى غير ذلك.

وقد تضع يدك حين تضعها على مؤلَّف فلا يعدو أن تجد تحتها لغْوا من كلام متناثر وجمل متنافرة، ككومة قش تبحث فيه عن فكرة بحجم إبرة فيعجزك الإغلاق محاولة، فتجد إنما هو حافل بإبراز مهارات الاستعراض اللفظي أكثر من الاحتفاء بفكرة قريبة المأخذ سهل المتناول، وكأن مؤلفه في سباق تحد مع قوة حدس القارئ وخصوبة خياله، فيوغل في التلغيز، ويسرف في إيراد المصطلحات الغريبة، ويُفرِط بجمع غير المؤتلف، لتعثر عليه يكلم نفسه .. أو يكلم عقليات مفترضة لا وجود لها في الواقع، أو أنها موجودة ولكنها تحتاج إلى جهد لتفكيك مغاليق النص لتظفر بالقليل من الجمل المفيدة.

ولقد يسهب الباحث في الحديث حول جزئية لم يستطع تقديمها بشكل أوضح، ويعزف عن ضرب أي مثال لها فبالمثال يتضح المقال، كما لو كانت تجمعه مع القاريء زمالة صفية ودروس ثنائية مشتركة، فليس عليه سوى أن يستنطق ذاكرته لإسقاط الإشارات والتلميحات على وقائع كأنما قد وقعت، وأحاديث كأنما قد حدثت.

ستجد مثل هذا في كتب أصولية فلسفية .. ودوريات أدبية حديثة .. وكتب مترجمة رديئة الترجمة .. أو روايات إيحائية مليئة بالخواء والهواء .. وما سمي بالشعر المنثور، أو النثر المشعور، ودونك نص شعري كهذا:

الثور يرقص فوق سلك التلغراف
ويغرد كالبلبل
ويلعب الشطرنج
كرياضي محترف.

ولربما رأى بعضهم أن النص مادة خام قابلة لاستخراج معان نفيسة أرادها الكاتب، ولكن تحتاج لغير قليل من الصبر.

وربما رأى البعض في الغموض ضربا من ضروب التكثيف الدلالي، أي ضغط الكثير من المعاني في القليل من المباني، عن طريق الإغراق في الصور والإيحاءات، والعدول التام

إلى المجاز، وهذا صحيح ما بقي هناك قرائن، ومالم تبقى ثمة قرائن لغوية منطقية دالة على فحوى الرسالة، فإنما هو ضرب من ضروب كتابة التعاويذ، والتمائم، والأسحار .. وربما كان مقبولا أن تجد مفاهيم لم تُفهَّم استنادا على خلفيات معرفية متداولة، ولكن تكمن المعضلة أحيانا في استعصاء إيجاد روابط علاقة بين الجمل بعضها بعضا.

على أية حال متى قرأت مالم تقرأ فلايزال من ورائه فائدة أيضا، فإنما هي لك أو لأخيك، أو للذئب، إذ بحسب مؤلف المنتوج أحيانا أن يكسب نقطة تفوق ضدك بأن يجعلك تصف قدراتك الذهنية بالغباء، ومهارته هو بغير العادية، ويطمئن على أن فهم تراكيب نصه بقي من حقوقه المحفوظة، فلا يحق لأحد الاستفادة منه إلا هو طالما أراد هو ذلك.

غير أن كتابا سماويا إعجازيا تحدى فصاحة الفصحاء يصف نفسه أنه:

- ميسَّر: (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ) [1]وغيرها.
- واضح: (... وَهَـــذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ)[2].
- (قُرآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ...) [3]خال من وعورة المسلك، والتمحلات اللفظية، وتكلّف في الصنعة.
- حافل بالأمثلة التوضيحية التي تساعد في نقل المعاني وتفتح المجال للتفكر: (.. .وَيَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)[4]، (وَكُلّاً ضرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ ...)[5] (وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ...)[6] فبدون تمثيل إيغال في النظري والتجريدي، وإبعاد للسرد عن الواقعية التي هي ثمرة الاتصال الإنساني.
- لا يهمل الدليل بكل صوره.

أ- النقلي:

(.. .ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ)[7] (.. .قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ...)[8].

---

1 - [القمر:17].

2 - [النحل:103].

3 - [الزمر:38].

4 - [إبراهيم:25].

5 - [الفرقان:39].

6 - [العنكبوت!43].

7 - [الأحقاف:4].

8 - [الأنعام:148].

ب-العقلي:

(أم تأمرهم أحلامهم بهذا)[1].

ج- المشاهدة:

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ ...)[2].

(أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ...)[3] .. حتى آيات التأمل المتشابهة فإن مرد الاشتباه فيها إلى تعدد الاحتمالات الدلالية الصالحة .. فلئن لم تظفر بمعنى واحد خاص فذلك هو التكثيف الدلالي المحمود .. نأخذ مثالا على ذلك قوله تعالى: (وَالسَّمَاء ذَاتِ الرَّجْعِ * وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ)[4] وقد سبقت في تأملة سابقة ونعيدها هنا لمزيد من الفائدة.

إن النظر العابر في مدلول هاتين الآيتين قد لا يستطيع أن يلتقط معنى مدركا يمكن إعادة المفهوم إليه .. لكن إعمال النظر والتأمل فيهما قد قاد إلى معان ذات أبعاد إعجازية .. بمعنى أنها وإن بدت مستغلقة لكن توفر القرائن دل على أنها تحوي من الإشارات مالم يكن يخطر على بال.أما المفسرون الأوائل فقالوا:

- يقسم الله بالسماء التي تمطر والأرض التي تصدع بالنبات.

ثم تطور مع سياقات العلم الحديث فصار منه:

- السماء التي ترجع المطر، والأرض الذي تعيده بخارا.
- السماء التي ترجع الحرارة للأرض مساء، والأرض تعكس إليها الحرارة صباحا.
- السماء التي ترجع أشعة الشمس إلى الأرض، والأرض التي تعكس الرؤية إلى النظر فيرى الإنسان بها الأشياء.
- السماء التي ترجع الموجات الراديوية في شكل أصوات وصور، والأرض التي تعكسها إلى السماء في شكل بث عبر الغلاف الأثيري.

*ويبقى لرجع الأرض معان منها:

- السماء التي ترجع بغلافها المداري جبالا من النيازك والشهب فلا تغزو الأرض إلا ما يفلت منها للعبرة.

---

1 - [الطور:32].

2 - [الروم:42].

3 - [العنكبوت : 19].

4 - [الطارق:11].

– السماء التي ترجع أشعة الشمس فوق البنفسجية الضارة عبر طبقة الأوزون، إلا ما يتسرب منه بفعل الإنسان .. ولايزال باب التأويل مفتوحا.

ندرك من هنا أن التكثيف الدلالي المحمود في قوله تعالى: (والسماء ذات الرجع والأرض ذات الصدع) هو تحميل النص ما يحتمل من مترادفات، وهذا يسمى في البلاغة إيجاز قصر، أي حبس أكثر من معنى في ألفاظ قليلة ولكن دون تعارض.

اقرأ لكي تبقى وترقى

أطِلْ من نافذة الكون المقروء (الكتاب) لتدرك عناصر مكونات الحياة وما تمثله أنت فيها .. أنت هاهنا في الدنيا لتفعل ماذا؟ .. أفتنتظر طيَّ آخر فصول حياتك دون أن تعرف عنوان روايتك على مسرح الحياة ما هي؟ .. ماذا قدمت في هذا المسرح المفتوح؟ .. وماذا أفدت وماذا استفدت؟ .. وماذا كان عليك أن تقدم في الحياة من أدوار؟ .. وجل ذلك يكون بالمعرفة وأهم مصادر المعرفة القراءة .. فبها تعرف حقوقك .. وحقوق خالقك .. وحقوق المجتمع والكون من حولك.

نزل عظيم الملائكة بهيئته الحقيقية وضم بشدة رجلا أميًّا في صحراء لا ماء فيها ولا نماء .. وقال له ((اقرأ)) فقال: ما أنا بقارئ .. فضمه الثانية وأمره بالقراءة فاعتذر (ما أنا بقارئ) لأنه أمي لا يقرأ ولا يكتب .. ثم ضمه الثالثة، وقال: (اقرأ باسم ربك) .. ذلك الأمي هو محمد – صلى الله عليه وسلم– فلماذا يضمه جبريل –عليه السلام– ثلاث مرات على ما فيها من شدة وما في الموقف من رهبة مع أن النتيجة واحدة؟! ..

الجواب أولا نعم تتضمن القراءة المطلوبة قراءتين الأولى لكتاب الله المنظور والثانية للكتاب المسطور، وهي في نفس السورة قال: (اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق) ففي الذي خلق آيات تأمل يمكن قراءتها في صفحات الكون المنظور بدءا بعالم الإنسان، مرورا بأصغر مكون في الكون وانتهاء بأكبر جرم فيه .. وقال: (اقرأ وربك الأكرم *الذي علم بالقلم* علم الإنسان ما لم يعلم) وهو (الأكرم) كان عظيم كرمه في أنه علمنا القراءة والكتابة، وأنه جعلنا كائنات معرفية وأمدنا بوسائط التلقي اللازمة للتحصيل العلمي فقال جل ثناؤه: (وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) [1].

---

1 – [النحل : 78].

لقد نزل جبريل عليه السلام بمفتتح أول صلة السماء بالأرض بعنوان رسالة العلم والبحث والقراءة والكتابة .. نزل على النبي وهو في غار حراء فقال:" اقرأ، قال: «ما أنا بقارئ»، قال: " فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني، فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ..." [1] وتتكرر العملية ثلاث مرات .. ثم تلى عليه آيات (اقرأ) من سورة العلق، فما مغزى إلحاح جبريل على النبي أن يقرأ وهو رجل أمي؟ إن المغزى في حدود فهمي هي لولا أن معجزتك يا محمد في أميتك لكان يجب عليك أن تقرأ .. وأن أميتك ليست فضيلة في ذاتها ولا سمة رسالية فيقتدي بك الناس من بعدك بقدر ما هي حاجة لتجنيب الوحي شبهة الاختلاق من رجل يقرأ .. ولولا هذه العناية الخاصة لكان يجب أن تقرأ .. وإن لم تقرأ أنت فلتقرأ أمتك الأمية، ولتجعل الوحي تحولا زمنيا بين الأمية والجهل والقراءة والعلم، وهو توجيه فيه من الشدة بقدر شدة جبريل وإلحاحه على النبي صلوات الله عليه.

والملفت أن أول توجيه نزل من السماء هو (اقرأ) وليس صلِّ يا محمد .. ولا اعبد الله .. ولا أطع ربك .. ليس لأنها غير مهمة بل هي الأهم ولكن القراءة كالوضوء لصحة الصلاة، فلا يكتمل مفهوم التوحيد ولا يكتمل معنى العبادة والتفكر بحق إلا بالعلم (وما يعقلها إلا العالِمون) .. وأول مصادر العلم القراءة سواء القراءة التأملية أو الترميزية .. والعلم في الدين هو الذي ينظم علاقة الفرد بنفسه، وبخالقه، وبالكون من حوله .. وفي الدنيا هو منصة العباقرة والموسوعيين أصحاب الأفكار والنظريات .. فبه غيروا مجرى الحياة ولم يكونوا كذلك إلا بالقراءة ثم القراءة .. ليست تلك القراءة التي للتسالي في كتب تبديد الوقت كألف ليلة وليلة .. وكليلة ودمنة .. وعرائس المجالس .. والزير السالم .. ولا في دردشات الوسائط الاجتماعية .. ولا في الطُّرف والمُلَح، ولكن العلم في الكتب الموسوعية التي تفلسف الحياة .. وتعين القارئ على اكتشاف نواميسها .. وفي روائع الفكر والأدب لنوابغ الأزمنة المتعاقبة في كل الحضارات.

وليس من المبالغة في شيء إن قلت إن الفرد بدون القراءة والمعرفة القادرة على أن تنتج منه عالما فاعلا لا يعدو أن يكون عابر سبيل في الحياة .. ورقما في خانة الإحصائية

---

1 – رواه البخاري.

السكانية لسكان الأرض .. وفي قائمة القوى الفائضة ينتظر صاحب مشروع يستغل خواء فكره ليملأه بما يريد ثم يقوده إلى حيث لا تريد .. حتى الرجل الأمي عليه أن يقرأ في الكتاب المشهود وإن لم يقرأ فمئات الآيات نزلت في التدبر لمن؟

إن القراءة العلمية ركيزة محورية لحل مشاكلنا .. والغرب واليابان والدول المتحضرة لم يصلوا إلى ما وصلوا إليه إلا بثقافة المعرفة البحثية والاستكشافية ومعايشة القراءة للتعمق في فهم قوانين الحياة و نواميسها .. وليس القراءة لما يسمى عندنا قتل الوقت بالتسالي، والأقاصيص، والكلمات المتقاطعة .. يا أمة (اقرأ)! من أهم مشاكلنا العزوف عن القراءة والاطلاع .. إن تعميم ثقافة القراءة والتعليم الراقي في المجتمع سيقوم بمهمة تحديد الموقع الحقيقي الذي نحتله في مقابل العالم المتحضر .. ويقوم بمهمة ضبط بوصلة اتجاه السير الصحيح نحو النمو والاستقرار .. ومهمة فض الاشتباك العدمي بين أصحاب العقول المجنونة ضحية الخواء والجهل .. ومهمة توفير الوقت والمال والنفس، بمعرفة أين يكمن الصح والخطأ والنفع والضر؟ قبل تخريب البلاد والعباد بسبب عقول بدائية متخلفة .. أفكارها في العصور المظلمة وأقدامها تسير في القرن الواحد والعشرين .. تكرر آليات الكهنة والمشعوذين وتقرأ بالكفِّ والتنجيم عن حظوظ المستقبل.

ولأن حديثي عن القراءة فمن فاتته الدراسة النظامية على ضرورتها يستطيع بالقراءة وحدها أن يحتل المقام العلمي الذي يريد .. فالله تعالى بدأ بمصدر المعرفة العام (اقرأ) وكم من العباقرة اعتمدوا على القراءة الحرة فأصبحوا ملء سمع الدنيا وبصرها .. فهذا عباس محمود العقاد الذي ترك نحو40 مؤلفا، ومصطفى صادق الرافعي الذي ترك نحو 20 مؤلفا في روائع الفكر والأدب، كلاهما لم يحصل على أكثر من الابتدائية .. وتوماس أديسون رابع أكثر إنتاجا في المخترعات العلمية التي خدمت البشرية ووصلت اختراعاته العلمية إلى 243 اختراعا منها المصباح الكهربائي الذي أنار ليل كرتنا الأرضية هذا العبقري كان شارد الذهن في دراسته، لذلك طرد من المدرسة بسبب الغباء، وأنهى دراسته بعد ثلاثة أشهر من الدراسة الرسمية ثم أصبح أديسون أديسون بجهوده الذاتية .. وقد يكون غباء العبقري ناتجا عن شرود

ذهنه الوقاد، والتماهي في فكره وتأمله أكثر من الانسجام مع فكر وتأمل غيره، بمعنى أن عقله يسبق إلقاءات المعلم إلى فضاءات أوسع، فكان متخلفا مع عقل معلمه متقدما مع عمليات عقله.

ويبقى العلم هو المطلوب وبغير العلم تعيش الأمم في عمى، لا أقول عمى البصر الذي يسقط صاحبه في حفر التراب .. بل عمى البصيرة الذي يسقط أمة بأكملها في حفر الجهل والفقر والمرض .. ويعطل نشاطها العقلي لصالح تفكيرها العضلي القائم على فلسفة المغالبة البدنية والاعتماد على التفكير العضلي المجرد.

قد يقال .. كم من عالم برع ذكاؤه ولكن في ابتكار فنون الشر .. وكم من أستاذ ذاع صيته ولكن في أسواق النخاسة .. وكم من أديب برع قلمه ولكن في أرصفة اللاقطين .. وكم من مثقفين ضلوا وأضلوا .. وهل إلا منهم جاءت النكبات وتفاقمت الأزمات .. وكفى بالأمي براءة أنه ضحية من ضحايا العلماء الجهنميين؟!!!

والجواب: أن هذا موجود .. وقد أخبرنا الله عن العاصم من ذلك فقال: (اقرأ باسم ربك) اقرأ باسم ربك .. لا باسم الهوى والمجد الذاتي لكي لاتنحرف .. باسم ربك الذي خلق .. لا باسم الدنيا الفانية .. باسم ربك بإخلاص النية .. وصدق التوجه .. وسمو الهدف .. ولقد شبه الله العالم الذي أسقط مكانة علمه بالكسب الرخيص شبهه بالحمار يحمل أسفارا لا ينتفع بما يحمل من علم.

والعالم الذي يجرد العلم من التوظيف الخاطئ يحتل مكانته في الدنيا وإن كان مؤمنا ربح معها الآخرة .. فقد تعهد الله برفع مكانة العالم حتى وإن لم يكن مسلما لأن للعلم عند الله مكانته الرفيعة، قال الله: (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) ففصل الذين آمنوا عن الذين أوتوا العلم، ولم يقل يرفع الله العلماء المؤمنين .. فما من عالم خدم البشرية وكان عزيز النفس عن تدنيس قدسيته بجرم المتاجرة إلا لقي المكانة والمجد في الدنيا وصار يتردد ذكره بالمدح والثناء على ألسنة الناس.

لذلك تعلّم قبل أن تتكلم .. تعلم الخير كي تكون عباراتك نقاط ضوء مشعة تنير للحائرين دربها .. تعلم لكي تزيد شيئا في الحياة. فإذا زدت شيئا فيها لم تكن زائدا عليها .. بل

ستزيد عمرا إضافيا .. وبقدر النفوس التي أحييتها ستبقى حيا .. تلهج الألسنة بذكرك .. وتصلك الدعوات الصالحة التي حرص عليها نبي الله إبراهيم عليه السلام بقوله: (واجعل لي لسان صدق في الآخرين) فرفعه بالذكر الحسن بأن صرنا ندعو له في كل صلاتنا قال الله: (وتركنا عليه في الآخرين) .. وقال في إسحاق ويعقوب: (وجَعَلنا لهم لسان صدق عليا).

وبالذكر الحسن امتن الله به على نبيه فقال: (وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ) [1] وقال فيه وقومه: (وإنه لذكر لك ولقومك ...) (لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم ...) صار لهم ذكر بالعلم .. فاتصال حياة الإنسان من بعده بمحامد الذكر والثناء الحسن على صنائع المعروف التي منها علم ينتفع به، حياة ممتدة وحسنات متصلة .. وبالحق نطق شوقي حين قال:

فارفع لنفسك بعدَ موتكَ ذكرها ** فالذكرُ للإنسان عُمرٌ ثاني

ومن ذا الذي يحب أن ينتهي إلى قطرة ضمن شلال متدفق من البشر تبتلعهم بطن الأرض ثم ينتهوا كأنهم ما مروا؟ .. لو سألت عن أحدهم البشرَ والحجرَ والشجرَ لم يعد لك عنه بجواب، حيث صار نسيا منسيا، وكأنه لم يكن شيئا مذكورا.

هذا لمن يبحث عن حيزه في الدنيا وإلا فإن فضل القراءة ومقامها ونفعها يتجلى أثره أيضا يوم القيامة، وهو لا شك أجل من منافع الدنيا وكل ما خلفت وراءك فعن عبد الله بن عمرو، قال: قال رسولُ الله – صلَّى الله عليه وسلم –: "يقالُ لصاحبِ القرآن: اقرَأ وارتَقِ، ورتِّل كما كُنْتَ ترتِّل في الدُنيا، فإن منزِلَكَ عندَ آخرِ آية تقرؤها" [2]. فاللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا.

1 – [الشرح : 4].

2 – رواه أبو داود (1464).

التحريض على التفكير

الإسلام ينشط العقل ويجعل المخاطب فاعلا لا مجرد متفاعل، وذلك من خلال طرق عدة منها ربط التواصل الحواري .. فإله السماء العادل فتح خط اتصال حاوري مع الجن والإنس .. وإبليس والملائكة .. وحاور الجماد (ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ)[1] وأوحى إلى النحل .. ويحاور الكفار يوم القيامة .. ويستمع إلى حججهم، فيعذبهم بعدله لا بعلمه: (يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها ...) حتى وهو يعلم بجرمهم، وكفرهم وعداوتهم؛ لكنه لا يعذبهم حتى يقيم ميزان العدالة فيهم، ويلقنهم الحجة .. لأن الرب الحقيقي عز وجل يمتلك الحجة البالغة: (فلله الحجة البالغة).

وسنجد جِذرا واحدا تداوليا في القرآن الكريم (ق ول) في سياق النشاط الحواري يصل إلى نحو (1432) كلمة وعلى النحو التالي:

(485 قال) (315 قالوا) (313 قل) (182يقول للمفرد والجمع) (50قيل) (43قالت) (26 قلنا) (9قلتم) (6 قلت بالضم والفتح) (3قلن).

أي أن العلاقة القائمة بين الله تعالى وعباده هي علاقة تداولية منفتحة، وليس علاقة جبرية يكون فيها طرف ملقٍ وآخر متلقٍ .. طرف يأمر وآخر يأتمر، صحيح أن من صور الطاعة الاستجابة بدون نقاش، ولكن الصحيح أيضا أن الله الذي كرم الإنسان جعل له موضع اعتبار فتجاوب مع تطلع حاجته لمعرفة العلة والمعلول في كثير من جوانب التعبد .. وبهذا الانفتاح يؤمن العبد إن آمن بخضوع قلبه لا بإخضاع قالبه، وإن كفر استحق العقاب على رد الآيات البينات.

من هنا ما أكثر ما يُلقي المولى تعالى الأخبار عن طريق الاستخبار .. ليتعبد عباده بالتفكير الحر، والنظر المسؤول، فنجده يلقي الأسئلة (أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ)[2] (أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ...)؟ [3](أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَذَا ...)؟[4] (أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ...)[5] (قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ

1 - [فصلت : 11].
2 - [الطور : 35].
3 - [الزمر : 36].
4 - [الطور : 32].
5 - [النمل : 60].

وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللّهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ)[1].

وكل سؤال من الله محمول على المجاز لا على الحقيقة البتة لأن الله لا يسأل ليعرف، بل يسأل ليقيم رابط الاتصال العلمي فيسأل حتى يضع المخاطبين أمام مسؤولية الإجابة عنها، فإذا أجابوا عنها عرفوا بأنفسهم الحقيقة .. وكان يمكن أن تنزل كأخبار ومقررات نهائية بدون توجيه السؤال، فيقول لم يُخلَقوا من غير شيء وليسوا هم الخالقين بل الله خلقهم فليعبدوه .. الله كاف عبده فليشكره .. إلخ غير أن الإنشاء تجعل المخاطب مشاركا في التوصل إلى الإجابة والاقتناع بما يترتب من توجيهات.

وكذلك كان يفعل رسول الله – صلى الله عليه وسلم– مع أصحابه، فمع أنه عليه ينزل الوحي .. إلا أنه كان كثيرا ما يقدم الأخبار في صورة سؤال "أتدرون من المفلس؟" " هل تدري ما حق الله على العباد وحق العباد على الله؟" "هل تضامون في رؤية الشمس ليس بينكم وبينها حجاب؟" أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم..."؟ الحديث .. وغير ذلك كثير فتقام التشاركية الحوارية ويطلب من المتلقي إعطاء رأيه ويضمن حريته في الاختيار[2].

هذا فضلا عن مآت الآيات التي تنشط العقل وتعطي الإنسان مركزية وجود، فتدعوه إلى التأمل في خلق السماوات والأرض، وخاطبت العقل بكل أسمائه وصفاته (العقول) (الأحلام) (النهى) (الأبصار) (الأفئدة) وعملية التعقل (يتفكرون) (يعقلون) (يتدبرون) (ينظرون) دعا إلى إدارة عجلة العقل فجعل التفكر عبادة، وأفضل الإيمان ما جاء عن بحث واستنتاج كإيمان سلمان الفارسي الباحث عن الحقيقة.

1- التفكير المركزي:

لكن الآلهة المنحوتة من بني البشر لا يجرؤون على فتح باب الحوار والنقاش مع الأتباع غالبا، لاسيما في الأمور الفكرية والعقائدية؛ لأنه لا حجة لهم مقنعة، فهم يفتضحون حين تظهر الأسئلة الاستيضاحية.

---

1 – [يونس : 31].

2 – سبق نحوه في منشور – من على الحق؟

ولقد ساق الله للآلهة الصناعية نماذج في الاستبداد أبو الطغاة (فرعون موسى) فقد ألزم أتباعه طريقة مركزية في التفكير، فهو الذي يفكر لهم .. وهو الذي يتكلم عنهم .. وهو الذي يعبر عن مشاعرهم .. بل وهو الذي يتدخل في تحديد قناعتهم كما سنرى.

انظر إلى قوله: (.. .قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ) [1] فهاهنا قصر التفكير عليه بأسلوب (ما وإلا) ثم لم يقل ما ترون إلا ما رأيته لكم، بل ما رآه لهم ليس أيضا متاحا إلا بواسطته فهو يرى الرأي ويحجبه عنهم ويريهم هو متى أراد لأن معرفتهم لا تلزمه، ثم يعطيهم كلاما معسولا في أنه لن يغشهم في تفكيره المركزي قال: (وما أهديكم إلا سبيل الرشاد) بمعنى امنحوني الثقة المطلقة إذا كنتم مؤمنين أني لا أغشكم .. وهكذا أساليب المستبدين ألا تثقون في؟ هل هناك من هو أحرص مني عليكم؟ وهل هناك من أعلم مني بهذه الأمور وأحرص مني على مصلحتكم؟ .. فإذا كان لن يغشهم فليشركهم في معرفة خططه؟ وإذا كان قد اختار لهم الخير فلماذا يحجب عنهم خيره؟

وانظر الآية التالية: (... مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي ...)[2] أيضا هو الذي يعلم لهم (ما علمت) (لكم) أنا المعني بالعلم لكم .. وليس كالمنهج القرآني الذي يقيم الاتصال الحواري بتوجيه السؤال: (أم لهم إله غير الله)؟ إذًا تعالوا وناقشوا ماذا تصنع لكم هذه الآلهة من نفع أو ضر.

ثم لا يكتفي أنه يفكر لهم في الأمور الفكرية والعقائدية، بل ويتدخل في تحديد قناعاتهم وتفتيش قلوبهم، فنوع قناعاتها يجب أن تكون بإذن منه فحين آمن السحرة (قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ...) [3]؟ مع أن الإيمان أمر قلبي لا سلطان للشخص نفسه عليه، يدخل إلى القلب بلا إذن من أحد، لكن الإله الصناعي المستبد يرفض هذه المآلات القلبية دون إذن منه، يريد أن يكون الإيمان باستئذان .. أمر عجيب حقا! إن لسان حاله يقول: كيف تتصرف قلوبكم بمعزل عن إرادتي هذه خيانة وتجاوز لحق طاعتي؟

وهذا المنطق المراوغ لايأتي بطائل، مهما بدا مغلفا بالمصلحة وادعاء الحرص قال تعالى: (وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى)[4] مجرد تغرير واستغلال لثقتهم العمياء : (فَاسْتَخَفَّ

---

1 – [غافر : 29].

2 – [القصص : 38].

3 – [طه : 71].

4 – [طه : 79].

قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ) [1] حكم عليهم بالفسق لأنهم طاوعوه أيضا في إلغاء عقولهم.

2- التحكم المركزي:

ويضرب الله لنا مثالا آخر للآلهة البشرية في التحكم المركزي، وهو النمروذ الذي حاجَّ إبراهيم في ربه، ففي حين يستدل إبراهيم - عليه السلام-على قدرة الله ورحمته في إحياء البشر من العدم، ومنحهم فرصة العيش وتكريمهم بالاستخلاف ثم قبضهم إليه لحياة أخرى خير من الأولى (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِـــي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِـــي وَأُمِيتُ ...)[2] ماذا قال النمروذ؟ (قال أنا أحيي وأميت) يعني وأنا أتفضل على المخلوق بالبقاء إذا شئت وأصادر حياة من أشاء بالموت .. فكأن حياة رعيته وعدمها صارت حقوقا محفوظة له، فهو صاحب الحق في التصرف فيها كما يشاء .. وليس كما قال بعض المفسرين أنه أمر بقتل مستحق للعقوبة ومنَّ على آخر مستحق بتركه .. بل الذي أمر بإحراق مخالفه وهو إبراهيم عليه السلام بدون حجة منطقية هو أيضا يقتل من يشاء دون أن يحتاج إلى عقلنة تصرفه.

والشيء ذاته سنجد المستبدين يمنون على من حكموهم وتحكَّموا فيهم أنهم وفروا لهم الأمن، أي أمن البقاء ولو بلا حقوق، ولا حرية ولاتفكير، ولا حق المساءلة .. يكفي أن أحدهم بقيت حياته آمنة في عهدهم وذلك عليه كثير، وعليه لا يهتم الحاكم بأنات الناس من ظالم عينه يعيث في الأرض فسادا فيعيده مرات ومرات لأنه المتصرف وحده في شئونهم ولا تتدرج شؤونهم في قائمة اهتماماته أو هكذا يوحي لهم، وقد تجده يبعث بتطميناته على صحة زعيم في أي دولة تعرفها أولا تعرفها والشعب يموج بجوائح، ولا يدلي فيها ولو بتصريح لأنه فيهم الحاكم بأمره وليس الحاكم بأمرهم .. وهكذا تتكرر نسخ فرعون في كل زمان ومكان.

1 - [الزخرف : 54].

2 - [البقرة : 258].

إضاءات فكرية

- عجبا لمؤمن يردد كل يوم في صلاته (الله أكبر) 94 مرة..ثم يكون كل شيء كبيرا في عينيه إلا الله ! .. فأين درس التحرر من علائق الدنيا؟.

- يلتف الناس حول جميل الروح أكثر من جميل البدن لأن بهجة الأنس تسبق متعة العين . . فمن بطأ به المظهر فليسرع به الجوهر.

- كثيرون يحبون تلك الحياة التي هم فيها أموات .. ويزهدون في الحياة التي تجعلهم أحياء بصنائع المعروف .. وحسن الأحدوثة.

- التعصب لمذهب أو لتكتل لمجرد أنه مظلة انتماء ليس لله فيه ولا للوطن حظ ولا نصيب .. بل هو تعصب جاهلى متخلف توظف طاقاته لحساب الشيطان.

- الشكلاني المادى يتعلق بمتعلقاتك أكثر من عقلك فلا عجب إن حدق النظر فى جمال جزمتك وصرف النظر عن جمال كلمتك.

- الطالب يجلس بالأمر القهري لسنوات خلف أربعة جدران .. إن لم يكن المعلم نافذة على عوالم العلم وبهجة جماله كان هو الجدار الخامس.

- قد يكون انبساط الآخرين لجمال تصحيح خطئك تجاههم أكثر من انقباضهم لوقوع الخطأ نفسه .. فاجعل من خطئك درسا في لباقة الاعتذار وحسن التصرف.

- أغلى ما نملك لم نستخرجه من التراب ولم ننحته من الصخور .. بل دفناه نحن في التراب وردمنا عليه الصخور .. إنها العقول عندما تموت وفي مخزونها كنوز كان يمكن أن تكون سر نهوضا لكنا أدرنا ظهورنا لها واتجهنا للنخالات التي تمنحنا كل يوم كوما من التفاهة وسيلا من الغثائية.

- قال الأغنياء : ماذا تريدون منا ؟ قال الفقراء : نريد أن تحبّوا أنفسكم مرتين وتربحوا الدارين .. فتضيفوا إلى غنى جيوبكم غنى قلوبكم.

- المرء بمفرده عقل وبغيره عقول .. قد ينظر للشيء من زاوية خاطئة لسنين فإذا انفتح وجد من يعدلها في دقائق .. الانعزال في زنزانة انفرادية عقوبة بلا ذنب.

- لا يقاس العمر بتجاوز الزمن للشخص بل بتجاوز الشخص نفسه للزمن .. فقد يبلغ في معارفه وإنتاجاته مبلغ الكبار وهو في سن مبكرة .. وقد يتجاوز آخر الستين وهو في إضافاته للحياة طفل يحبو.

- السعادة إن لم تأت من الداخل يمكن صناعتها أو تصنّعها من الخارج بتجديد المألوف وإضافة مؤثرات السعادة.

- لا أغلظ قلبا ولا أخشن طبعا من إنسان يجد متعته في آلام الآخرين .. وطربه في أنينهم .. وهناءه في بؤسهم .. هل سمعت بأكلة لحوم البشر؟ إنهم هذا الصنف.

- الرجل .. عندما لا يكتمل نصفه بالرقة التي تجبر حزمه .. وعذوبة اللفظ الذي يجدد عزمه .. وجمال الروح الذي يذهب تعبه .. ونهر الحب الذي يروي ظمأه .. و كهف الستر الذي يحفظ عجزه .. ورداء الصبر الذي يبدد غضبه .. فقد خسر الزوجة وربح الموظف.

- يشبع البخيل إذا امتلأت خزينته ولو جاعت معدته .. فياله من غني المال .. فقير الحال .. يأبى الخير .. ويجمع للغير .. وعليه يحاسب.

- السياحة إن كانت متعبة جمَّلت حياتك وجددت مألوفاتك .. وإن كانت مفيدة أضافت إليك ما أنت بحاجة إليه.

سابعا- تأملات في النهوض الحضاري

لماذا تقدم أولئك وتأخرنا نحن؟

يقول المولى تعالى: (وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ ...)[1] .. خطاب التسخير لجميع الناس مؤمنهم وكافرهم .. فهو للمسلمين والكفار تسخير نعمه بكل أشكالهم وأصنافهم .. فالدنيا سجل مفتوح للجميع .. فمن اكتشف السنن والنواميس التي أودعها الله وعمل بقوانين التطور تطور وغلب وتغلَّب .. من أجل ذلك تعبَّدنا الله بالعمل فقال (وقل اعملوا).

الغرب واليابان (عملوا) وبحثوا عن نواميس تطوير الدنيا ووجدوا مبتغاهم .. وجدوها في قوانين الطبيعة المودعة في الجاذبية .. في توليد الطاقة .. في الذرات .. في الكتلة إلى غير ذلك.

ثم وجدوا أن الاستفادة من ذلك لايكون إلا بالاستقرار .. والاستقرار لا يكون إلا بتحقيق العدالة لشعوبهم .. والعدالة لا تكون إلا بتحقيق المواطنة المتساوية للجميع .. فالإدارة للجميع .. والسياسة للجميع .. والإبداع للجميع .. وتكافؤ الفرص للجميع .. والرفاهية للجميع.

وبالعدل والاستقرار أخرجوا من الأرض ليس كعكة واحدة للحاكم الفرد، أو للعرق، أو للحزب، بل أخرجوا لكل فرد كعكة .. فتقاربت الفجوات .. وتقلصت الفوارق .. وصار الفرد بدرجة حاكم .. وصار الحاكم بدرجة الفرد، فهدأت وطابت نفوس الجميع، فلم يعد الذي يصعد للحكم مولودا .. ولم يعد الذي يهبط منه مفقودا .. وانطلق الجميع يحافظ على الوطن العادل، الذي أكلوا جميعا من خيره، ونعموا بدفئه، وبدون سيل من الأغاني الوطنية، ولا أناشيد ولا أهازيج، ولا زوامل ولا تطبيل .. بل بالحب الصادق.

في منطقتنا العربية بحثوا عن نواميس تطوير الدنيا .. لا في قوانين الطبيعة المادية .. بل في نواميس الطبيعة البشرية، والحزبية .. في المفاعلات المنوية .. والشفرات الوراثية .. وخصائص الكتل الحزبية .. فتوصلوا إلى نتائج استكشافية غاية في العجب، تهدمت بها البلاد، وزعموا أن بها ستتقدم.

([1]) [الجاثية: 13].

في اليمن على سبيل المثال، توصلت الجهود الاستكشافية للنهوض إلى ثلاث نتائج:

النتيجة الأولى- وجدت هيئة استكشافية عملا بنظرية الارتقاء، أن تطور الأمة وعزها لايمكن حتى يصبح الحكم، والسياسة، والمقدرات، والمنح كلها لجينات وراثية محددة .. اسم الهندسة السياسية لها (البطنين) وبقية البطون كش إمام .. فإذا كان البقاء للأفضل فهم الأفضل بحكم الاصطفاء الديني .. وإذا كان الحكم للأصلح فهم الأصلح بحكم الانتقاء الجيني .. وفي اللوح المحفوظ سجل الله لهم حقوق ملكية العباد والبلاد، فباتت حقوقا إلهية محفوظة .. لاينازعهم فيها إلا ظالم .. جفت الأقلام دونها وطويت الصحف، وإنما وجد البقية لمحبتهم .. والحفاظ على مكتسباتهم .. ولو أن الشعب بل والمسلمين آمنوا بهذا الحق الإلهي، لأمطرت السماء ذهبا .. وأثمرت الأرض حبا وعنبا .. ولكن يالسوء طالع المسلمين، لم يفطنوا لسر تقدمهم .. وترياق عللهم، ولم يعرفوا سبب تأخرهم ومصدر بلائهم .. فلم تنتكس الأمة من أول بزوغ هذا الحق السماوي .. ويحل بها الهوان والذلة إلا عندما اعتقدت أن التقدم بالصناعات لا بالجينات .. وأنه بالهندسة العمرانية لا بالهندسة الوراثية .. وحين ظنت أنه يجوز في محراب السياسة أن يتقدم المؤتم على الإمام .. والمفضول على الفاضل .. بسبب كل ذلك انتكست الأمة وكان المفروض أن تنتكس الدول المتحضرة أيضا لأنها لم تحكمها الجينات الوراثية لكن الدبور والنحس حل بالمسلمين خاصة.

والحقيقة لو كان التقدم والعزة والرفعة لا يكون إلا بحكم البطنين لكان اليمنيون يحكمون الآن العالم، فلم يحظ أحد من العالمين كما حظي شعب اليمن بحكم ذرية بطن الحسنين .. ألف عام وكان أبرز مظاهر الانتكاس هو ثالوث الجهل، والفقر، والمرض.

النتيجة الثانية- أما هيئة الاستكشاف الثانية، فقد توصلت إلى نتيجة مغايرة لما سبق .. تفيد أن نهوض البلد متوقف على إعادة كرسي الخلافة، وإعادة هيبة المسلمين وارتداء الجبة واعتمار العمامة .. وأن يحكم السلف بسيف الصلف، أو تخلو الساحة لشركة التنظيم المحدودة .. فهم القدَر .. وهم المهدي المنتظر .. ثم متى حكموا حملوا همّ العكوف على مصالح أعضائها .. وتأمين منافعهم وترتيب مواقعهم .. وعلى باقي الشعب أن يؤهل نفسه في

أكاديمية أهل الثقة، بالحصول على شهادات الجودة وصلاحية العمل .. وتحديد جهة المنشأ السياسي والفكري.

النتيجة الثالثة – أما هيئة الاستكشاف الثالثة فقد أسفرت دراساتها النهضوية ورؤيتها، بالقول إن صلاح البلد وأساس عمرانه لن يكون إلا أن تظل البلد كلها للحزب الفردي العام .. وباقي الشعب يتم إعطاؤه من خمس الأنفال إن بقي يعيش إلى جوارهم .. فعليه أن ينتظر حصة المؤلفة قلوبهم، وابن السبيل؛ لأنه مكتوب عليه النزوح إلى الخارج .. ولا صلاح ولافلاح للوطن إلا بوجود هذا الحزب على رأس الهرم .. فهم وحدهم النخبة .. ورجالات البلد .. ومخاليف اليمن وأقيالها .. وأهم من هذا وذك يمثلون الوسطية .. فلاغلو في الدين .. ولاعلو في الطين .. ولا ديانات ولا مذاهب .. بل الوسطية وسط المكاسب والمناصب .. ووسط القروش والعروش .. فليبق الحزب هو الأول .. ومن شاء ضم ومن شاء سربل.

وهكذا تُقدَّم مشاريع النهوض الحضاري من طرف العقول المتكلسة، بإسناد ملف الحكم لفصيلة دم واحدة تأخذ ولا تعطي، فإما فصيل يحكم وآخر يخدم، أو نصب حائط المبكى على وطن مختطف وهبه من لا يملك لمن لا يستحق.

حسنا فهل يمكن أيها الموحِّدون في الحكم أن يعيش الإنسان بعينين وأذنين ويدين، وإلا لازم أيضا نوحد فنفقأ، ونقطع، ونكسر الزائد لننهي التنافس؟. .. ولربما وجد المؤتمري إصلاحيا يشغل منصبا، أو وجد هاشمي مؤتمريا أو شكَّ فيه من نوع لباسه ولحيته وهندامه، أو ربطة عنقه وشنبه، فاستعاذ (بكلمات الله التامة من غضبه، وعقابه، وشر عباده) من هذا الحزبي الغريب الذي قعد على كرسي ليس من حقه، هكذا تنقبض أساريره من ابن بلده وكأن البلد بلد أبيه وأمه، والآخرون أجانب وغرباء ومتطفلون عليه، ووجودهم إلى جانبه خطأ تنظيمي غير مقصود.

ولقد يفرغ مثل هؤلاء حفاوتهم للأجنبي أكثر من مواطنيهم، ويعطونهم المرتبات السخية وبالعملات الصعبة وفي اليمن من هو أكفأ منه ولكنه مصنف حزبيا .. كأن الله خلق العباد على مقاس هذا الحزب فلا يشذون عنه قلبا ولا قالبا.

إن الإنسان بمفرده عقل وبغيره عقول .. والحزب ببرنامجه رؤية وبغيره رؤى .. والذي ينظر للبلد مجرد فريسة لاتكفي لغير واحد، فهذا يحمل طباع السباع، ومخالب الضواري، التي لا تعيش إلا بموت الآخرين.

نحن بين الماضي والحاضر

تتوسع دائرتا الثنائية الضّدية عند تقييم ارتباطنا بالماضي، كما تتعارضان في تقييم ارتباطنا بالهوية وخصوصية الثقافة .. فلا يطفو على السطح سوى أنصار ويمثلون القاعدة مقابل أعداء ويمثلون الاستثناء، وهذا شأن مراحل الانهزام يبرز فيها الانقسام على حساب الانسجام .. وليحمّل كل طرف مسؤولية التراجع .. وبينهما يخفت صوت الاعتدال، ثم ينتهى الوضع على النحو التالي:

- **أنصار القديم:**

بجملة من الشعارات عمدوا إلى تحشيد الناس نحو العودة إلى الماضي، (فلا يصلح هذه الأمة إلا بما صلح به أولها) (وانتهى عصر الاجتهاد .. فما ترك الأول شيئا للآخر) ولم يرغبوا في تحديد حدود معنى الصلاح المراد به في الشعار .. ولا أين ينتهي معناه ومغزاه .. بل نادوا بالالتزام بنهج السلف على المطلق، مستأنسين بحديث (خير القرون قرني ثم الذين يلونهم) ولم يرغبوا أيضا في تحديد معنى الخيرية في الحديث الشريف، بل جعلوه رافعة لإسكان رؤوسهم في القرون الآفلة .. فلانسمع لهم في القرن الواحد والعشرين سوى قرع نعالهم .. حيث يسيرون فيه ولكن بلا وعي ولا إدراك .. مغيبون عن موجات كبرى من التحولات الفكرية والحضارية التي تحدث من حولهم .. ففي الوقت الذي يطأ الإنسان الغربي بأقدامه في سطح القمر .. ويكتشف الهندسة الوراثية DNA .. وفي الوقت الذي تجرف نحو ثلث العالم حركة الإلحاد بنظرية (الصراع الطبقي) و(جدلية التاريخ المادي) وشعار (الدين أفيون الشعوب) و(لا إله والحياة مادة) ونظريات تفتيت الوحدة العضوية والشعورية بوجود دعوات القومية بدل الأمة .. ثم الوطنية بدل القومية، في هذا الوضع الذي طغت فيه دعوات التغريب .. واجتاحت المنطقة المحتلة ثقافة التفسخ الاجتماعي، والجندرة .. وحل نظام الأسرة .. ستجد هاهنا في الشرق جماعات انتبذت لها مكانا قصيا .. فلايعرفون عن هذا كله إلا رجع صدى .. فهم هناك في القرون الأولى .. يخوضون جدلية صراع التعطيل والتجسيم مع الجهم

بن صفوان .. وهم هناك مع واصل بن عطاء يردون على مذهبه الذي يقول بنفي الرؤية والمنزلة بين المنزلتين.

ستجد هاهنا شيخا عاكفا على التنقيب في مؤلفات معاصرين إلى أي مدرسة من المدارس الكلامية القديمة ينتمون؟ .. ويقرأها قراءة مجهرية ليلتقط ما يمكن أن يصنف في خانة مدارس اندثرت، فهذا حشوي مجسم وهذا جهمي معطل .. وهذا معتزلي يعتمد على العقل بدل النقل.

وستجد هذا يناقش رسالة دكتوراه عن جهود الماتريدية في الجدل الكلامي ضد غيرها من المدارس المنحرفة والعقائد الهدامة التي انتهت كمؤسسات وأنصار، حتى لقد صار العلمانيون يتندرون بكلف هؤلاء بالماضي والإقامة الفكرية فيه، وأنهم يحملون على ظهورهم جثث الماضين، ولا ينظرون إلى محيطهم إلا بعيون الموتى.

وتدور عجلة التطور بسرعة لاتحتمل التلكؤ .. وهم يتكلمون ويخوضون في صراعات فكرية لم يكن بقي منها في الأذهان شيء .. وبلغة غريبة عن لغة العصر لا يكاد يفهمها سواهم .. وبمصطلحات ما كان أحوج الناس إلى سماع نحوها في مقام العلم والإنتاج .. أو في مقام الدفاع عن الهوية من مدارس فكرية معاصرة .. صارت تميد بالأرض من تحت أقدامهم .. مثل الليبرالية .. والاشتراكية .. والرأسمالية .. والعلمانية .. والفلسفة الطبيعية .. والمادية الجدلية .. لكنهم لا يلتفتون إليها .. وإذا التفتوا إليها رشقوا أصحابها بسهام التكفير والتبديع والتفسيق (وكفى الله المؤمنين القتال) فإذا قيل لهم اقرؤوا لهم وناقشوهم، قالوا كفار وزنادقة كيف نقرأ لهم؟ ونسأل أو لستم تقتدون بالسلف؟ أو ليس السلف النسخة الأصلية قد أخذ على عاتقه مهمة مناقشة المدارس الفكرية ودحضها في زمانها؟ ليست المسألة في أن السلف كانوا الأفضل فيأخذوا منهم منهجهم للتعامل مع معطيات العصر .. ولا أن تلك المدارس الكلامية تتكرر في مسائل العقيدة اليوم في آحاد الناس فيلحقونهم بتلك المدارس التي لم تعد تسري مصطلحاتها حية بين الناس مثل العلمانية مثلا .. بل السلف هم الأفضل عندهم بمعنى العودة للعيش معهم .. وتمثل نمط تفكيرهم .. والنظر إلى الحياة من زوايا رؤاهم .. وترديد مقولاتهم .. واجترار عالمَهم .. في زمن اختلف لغة، وفتوى، وضرورات، ومقتضيات، وطرائق تفكير .. حتى على مستوى صياغة الأدب، فلغة ابن قتيبة، والجاحظ، وابن سلام الجمحي غير لغة

سيد قطب، وطه حسين، ومصطفى صادق الرافعي، فأولئك لهم سمتهم الخاص وهذا العصر أفرز سمته اللغوي البليغ الخاص .. لكنك تراهم يجوِّدون كلامهم عن وقائع لا صلة لها أحيانا بالواقع المعاش .. ويحبِّرون قصصهم عن ظروف حياة لا تشترك مع عصرنا بجامع شبه سوى تسجيل إشكالية الامتداد الأبوي (بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا) [1] وصحيح أنهم كانوا بلغاء وفصحاء ولكن الصحيح أيضا أن بلغاء اليوم بلغاء بأساليب جمالية أخرى وطاقة اللغة العربية لا تنفد .. ولربما استنكفوا تناول الحاضر بلغته ومعطياته، وأشخاصه، وعلمائه، وظروفه، ومتطلباته .. لأنهم عشقوا الماضي وتوقفوا عنده، حتى تلك المدارس الكلامية والجدلية المنحرفة الماضية عشقوها من حيث يدرون ولا يدرون لا يملِّون دأبا على التقاطها من التراب، ومسح الغبار عنها، وغرسها مجددا في عقول أهل زماننا .. إما بكثرة تناولها وتداولها .. أو بإلباس مخالفيهم أثوابها .. وتزيين ألقابهم بنعوتها ومصطلحاتها.

فهناك في الماضي توقّف الزمن .. وانتهت صيرورة التاريخ .. حتى قال المفكر محمد عابد الجابري في كتاب (تكوين العقل العربي) –ما مضمونه – اختلطت عصور الفكر، فجميعنا يعيش عصرا واحدا .. فلا تكاد تفرق بين خصائص عصر وعصر .. كلهم يعيشون في الماضي حتى على مستوى النحو، واللغويات، وكثير من العلوم الإنسانية، فكتاب (العين) للخليل بن أحمد معجزة لم يُضف إليها شيء ذو بال من ذلك التاريخ .. الغالب اكتفى بالتعيّش على مائدته، والدوران حول معطياته .. وقل مثل ذلك على كتاب (جامع البيان) للطبري، وكتاب (الكتاب) لسيبويه (وأصول الفقه) للشافعي و(دلائل الإعجاز) في النظم لعبد القاهر الجرجاني، هؤلاء عباقرة لم يتكرروا، أو لم يُطوَّروا لأنه (ليس في الإمكان أبدع مما كان) كذا .. يظهر العبقري فجأة ليضاف على إنتاجه صفة المقدس فمن أراد أن يضيف فقد كبَّر حجم نفسه ورحم الله امرءا عرف قدر نفسه .. حتى قال أبو عثمان المازني رحمه الله في كتاب سيبويه من أراد أن يؤلف كتابا كبيرا في النحو بعد سيبويه فليستح، وأضاف غيره من الموحدين أن لا متسع لإضافة شيء في النحو فقد طبخ حتى احترق .. وهذا محض خطأ فليست هذه العلوم موقوفة بالتنزيل بل تظل محل اجتهاد وإجالة نظر حتى يوم القيامة .. وإنما تترقى الأمم بالجهود التراكمية لا بقانون الصُّدف .. وكم من الساكنين في قروننا السالفة أعد

([1]) [البقرة– 170].

رسائل مطولة وبحوثا مثقلة بهموم القرون الأولى بات بعضها من لغو الكلام وإنما يفعل ذلك ربما لمجرد التنطع والتباهي بها .. وهو لايعلم شيئا عن تساؤلات العصر القلقة، أو يعلم ولكن مشاعره لا تنتمي إلى العصر الذي يعيش فيه، مع أن الله إن سألهم فلن يسألهم عن حياة سلفت ماذا فعلوا لأهلها، بل ماذا فعلوا لأهلهم لمواجهة احتياجات العصر من البناء والإنتاج ومواكبة تقدم الغير؟ .. ولن يسألهم ماذا فعلوا مع شبهات هدامة لم تعد موجودة اليوم، بقدر ما سيسألهم عن مدارس زمانهم الفكرية وعن مؤسسات اقتلاعية تضخ الشبهات والشهوات تهدف إلى استئصال المكون والكيان من الزمان والمكان معا؟ .. ومع ذلك (يحسبون أنهم يحسنون صنعا).

نعم كان السلف خيرا من الخلف بالهدى والتقى وهذه صفة انتهوا بها ظافرين .. ولأنهم ربما خدموا عصرهم وأحسنوا تدبيره ونهضوا بأعبائه، فصلاح السلف في أنفسهم وإصلاحهم لواقعهم لا يبرر البحث عن سكن لعقولنا معهم وإدارة ظهرنا للواقع .. أو التنازل عن مهامنا في مواجهة احتياجات العصر المختلفة وتفسير الأحداث المتغيرة .. ولا لنترجم لغة العصر لغة الطائرة والباخرة ونقل الأعضاء ونقل الجينات بلغة الماضي ومعطياته .. وما قال الحديث نتعبد إلى الله بجحود نعمة العقل الذي أعطى .. ونعيش عالة في التفكير والتفسير والتدبير على من مضى فذلك جنوح للدعة .. وإعفاء النفس من تحمل عبء المسؤولية .. وكما روي عن الجاحظ قوله: «إذا سمعت الرجل يقول ما ترك الأول للآخر شيئا فاعلم أنه ما يريد أن يفلح» وهذا هو ما صار يعكس واقعنا وبالله المستعان.

ذلك ما يتعلق بمشاغل جزء من أهل السنة، أما طائفة الشيعة فحدث ولا حرج، فإنهم في الماضي بخرافاته، واجترار عذابات الإنسانية المحملة بالأساطير، فعيشهم في القرن الواحد والعشرين بأحلام السباع وخفة الطير، وهم بصفة عامة طائفة ملعوب بعقولها من قبل حفنة من المتاجرين بأفهام الناس.

- أعداء الماضي:

وعلى النقيض من ذلك تصاب الأمة بجائحة التأفف من الماضي من تيار يمجّد الغرب بماضيه وحاضره .. يردد مقولات سقراط، وأبقراط، وإفلاطون بل وأي مفكر أو زعيم غير

مسلم قديم أو حديث مثل نيتشة، ودستويفسكي، وانجلز، وماركس، ودافنشي، وحتى سميراميس الآشورية وفكتوريا الملكة، وما نعلم وما لانعلم .. كل هذه الأسماء من غابر التاريخ وحاضره، هي عند الرافضين لماضينا أسماء رمزية ذات مكانة حضارية وثقافية .. حري بالإنسان العصري أن يجمِّل أحاديثه بها، ويحسِّن كتاباته بإيرادها، ويقوي قيمة بحوثاته بالاستدلال بها .. أما مفكرونا وفلاسفتنا وعلماؤنا فهي جثث نحملها على ظهورنا –كما يرون– ومومياات محنطة في متاحف الآثار .. والعودة للإستفادة منها إنما هي ردة عن العصر .. ومظهر تخلف .. وتكرار واقع مضى وانقضى واستنفد أغراضه .. حتى ليصعب على أحدهم أن يمرر أحدا من أولئك العظماء على منتوجاته ولو كان عبقريا في الأصول كالشافعي .. أو فيلسوفا في الفقه كابن تيمية .. أو عالما مجاهدا مثل العز بن عبد السلام .. أو إماما عادلا مثل عمر بن عبد العزيز .. وإن بعضهم ليستحي من أسماء اشتغلت في العلوم الطبيعية كالفارابي، وابن رشد، وابن البيطار، وابن الهيثم، وابن سيناء .. اللهم إلا تلك التي قد تماثله في مناهضة المؤسسة الحاكمة وما اتصل بها من مدارس فكرية وفقهية فإنه محل تمجيد وموضع ثناء .. مثل قيادات الحركات الهدامة كحمدان بن قرمط .. وسعيد الجنابي .. وعبلة العنسي .. وحركة بني حنيفة الارتدادية بزعامة مسلمة بن حبيب (مسيلمة الكذاب) .. وحركة الحشاشين .. وحركة الزنج بزعامة بهبود علي بن محمد الفارسي .. فهؤلاء مدعاة للإشادة عندهم ووصمهم بالحركات التحريرية .. التي أرادت أن تتخلص من ربقة الحكم الديني المتسلط .. وإنما يشيدون بها لأنها سبقتهم في حربها للإسلام ونظامه الاجتماعية .. وكيانه السياسي الموحد .. وهذه آفة المدرسة الانطباعية التي تقدس متعلقات الإنسان المنتصر وتعدها مثالا يحتذى .. وتتحاشى أن تتعايش مع الواقع المنهزم ومتعلقاته حتى وإن كانت جزءا من ذلك الواقع .. وتعد ما يتصل بها من خير ماضيها وضوء نجومها موضع شك لا داعي لإعادة تناولها والإفادة منها .. وتلك هي المصيبة بعينها.

التقدُّم بين الثابت والمتحول

*** تحويل الثابت:**

من أسباب التأخر الحضاري عدم الاستقرار السياسي، فلا إنتاج بلا استقرار، ولا استقرار بغير عدالة، ومن أبرز المظاهر غير العادلة هو التدخل العنفي أو القهري في محاولة تغيير ثوابت الناس الدينية، أو الوطنية، أو السياسية، الأمر الذي يقود إلى تفكيك عرى المكونات المجتمعية، وإشاعة الفوضى؛ لأنه بما أن الثابت غير معيق حضاريا إعاقة تسلطية فإنما هو خوض في إلهاء الناس في تغيير أحد مكونات شخصيتهم، وافتعال معارك محو مصيرية تخوض في قضايا البدء والإعادة .. فينخرطوا في جدل الصراع البنيوي، بين فارضين ورافضين؟ .. وشعار كل منهما إما نكون أو لا نكون .. وبالتالي فلا استقرار، ولا انتاج، ولا احترام متبادل بين المجتمع، بل حرب قائمة، أو تربص فكري وتمترس حربي متصل .. وهذا ما جهلت مؤداه الحركات ذات المشاريع الفكرية (الوافدة) في وطننا العربي، منذ فترة ما بعد الجلاء أي من منتصف القرن العشرين تقريبا .. وهو العصر الذي أسماه اليساريون عصر اللهيب الثوري والغليان النضالي .. فاستمر اللهيب والغليان من أجل تغيير البنية الفكرية للمجتمع، وانصرفت المشاريع عن التنمية الحقيقية، إلى مشاريع إحلال الوافد محل الثابت، وتغيير أنظمة التفكير للأمم وإعادة فلسفة الحياة والكون .. فأُنفقت مقدّرات الأمة في الغزو اليساري الجدلي المتخلف، إما عن طريق الحروب كالحرب بين اليمن جنوبا وشمالا، أو عن طريق إنشاء حركات سياسية مناوئة كالتحارب بين قيادتي البعث السوري والعراقي على زعامة المدرسة البعثية، في عهد حافظ الأسد وصدام حسين .. أو عن طريق الاضطهاد الفكري وتحويل البلد إلى سجن كبير لمن يناوئ الفكر الجديد، مثل الزج بعشرات الألوف في أقبية السجون من علماء ومفكرين في سائر الأقطار العربية التي حكمها اليسار المتطرف، أو بإنفاق مقدرات البلد في نشر الأدبيات الفكرية الوافدة، وطبع الكتب، وإعداد المنظرين، وأساطيل من المطبلين والمسوقين والمغنين لهذا المعتقد الذي يصوره الحاكم على أنه بوابة الأمة إلى النهوض والعز.

إن الحضارات الدنيوية لا يصنعها نوع الثابت، وبنية الفكر المجتمعي، وشكل الهوية فإنما هي أزياء الشعوب، وبصمات التعارف، بل يصنعها العدل، والاستقرار، والتوجه الجاد نحو البناء، فاليابان وثنية .. وأمريكا مسيحية .. والصين اشتراكية .. وماليزيا إسلامية، وكلها دول متحضرة، والذي سيؤخرها ويدمرها هو الدخول في جدلية تحويل الثابت .. وصراع البدء والإعادة .. والتفرغ للتطهير الفكري .. وغسل الأدمغة .. وغوغائية التعصب والتحزب .. وفرض الألوان الأيدلوجية والطلاءات الفكرية المستوردة.

إن انتهاج أسلوب العنف أو الضغط والتضييق، وتغير بنية الفكر حتى لو كان التحويل من ثابت عرفي خطأ إلى آخر صواب بدون روية ولا سياسة راشدة .. سيكون سببا للمساس بالاستقرار؛ وطاردا للاستثمار؛ لأن المنتجين والمبدعين ورؤوس الأموال سيرون في واقع مضطرب غير متفق على محدداتٍ وطنيةٍ واضحة، وتوافقات مجتمعية مجمع عليها، سيرون فيه بيئة غير آمنة، ومهددة بالانفجارات المسلحة، فطالما بقي في الشعب مكوّن غير راض على الإملاء الفكري التسلطي، فيعني أن هناك بركانا يتململ ويبحث عن قشرة رقيقة، يمكن أن ينفجر منها في أي وقت .. وإن بيئة مشحونة بالاضطراب الفكري أو الأثني لتشير إلى أن سلطتها سلطة غير مسؤولة، لا تحمل مشروعَ وطنٍ، بل هي تتقمص دور الغازي الذي يهمه ترك بصماته الإحلالية في بلد آخر، وسلطة تحمل هم لتخطيط لفرض قالبها على قلوب الآخرين .. وبناء مشروعها على حساب مشاريع الآخرين، تماما كما يفعل الغزاة حين يحتلون الشعوب الأخرى .. لذلك فالمحددات الوطنية من حُدود ومكتسبات ثابت من الثوابت .. والمحددات الدينية من قوانين وثقافة ثابت .. والمحددات الديمقراطية وصيغة نظام الحكم جمهوري أو ملكي ثابت .. ولا تتحول واحدة من الثوابت إلا بواحدة من اثنين إما بانقلابات عنفية، أو بطغيان فئة على أخرى، وهذا يساوي الدمار وبالتالي عدم البناء والتحضر.

من هنا فالترويض على ثقافة التغيير السلمي، وتعدد مهارة التدافع الآمن، يعد في نظري مسؤولية وطنية يجب أن تدرس على مستوى المدارس، حتى لا يعلق في الذهن خيار واحد للتغير وهو العنف وضغط القوي على الضعيف.

*** تثبيت المتحول.**

وعكس تحويل الثابت، تثبيت المتحوّل، فالانشغال بتقديس ما هو في إطار المتحول، وجعله كالثابت، ومنع الاقتراب منه أيضا صنمية وجمود، وأحد الإعاقات أمام التفكير .. سواء كان في الدين، أو الوطن، أو نظام حكم، أو ثقافة مجتمعية، فالحجر على التفكير فيما هو مجال اجتهاد يؤدي إلى سيادة الكبت، ويتوقف الناس عند زاوية موحدة للرؤية، وينتهي الإبداع، وتتوقف حركة التطوير، فما هو إلا ما قرره ذلك المذهب .. أو ذلك النظام .. أو عرف القبيلة .. أو قاله ذلك العالم .. أو الحاكم .. أو شيخ الطريقة، فلا يتحول ولا يتبدل فيستمر الخطأ خطأ، ويبقى النجاح مرهونا بزوال إعاقة حائلة لم تُزل، أو عاهة مشوهة لم تعالج.

لقد تردد الصحابة كثيرا في جمع القرآن، ونسخه من الصدور إلى السطور، إذ هابوا فعل ما لم يفعله رسول الله .. لكن لأنه لم يكن منصوصا عليه فليس ثابتا، فحولوا ما ظنوه ثابتا بخطوة الجمع في مصحف واحد، ولوبقي جمعه في حكم المحرم، وحكموا على بقائه مفرقا كثابت ديني لربما ضاع القرآن واندرس .. ولمّا ألف ابن جرير الطبري تفسير القرآن (جامع البيان) استفظع الناس هذا الفعل، فضايقوه ورجموه بالحجارة، إذ كيف يقول في كلام الله برأيه، لكن لأنه لا دليل يمنع هذا النوع من التجديد ثبت على موقفه، وأصبحت كتب التفسير بعد ذلك عالة على جهوده.

وجاء شيخ الإسلام ابن تيمية والناس يعدّون تعدد الطلاق في مجلس واحد طلاقا بائنا، وصار عندهم في حكم الثابت، فقال بل هو طلقة واحدة حتى يكون في أماكن وحالات متفرقة، فحورب ولكنه أصر على كسر الإجماع؛ لأنه قائم على مجرد الاجتهاد، ثم وافقوه بعد ذلك وذهبوا مذهبه حتى اليوم.

ولما رأى عباس بن فرناس أن لاشيء من عقل أو نقل يمنع من طيران الإنسان في الهواء، حاول خوض التجربة وجاء بعده من تشبث بفكرة الممكن هذه، فطار وطار الناس في الهواء، وحققوا بتحويل الثابت الظني وهو السير على الأرض إلى معجزة الطيران في الهواء.

إذن جِماعُ القول فيما سبق، هو أن كلا الأمرين، محاولة تحويل الثابت بالعنف والتضييق، أو محاولة تثبيت المتحول بالحجر والتشديد، أحد أبرز عوامل التخلف، فالأول

يَحولْ دون توفير بيئة مستقرة كشرط لتحقيق التقدم والرفاه، والثاني يحول دون محاولات التجديد والإبداع كشرط تقدمي أيضا.

ولو بحثنا في واقع العالم الثالث سنجد أن أهم المعارك المعيقة للتقدم كانت في تحويل الثابت أو تثبيت المتحول .. ولعل ذلك جاء نتيجة التأثر بالثورة الفرنسية التي نادت بشنق آخر ملك بأمعاء آخر قسيس، فصار في تصور البنية التحديثية أنها مشروطة بالتغيير الديني، والواقع أن ذلك كان شرطا حضاريا ولكن في الغرب خاصة؛ لأن الكنيسة التي كان لها سلطة الفعل كانت تحارب العلم والعلماء بشدة .. تحرق العلماء وكتبهم .. وتصمهم بالمهرطقين، فكان لابد من إزاحة هذا المحارب الشرس أمام التقدم .. وفي بلداننا وقف العلماء أيضا بصلابة ولكن ليس أمام العلم والانتاج، وإن كان قد تحوّطوا أحيانا ووسعوا من مفهوم سد الذرائع بمنع بعض وسائل العصر حتى ثبت جدواها، بل ربما انطلق بعضهم من قاعدة مقلوبة وهو أن الأصل في الأشياء التحريم حتى يأتي دليل يبيحه .. ولكنهم لم يضطهدوا عالما، فلم تكن لديهم سلطة المحاكمات ولا تنفيذ العقوبات كما كان عليه الحال في الغرب بين العلم والكنيسة .. نعم ربما وقف بعض المفكرين وعلماء الشرع بصلابة ولكن أمام التقدم (الحظائري) الذي انطلق من الشوارع الغربية، وليس أمام التقدم الحضاري الذي خرج من معاملها وجامعاتها .. واللوم في التصادم بين المحافظين والمتفلتين يعود على المدرسة التغريبية الشكلانية، التي انبهرت بالشكل ولم تتجاوزه إلى المضمون.

اضطراب الحياة شلل في التفكير

إن الذي يحصل على حكم بالإعدام لا يفكر في تطوير ذاته، بقدر ما يفكر في كيف ينجو بذاته .. وعندما تجتاح الشعوب موجات من الصراعات والاضطرابات، ويتسبب ذلك في حدوث ميلان شوكة ميزان العدل السياسي الذي يتمادى معه المسؤول في الجو ويصنع الأزمات، والفقر، واليأس، ويرفع معدل الخوف من المجهول، حينئذ ينصبُّ التفكير حول الحفاظ على عنصر البقاء .. حول الكفاح لتأمين لقمة عيش شريفة .. حول حراسة ثغور الدين والمجتمع والأسرة من أن يتخطفها المتاجرون بكل جميل في زمن الرخص.

إن في رؤوسنا كتلة لحمية تسمى الدماغ، وفي الدماغ العقل عندما تجد هذه العقول مقومات الحياة الأساسية ينصرف تفكيرها إلى ما هو زائد عن مقومات البقاء الأساسية .. تفكر في التجارة لتنمية المداخيل .. في إنشاء الصناعات .. في الانشغال بالفكر والتأليف .. في تحسين مفردات الحياة باختراع أشياء جديدة لتحسين وسائل الرفاه .. لكن من أين يأتي هذا كله وقد تحولت حياة الناس إلى طابور مليء بالقلق .. طابور على الوظيفة .. على الغاز المنزلي .. على وقود السيارات .. على الخبز على .. على؟ الطلب كثير والعرض قليل .. وإن كان كثيرا فغير مقدور عليه.

نعم يقولون: من رحم المعاناة يولد الإبداع، لكن هذه القاعدة ليست هي القاعدة، بل هي استثناء من القاعدة .. فالمعاناة المراد بها هنا هي تلك التي تمر بك في تجربة تضطر ذكاءك إلى مواجتها وعندك إمكانيات التغلب عليها .. أما حين تنعدم السبل في حياة مضطربة معيشيا فإن المعاناة تتسبب في تخفيض نسبة التفكير الإيجابي، فأنى يكون لفكر شخص مشوش تتعاوره احتياجات أطفال كان سببا في وجودهم .. وأرحام كانوا سببا في وجوده أنَّى يكون له مساحة من صفاء تأمل وهدوء نفس ليضيف شيئا جديدا؟. فطاقة الفكر المحروم توظف في تأمين الوجود، لا في تطوير الموجود.

*ويمكن القول إن حالة اللا استقرار تتوزع في خانات قياسية ثلاث:

– **خانة الحياة السالبة:** وهي التي تكون فيها فرص الموت أكثر من فرص الحياة .. بسبب الحروب المدمرة فينعدم التفكير الإبداعي فيها إلا أن يكون في الشر .. فمساحة الإبداع منصبة على فن التغالب في من يعيش على حساب من؟

– **خانة الحياة الصفرية:** التي يكون فيها العيش على الكفاف .. مع توفر الأمن النسبي أي وجود اضطراب اقتصادي مع وجود استقرار سياسي، وحرية فكر وهذه توزع حياة الشعوب الفقيرة إلى ثلاثة أثلاث: ثلث للحصول على التعليم .. وثلث للحصول على الاستقرار المعيشي .. وثلث لمواجهة احتياجات القادمين من رحم الفاقة .. ويكون الركض أبرز سماتها، وسيتفرغ للإبداع فيها من فتح عينيه على ميراث أسرة موسرة ذات علم كمصطفى صادق الرافعي .. أو تبنت مستقبله أياد أخرى كطه حسين .. أو خفف من التبعات الأسرية وهاهنا ستعجب حين تجد أن من أبرز عمالقة الفكر القديم والمعاصر لم يتزوجوا قط مثل عباس محمود العقاد، وجبران خليل جبران، وسيد قطب، والروائية الانجليزية جين أوستن، وإسحاق نيوتن، وقبلهم يذكر ابن تيمية، والنووي، وابن حجر العسقلاني وغيرهم، والقصد أن الفكر صومعة خلوية، إذا عُصفت بالنسل المحاويج غادرها المتنسك في محراب التأمل إلى البحث عن الطعام في مكنونات الأرض.

– **خانة الحياة الموجبة:** وهي التي يستقر الناس فيها سياسيا واقتصاديا وتعليميا .. ويبدأ معها العد التصاعدي نحو الأفضل في كل شيء .. بحيث تمتلك الشعوب والأفراد فرصا للتخطيط، والتنفيذ والإشراف، والمتابعة .. الحلقات الأربع اللازمة لأي مشروع ناجح .. ولكن هناك تلازم شرطي عند أي حديث عن إبداع وتطوير، وهو وجود أنظمة سياسية وإدارية معنية بمسؤوليتها تؤمن بحرية الإبداع .. أي تتمتع بعقول مناسبة لمرحلة التطوير .. عقول تدرك أن المُلك سياسة وتدبير وتخطيط لحياة جمعية، بحيث لو سئل عنها الجنين في بطن أمه لقال لمثلها وإلا ففي بطن أمي المنتهى.

وفي وطننا العربي حين كان القُطر يحصل على استقرار نسبي كان العلماء والمفكرون يبرزون ويتسع نطاقهم حتى تجد أن معظم الجهابذة في مصر خرجوا في زمن متقارب جاؤوا نتاج النهضة المصرية لمحمد علي، ووجود تطلع للبناء واستمر العمالقة يظهرون تباعا، ولكن

اتسعت دائرة حضورهم الفكري ابتداء من مطلع القرن العشرين إلى بداية الثورة المصرية، حيث أخرجت مصر رواد نهضة الفكر الحديث في زمن لم يتكرر مثل أحمد شوقي .. حافظ إبراهيم .. مصطفى المنفلوطي .. عباس محمود العقاد .. مصطفى صادق الرافعي .. الإمام محمد عبده .. طه حسين .. محمد حسين هيكل .. زكي مبارك .. سيد قطب .. محمود تيمور .. محمد مندور .. حسن البنا .. توفيق الحكيم .. محمد حسن الزيات .. يحيى حقي .. محمد الغزالي .. وغيرهم كثير يضيق بذكرهم المقام .. هؤلاء العمالقة الذين ملؤوا المكتبة العربية بروائع فكرهم عاشوا القرن العشرين، ولم يشهدوا القرن الواحد والعشرين، وكانت جهودهم ذاتية محضة لم ترعاهم مراكز أبحاث، ولا دول، ولا جامعات، وفي عصر كان الاستعمار فيه لايزال جاثما عبر المندوب السامي، غير أن الاستقرار السياسي والمعيشي والحرية النسبية انتجت كل هذه القمم .. لكن منذ الثورة المصرية عام 52 وبدء لعب القط والفأر بين الحكومة وبعض مكونات شعبها قُمعت الحريات وعاد التصحر والجدب الفكري من جديد .. وهذا يجعلنا نقول إن إبداع الإنسان الغربي ليس لأن له عقلا متميزا بل وحياة متميزة .. وكثير منهم يتم شراؤهم من قبل مؤسسات حكومية وغير حكومية فلا يعيش وجدانيا إلا في صومعة الفكر.

ولقد امتلكت الأمة العربية والإسلامية كل مقومات الاستقرار والنهوض؟ ولكنها لا تعيش حالة اللاحرب سواء عسكرية .. معيشية .. سياسية إلا لتأخذ استراحة محارب، وفترة للإحماء والتسخين، فأنى يأتي الإبداع والفكر، وأنى لأوضاع مضطربة أن تنتج العلماء والعباقرة؟.

في العراق رغم تماوج الأحداث ظهر علماء كثر في المجالات البنائية والحربية والعلوم الإنسانية، فجاء الغزو الأمريكي وقضى مع الإيرانيين على معظمهم وعاد التصحر وعمت فيه الخرافة.

وتم اغتيال نحو 12 عالم ذرة من مصر فقط عن طريق الموساد وفي أوقات متفرقة، ومالم يهاجر العقل العربي ليقدم خدماته للغرب، وإلا فهو رأس مطلوب القبض عليه .. كأنما قُدّر لنا ألا نستقر هاهنا ولا نبدع، ولا ننهض، ذلك أن الدوائر الاحتلالية معنية باستقرار نحو 10 مليون يهودي في فلسطين .. هم حصيلة تجمُّع تم استقدامه من كل العرقيات، والألوان،

واللغات، ولكي يعيش هذا الكيان مستقرا لابد من وضع نحو مليار ونصف من البشر من الدول الإسلامية المحيطة في حالة دوار مستمر، وحروب قائمة، وصراع من أجل بقاء عشرة ملايين وجدوا وسطهم بطريق الخطأ .. لقد ابتلينا بهذه الدولة السريرية التي لا تعيش إلا تحت العناية المركزة من قبل الموكلين بالسهر عليها، ومنه شن حرب عشواء فكرية، سياسية، دينية، حضارية، على الدول المحيطة حتى لايأتي نهوضها على حساب سقوط دولة إسرائيل الصناعية .. قد يقال إنما هذا نابع من عقدة الشعور بالمؤامرة، فلا عدو للعرب سوى العرب أنفسهم.

والجواب: إذا صدّقنا مقولة مالك بن نبي بقابلية العرب للاستعمار، مع أن هذا الكلام غير دقيق كون الضعيف في كل زمان ومكان قد يستمرئ الرضوخ للأقوى مؤقتا، فإن هذه القابلية النسبية إنما جاءت بعد حدوث الغزو والاستخراب .. فالباب مفتوح ولكن بعد دخول اللص .. وضعف مناعة الجسم سهّل انتشار الوباء لكنها لم تصنعه بل تم حقنها به .. وإن عتابنا للمريض على إهماله لا يسوغ تركه فريسة للمرض دون مكافحته بحجة أنه مهمل .. وأعجب لمن يعفي المعتدي من الاعتداء لأن صاحب الحق لم يحرس حقه بشكل جيد .. فهل من العدل أن يحكم القاضي لصالح اللص، ويحكم على صاحب الحق بالإدانة لأنه تساهل في حماية حقه؟ هكذا بتنا نجد من يقول إن الذنب ذنب العرب والمسلمين فلولا خضوعهم وقابليتهم للاستعمار ما جاء ولا احتلت فلسطين .. فلقد احتلت الصين من بريطانيا، واحتلت اليابان من الصين فهل لأن عندهم قابلية للاستعمار؟ .. والصحيح أن احتلال العرب من قبل كان بسبب الأطماع والتوسع، وأن استمرار محاربتهم لنا اليوم، وإجهاض كل عوامل نجاحنا هو التزام حضاري مستمر، ثم زادوا عليه عاملا آخر وهو حماية دولة الصهيونيين العالميين بسبب أساطير توراتية، وليس لإسرائيل النبي منها حظ ولا نصيب.

إذا كان فكر النادي المسيحي يقول: إن عيسى صلبه اليهود وبصلبه فدا عيسى العالم من خطياه .. فما بالهم ليت شعري يصلبون العالم من أجل بقاء اليهود بلاخطيئة؟ ففي كل دولة زرعت قنابل داخلية موقوتة، هي من الكثرة بحيث يصعب احتواؤها، من فكرية، وسياسية،وعرقية،وجهوية،وحقوقية، فأي شعب يحاول أن يستقر وينهض يفتح أمامه ملف من

الملفات، فما يغلق هذا الملف حتى يفتح الآخر، ولايقبلون بحكام عادلين معتدلين، بل حكام فاسدين مجرمين يخططون للإفساد أكثر من البناء والإصلاح، لكي تستمر في حالة اللا استقرار، لقد تركوا بشار نيرون العصر وأجهضوا الثورة الشعبية السورية التي نشدت العدالة .. وأتت مخابراتهم بالسيسي قاتل الأبرياء بعد أن أجهضوا الثورة المصرية وأسقطوا رئيسها المنتخب محمد مرسي لكي تستمر حالة الفساد والتخلف والارتهان .. وأجهضوا الثورة الليبية التي انتخبت قيادة علمانية لكنها معتدلة ممثلة بالسرّاج الرئيس الشرعي، وجاءت بضابط فاشي هو خليفة حفتر الحاصل على الجنسية الأمريكية ليبعثر أحلام وآمال الشعب الليبي ويستمر يعيش دوامة الفساد والاستبداد وترك الثروات نهبا لهذه الدول .. تآمروا على الثورة اليمنية بعد عقود من الاستبداد وأتوا بسلطة استباحية دعموها في المؤسسات المهيمنة، بعد أن أخذت على عاتقها تجفيف منابع الدين وإنهاء التيارات المناهضة لها، هل السياسة الغربية إنسانية في عدالتها؟ حديث الواقع والوقائع تقول إنها سياسة عدوانية تحارب الشعوب المستضعفة، سياسة نفاقية .. وإنها لتتمسح بالأخلاق إذا كان فيها ابتزاز الغير، وتمسح بالأخلاق أرضا إذا كانت في غير صالحها.

إنني لا أدعو إلى نصب حائط مبكى للبكاء على حظنا العاثر مع الغرب؟ بل أدعو إلى حرب استقلال ثانية لا حرب مسلحة بالضرورة، بقدر ما هي حرب توعية حضارية، فقد خرج الاستعمار ولكن ترك أذياله فاعلة، فلترفع دول الاستخراب يدها عنا.

معركة الكرامة الأولى

مهزوم قبل دخول الحرب من قوتُه وملبسُه وعلاجه بيد عدوه .. هذه الحقيقة توجَّه لأحداث الأسنان الذين يبشرِّون جماهيرهم بتحقيق العزة والكرامة عن طريق غزو العالم بجيش من جوعى البطون .. وعراة الأبدان .. هؤلاء الذين يصنعون بطولات الأكشن ويكبرون أنفسهم بحديث الكبار وهم بعد رأس في السماء وذيل في الماء، نقول قبل الحديث عن الانتصار على عدو صغير فضلا عن دول الكبار والاستكبار يجب أن تبرزوا بطولاتكم في هزيمة الجوع .. فالبطولة تكمن أولا بهزيمة عوامل الهزيمة التي منها الكفاية الحياتية .. لذلك أول معارك الكرامة تبدأ بتحقيق الاكتفاء الذاتي .. إذ كيف يكون ذا كرامة وعزة من قُوتُ يومه ومقومات حياته بيد عدوه؟ .. لقد تعددت أشكال الحروب وتلونت صورها .. وصار الحصار أحد أدواتها القاتلة .. والذي يُزرع طعامه في دولة .. ويُطحن في دولة .. ويُخبز في دولته فهو مهزوم بدون حرب .. فبحسبه تصريح صغير من دولة متحكّمة أن ساحل مينائه مثلا بؤرة ساخنة .. ولاتضمن سلامة الملاحة فيه لكي يعلن الاستسلام بلا قيود لسلطان الجوع .. فمن أين سيأكل ويلبس ويتطبب؟.

ومن طرائف ما صرنا نسمع أن شعوبا تعتمد على أسواق (الأعداء) تجعل من ضمن الحرب ضد أعدائها مقاطعة سلعها .. وينسون أنهم إنما يعلنون الحصار على أنفسهم أكثر من حصار تلك الدول التي يعلن مقاطعتها .. لأن الذي يقاطِع خالي الوفاض بادي الإنفاض صفر اليدين .. فإن لم يرجع إلى تلك الدولة المقاطعَة سيلجأ إلى أختها .. وليس دقيقا قول من يقول الأسواق كثيرة، ومن يمتلك المال يمتلك الزاد، هذا ليس صحيحا فحرب الاقتصاد بات جماعيا .. والمصالح باتت من التشابك بحيث وحّدت القرارات أحيانا .. فمن سيضحي بأسواق هي أكبر من سوقك بما لايقاس لكي تقف إلى صفك في خيارات الحروب الاقتصادية، لم تستطع الصين أن تكسر أي حضر تفرضه أمريكا ليس لأنها ضعيفة أمام قوة أمريكا بل لأن الميزان التجاري بين أمريكا والصين مختل لصالح الصين بما يقرب من 124 مليار عام 2022م من حجم التبادل الذي يصل إلى 184 مليار دولار بين الدولتين .. فهل تترك هذا المبلغ الضخم من أجل بضعة مليارات تأتي من التحالف مع الصغار .. وبهذا قد لا تستطيع أي دولة أن

تضحي لوجه الله لصالح أي شعب قد يطاله حصار الدول المتحكمة، فضلا عن اعتبارات أخرى تدخل في الحسابات .. وفي ظل تدني مستوى الوعي أنست ترسانة الشعارات والأناشيد الملحمية للجماعات الراديكالية أنست العامة أن حياتهم لاتزال تحت رحمة غيرهم .. وأن انتصاراتهم لا تحدث في غير قصيدة ملحمية أو نشيدة تهييجية، أو زامل حماسي ذي صوت مهيب وإيقاع راقص يقصف وينسف ويحتل الكون في خمس دقائق، وأن حديث العزة والكرامة إنما هو متاح في مهرجانات الدعايات الغوغائية من نخالات مجتمعات جاهلة .. إنهم أغنياء ولكن بخصوبة الخيال .. وأثرياء ولكن بالخطابات الرنانة .. فبها يقدمون العربة على الحصان .. ويغزون الكفار بسيف اللسان قبل السنان، ثم إذا طالوهم بأذى فأقصى أسلحتهم المقدور عليها هو المبادرة برفع مظلوميتهم إلى المؤسسات (الدولية) ضعها بين قوسين .. ومطالبتها بسرعة إرسال جمعياتها الإغاثية ومنظماتها الإسعافية .. ثم يلتمسون قرارات الإنصاف المشفوعة بالرأفة والرحمة .. وهذه هي خلاصة العزة والكرامة وأسلحة الانتصار للمستضعفين من المستكبرين .. فمن ينتصر على من؟ إن الكرامة لمن لا يجد قوت يومه قد تتحقق بموته واقفا لا بوقوفه منتصرا .. وهذا غاية ما تملكه الجماعات العدمية أي الموت الجماعي بلا استسلام (نموت ولا نركع) وهل يفرق عند عدوك أن تموت واقفا أو راكعا .. شابعا أو جائعا؟!.

إن فصاحة الأقوال لا تغني عن بلاغة الأفعال، ومن ليس مستقلا بعناصر الحياة الأساسية فهو محتل بلا قوات احتلال ومهزوم بلا جيوش حرب، وآن للأنظمة أن تعلن معركة استقلال حقيقية ضد العدو الأول وهو الجوع .. ومن المؤسف بل والمخيف أن الدول العربية لا تؤمن سوى 5.4 % من الغذاء .. حيث ينفق العالم العربي سنويا نحو 35 مليار دولار على غذائه وقد تصل الفاتورة الغذائية إلى نحو 115 عام 2020 بعد وصول عدد الأيادي الآكلة إلى 370 مليون إنسانا .. لا كرامة ونسبة ما يتم استيراده من الغذاء في بعض الدول العربية يصل إلى ما بين 40% و90%. ومن أصل 200 مليون هكتار صالحة للزراعة لم يستصلح منها سوى ما نسبته 5%. ومع ذلك تجد أكثر الحكام تبجحا بالاستقلال هي هذه الأنظمة الخائبة .. حتى لفرط حساسيتهم من تدخل أي جار عربي في شؤون جاره الداخلية يبرزون كأوثب من كر على عدو يوما غيرة على الاستقلال وحفاظا على السيادة حينما يند

من مسؤول ما تصريح غير ودي مثلا يشتم منه رائحة الانتقاص .. مع أن بعضهم يأتيه ورق الخس يوميا من تشيلي .. والخيار من الهند .. والجزر من الصين .. فطبق سلطة مائدته مشكل من جميع أنحاء العالم .. ومن ينشد العزة والكرامة من الأفراد أيضا فلابد من تأمين مقوماتها .. وأولها عناصر الحياة الأساسية .. ما لم فهو بين خيارين الموت جوعا مع تكفينه بثوب العزة والكرامة .. أو العيش بذل المسألة وإراقة ماء الوجه .. واكتساب مهارة التزلف والنفاق .. وتعريض ربما عرضه للمخاطر .. معادلة منطقية لا مناص منها .. فليس لمتسول أو لص أو مهان عزة ولا كرامة .. هذا دجل فرق الحقن التخديري التي تعمد إلى تغييب وعي الجماهير ببطولات خارقة فتزج بهم إلى المعارك الخطأ في المكان الخطأ؛ لأغراض ومآرب ذاتية جهنمية .. الكرامة أولا لمن يأكل مما يزرع ويلبس مما يصنع.

بَطَلُ الشعوب المستعبدة ومخلصها المنتظر

البطل العظيم المنتظر لتخليص الشعوب الفقيرة والمستعبدة التي تنشد الخلاص .. سيأتي لا نازلا من المريخ .. ولا طالعا من كهف الغيبة والرجعة .. ولا ذلك الأسطورة التي تسري فيه النطفة الطاهرة .. ولا ذلك المختص بالتجليات العرفانية والأسرار النورانية .. ولا ذلك الرجل المهيب صاحب اللحية الطويلة الذي تذكر هيئته بالخلفاء الراشدين .. بل ولا ذلك الرجل الجذاب الوسيم العصري اللبق عالي الثقافة .. لا هذا ولا ذلك.

البطل العظيم المخلص الذي هو حاجة الشعوب المستعبدة احتياج الفرد الظامئ في اليوم القائظ لشربة الماء الباردة .. هو (العِلْم) فمن ينتظر المخَلِّص فمخلصه المنتظر هو العلم ثم العلم .. ثم العلم .. العلم مقرونا بالبرمجية التربوية اقترانا تلازميا من المهد إلى اللحد .. وبضبط مؤشر السير نحو الهدف المقدس وهو تحرير الإنسان من عذابات الأوهام لصالح العيش تحت نور الاستبصار وسلطان المعرفة.

بالعلم مع التربية السلوكية وسلامة القصد سيصبح المواطن عارفا بمسؤولياته وبطل تغيير نفسه بمفرده .. فلن يظل منتظرا من يفكر له لأنه لا يحسن التفكير .. ولا من ينطق له بلسانه لأنه لا يحسن التعبير .. ولا من يختار له طريقه لأنه لا يحسن التدبير .. ولا من يتبعه حذو القذة بالقذة ليأمره بالتحجير أو التكفير أو التفجير .. نعم. بالعلم لن تستمر عقول الجماهير نقاط فراغ مهددة بالاحتلال من قراصنة العقول الخاوية، فيسوقونها سوق القطيع إلى الهاوية.

وبالعلم يصبح فكر الفرد قيمة مستقلة ذات سيادة .. لا يستطيع أحد أن يحتلها بسهولة ولا يتاجر بها في أرصفة المساومات .. لا زعيم قبلي .. ولا زعيم سياسي .. ولا زعيم متلبس بالدين .. ولا ولا.

ومن أجل هذا التأثير الجوهري للعلم والمهمة العظيمة في تغيير واقع الناس أقسم الله بأدواته ولا يقسم الله إلا بعظيم فكيف أن يكون المقسم هو الله .. فقال (ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ)[1].

([1]) [القلم 1].

(والطور*وكتاب مسطور*في رق منشور)[1] .. وكانت (القراءة) هي أول مفتتح السماء بالأرض لشرف العلم (اقرأ باسم ربك الذي خلق*خلق الإنسان من علق*واقرأ وربك الأكرم* الذي علم بالقلم*علم الإنسان ما لم يعلم)[2] وكان العلم أول شرط استحق به الإنسان الاستخلاف في الأرض (وعلم آدم الأسماء كلها) كإجابة مبدئية على احتجاج الملائكة على خلق آدم.

ولشرف العلم رفع الله العلماء حتى أهل العلم الطبيعي فقال: (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات)[3] ففصل العلم عن الإيمان، ولم يقل العلماء المؤمنون، فرفع المؤمنين ورفع العلماء مستقلين، ليدخل كل عالم في هذه المكانة .. ولو برفع منزلته بين الناس في الدنيا .. فالناس مجمعة على احترام العالم في كل زمان ومكان.

وجعل الله العلماء هم وحدهم المختصين بالخشية الحقيقية: (إنما يخشى الله من عباده العلماء)[4].

وهم وحدهم أهل المعرفة العقلية: (إن في ذلك لآيات للعالمين)[5] (وما يعقلها إلا العالمون)[6].

وهم وحدهم ثالث ثلاثة شهدوا لله بالوحدانية .. لأن الشهادة تكون عن علم لا عن عاطفة وجهل.

الشاهد الأول (الله) وهو العالم بذاته وصفاته ..

والشاهد الثاني (الملائكة) المقربون.

والشاهد الثالث هم (أولو العلم) .. (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط ...)[7]، وغيره العالم يعبد الله ولكن عن جهل، فلو اُستشهد على أسباب عبادته وأدلة وجود معبوده وآلاء عظمته لم يكن لديه شهادة، فعبادته تقليد وربما فتنه من آخر

([1]) [الطور:1-3].

([2]) [القلم:1-5].

([3]) [المجادلة:11].

([4]) [فاطر:28].

([5]) [الروم:22].

([6]) [العنكبوت!43].

([7]) [آل عمران:18].

فصاحته وقدرته على التلاعب بعقله فجره بناصيته إلى حيث يريد دون أن يراجعه في شيء لا يعرفه، ولذلك يعذر أحدهم أن يقلد من يراه أعلم منه وأفهم، لأن الله قال: (فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون) وآية الشهادة دليل على أهمية العلم الإلهي ووجود علماء متخصصين في إثبات وجود الخالق عز وجل.

وعودة إلى سياق التأكيد على هذه الفريضة الغائبة .. نقول إذا كتب الله للشعوب الفقيرة والمتحاربة أن تقف على أقدامها يوما، وتلتقط أنفاسها بمساحة من استقرار يجب أن تبادر إلى العلم .. وتضع على طريقها معالم النجاة .. إنه وصْفتها الوحيدة لمعالجة أمراضها .. وتتخلى عن قواعد البيانات المركبة على أفهام الجهل والجاهلية .. وتعيد برمجتها على قواعد التنوير العلمي الذي يعلم الفرد معنى حرمة الإنسان والإنسانية .. تعلمه رسالته الحقيقية وسر وجوده في الأرض .. وأنه وجد فيها ليبني لا ليهدم .. ليوحد لا ليفرق .. ليصلح لا ليفسد .. ليبدع وينتج ويصنع ويزرع .. وهل إلا في مستنقعات الجهل تظهر آفة الإرهاب؟ وهل إلا بين العاطلين العارضين أنفسهم للبيع في أسواق النخاسة يطمع صناع الحروب في انتزاع ما ليس لهم بحق القوة لا بقوة الحق؟.

ولأن العلم مع حسن التربية هو المخلص الأول للشعوب من جهنم الجهل والرعونة والعمالة والطيش فإن صناع الحروب وتجار الأفكار الهدامة يكرهون العلم ويناصبونه العداء .. ويتعمدون أن يغرسوا في الناس موروثات التخلف والجهل .. لأنهم بالجهل يحصلون على وقودهم في محارق الموت، فالجاهل كائن مستلحق لا يقدِّر معنى الحياة، ولا يدرك رسالته فيها، تؤجج عواطفه بوقود الحماس بلانظرات العقول، فما على قراصنة العقول ولصوص النصوص أن يلعبوا بالعلم وقدسيته لعب الكرة بين الأقدام .. إما بقلب معانيه أو بحرف مقاصده .. أو بتهميش دوره من التقليل بأهميته واضطهاد المعلم ومصادرة حقوقه .. ما عليهم وقد ماتت ضمائرهم من ترك الشعوب الجاهلة مجرد مستودعات حروب .. ومخزونات بشرية لإطلاقها في وجه المنافسين على الدنيا الكعكة والغنيمة والوجبة الساخنة من لظى حروبهم التي لا تتوقف؟.

الدور الرسالي لرواد المعرفة

عندما يقدِّم تُجَّار الحروب مشاريعهم، وتنتعش ظاهرة اختطاف عقول الناس من تيارات منفلتة، فعلى النخبة في كل مكان أن تقول نحن أيضا موجودون، فإذا كانت لكم حروبكم الخاصة، فلنا حروبنا ولكن من نوع آخر، حروب موازية لتجارة الاستهلاك الآدمي .. حروب نظيفة تجمع ولا تفرق .. تبني ولا تهدم .. تقيم موازين الحق .. وتنتج، وتبدع، وتصنع الحياة.

فليكن لرواد المعرفة منصاتهم التوعوية .. ومنها يستلمون مكانهم الطبيعي في قيادة الواقع .. ولكن بأبوية المعرفة .. لا بعصبية التكتلات النفعية .. بل يكون التجرُّد شعارهم، وخدمة العلم غايتهم .. فحياتهم مهدَّفة برسالة البناء والإصلاح، هذا هو الأصل، فالعلماء بناؤون، وإذا كان منهم من صنع بعلمه آلات الدمار، فلا سواهم أيضا يمكن أن يطلق الإضاءات العلمية التي تصنع آلات البناء .. وتنمي الوعي .. وتصحح المدارك .. وتساعد عديمي المعرفة على النظر إلى الحقائق كما هي .. لا كما يراد لها أن تكون.

إن عقول العامة باتت مجال تسويق تجارات مختلفة، أيا كانت تلك التجارات .. سياسية .. عسكرية .. اقتصادية .. ثقافية، وأصبح ما يملك الإنسان من رصيد كمالات في المنطق والسلوك عرضة للتآكل، ولجرف سيل من المفردات العنفية .. وفوضى الاستهلاك الذهني اليومي .. وغثائية المعرفة .. وزيف المعلومات .. وخوائية التسالي والترفيه .. ولو لم يكن من اضطلاع النخبة بهذا الدور الريادي – أي الإسهام في التنوير – إلاّ تعويض المجتمع فاقد المعرفة بسبب الهدر اليومي الجائر بفعل عوامل كثيرة ذكرنا بعضها، لَكَان ذلك بحدِّ ذاته إنجازا وإيفاء بحق المجتمع، من أعلى مرجعية في أي بلد تقع عليها مسؤولية صياغة ذهنيته، وتوجيه سلوكه .. لكن الغريب اللافت من الاستقراء أن أكثر المكونات المجتمعية وعيا، هم أجهل الناس بثقافة التدافع والغزو الفكري، وأبطأ الناس في السباق على رسم الخرائط الذهنية للجماهير .. وأقل الناس انشغالا بالتفكير في ترتيب حياتهم الرسالية، التي تعطيهم دورهم الرائد فيما العامة أحوج ما تكون إليه .. بل وأكثر من ذلك، ربما انخرط الكثير منهم وسط أمواج الفتن فكانوا لها منظِّرين .. يزيِّفون الباطل بمعسول كلامهم .. ويُقَلِّبون أوجه الحقائق

بمنطق لسانهم .. فيدورون مع المصلحة حيث دارت .. فبدلا من أن يقودوا الناس بعقولهم صار الجهال يقودون العلماء ببطونهم .. ويوجهون سلوكهم برغائبهم .. فينتهون إلى شهود زور على الواقع، لا شهداء عدل بصحيح الفهم .. ثم يتحولون إلى قدوات في الضلال والإضلال، فيسير الناس بسيرهم؛ لأنهم عندهم علماء، ولا يعلم الناس أنهم إنما يتاجرون بعلمهم .. وفيهم نزل قول الله: (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ)[1] .. وهذا التمسح المؤسف بلعاعات الدنيا يعود إلى خطأ مميت في ضبط مؤشر النية عند التحصيل العلمي لدى البعض، وعند الحصول على الترقيات وحصد الامتيازات .. فدائما هناك ضابط واحد لتوجيه المسار، وهو كيف أحسِّن بالعلم حياتي المعيشية .. لا كيف أحسِّن بالعلم حياتي الرسالية .. ولا كيف أجعل من العلم مصدر كمالاتي الإنسانية إلى جانب كونه أحد مصادر العيش .. أو حتى مصدره الوحيد.

إن الله تعالى لم يرفع العالم درجاتٍ بِكَمِّ مالِه، بل بكيْفِ رسالته في الحياة .. فالمال يمكن أن يحصِّله الجاهل .. ويسبقه به أحيانا الخامل قليل التجربة .. ويتجاوزه به حتى الرضيع والمجنون عن طريق الإرث .. بل ويتفوق على العالم بالمال اللصوص والمفسدون .. فهل تصبح كل بطولته أن يجعل غاية علمه مواجهة احتياجات البطن وإشباع غريزة الشهوة، فيخْلِد إلى الأرض كما قال الله: (وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاه ...)[2].

وإذا كان الواقع الذي يعج بالتكتلات العدمية لن يمنح العلماء دورهم الريادي وتأثيرهم الفكري إلا بشكل من أشكال التنظيمات المعرفية الموازية، فلْتجتمع العقول على صناعة المعرفة الحقة بأي شكل من أشكال التساند .. وأقربه إلى طبيعة رسالتهم هي المبادرات الذاتية في تسويق علمهم للناس، عن طريق المتاح من الوسائط التي تمكنهم من النشر المنظم، فيصل نفعهم للعامة في شكل تغذية مستدامة.

([1]) [آل عمران 187].

([2]) [الأعراف 176].

إن الكثير من العلماء في عصر القنوات المفتوحة ربما بات يتسلى بالانتاج الذاتي لذات الانتاج أحيانا، وربما دعته الحاجات إلى ارتياد أكثر من ميدان بحثي فيراكم المواد في زاوية من النسيان، ولا يفكر في إعدادها للنفع العام .. والناس أمام الشاشات يتناوشهم سيل من الأفكار الهدامة، التي تقود الجميع إلى مآلات فوضوية مدمرة .. وقد قيل إن أغنى الأماكن في الأرض القبور؛ لأن فيها دفنت عقول غنية بالعلم والمعرفة، ولكنها ظلت حبيسة أصحابها، ولو أنها خرجت لَتَغير مجرى الحياة، فلابد من إعطاء زكاة العلم، بمزاحمة ظلمات الجهل وتجّار الأفكار، ومراكز البحوث المشبوهة التي تسرق وعي أجيالنا، وتخطف مستقبل ثقافتنا، وبذلك يكون العلماء قد أقاموا على الناس الحجة، وأخْلَوا مسؤوليتهم أمام الله والتاريخ من واجب التبيين .. ونفضوا عن انتاجاتهم المكدسة غبار الإهمال، فأفادوا بذلك واستفادوا .. وإنه لَيستَحِق كل عالم وباحث أنفق غير قليل من الوقت والجهل في سبيل تحصيل العلم أن يحصل على العائد الربحي لعلمه، وليس ذلك بأي حال مجرد الحصول في نهاية المطاف على راتب شهري، بل بالحصول على المكانة التي منحه الله إياها في عدة آيات وهذا هو الربح الأساس .. وإنما يتحقق في تنوير الناس بأنوار المعرفة .. وإيصال الحقائق والمعلومات التي يحملها إلى ذوي الحاجات كما سبق .. أو في الأخذ بما هو فوق العزيمة، وهو الاتجاه نحو تفكير نوعي وإبداع خلاّق يخدم به الناس، وينقلهم إلى مراقي التقدم، فبفضل الاستثمار العلمي، والادخار الفكري، صار هناك امبراطوريات عقلية كاسحة، نفعت البشرية واختصرت المسافات وقللت الجهد، وتجاوزت أيضا في مكتسباتها المادية مدخرات دول وحكومات، فلا يحتاج ذوو العقول النابهة والعزائم الحرة إلى التكسُّب بعلمها عند ذوي الأهواء، فلينفعوا بما تعلموا وليستنفعوا في نفس الوقت.

وأخيرا يتحوصل الموضوع في إخراج العِلم بشكل من الأشكال .. وألا يظل العالِم مجرد مكتبة مقفلة على مخزون علمه، ويحفظ من المحفوظات ما سعته ذاكرة الكترونية، معبأة معارف ومعلومات لايستفيد منها أحد.

مقولة (نحن أمة لديها قابلية للاستعمار) خاطئة مائة في المائة

انطلق المفكر الجزائري مالك بن نبي (1905-1973) في تعزيز مقولته (القابلية للاستعمار) من فرضية لاتلاؤم منطقي بينها كمقدمة وهذه المقولة كنتيجة، وهي كمون الهزيمة الحضارية في عمق نفسية الإنسان العربي بعد انتهاء (دولة الموحدين) آخر معاقل حضارة الأمة، إذ يرى –من مضامين طرحه– أن المعضلة الحضارية لم تعد في البحث عن النظم بل عن الإنسان المحكوم بصيرورة التاريخ، حيث تعرض الإنسان لدينا إلى حالة انكماش واستخذاء ثم إلى قابلية للاستعمار، ويقول:"إذا كان عسيرا أن نتعرف على إنسان ما بعد الموحدين، إلا إذا تشخص في سمات رجل ك (آغا خان) فإنه على أية حال تجسيد للقابلية للاستعمار والوجه النموذجي للعصر الاستعماري، والبهلوان الذي أسند إليه المستعمر القيام بدور (المستعمَر) وهو أهل لأن يقوم بجميع الأدوار حتى لو اقتضاه الموقف للقيام بدور (إمبراطور)"[1] .. فهو يسقط رمزية آغا خان كنموذج لحالة العمالة ويترك وضعية الشخصية العربية في صورة البهلوان الذي يجسد دور المستعمَر – بالبناء للمفعول – حتى لو أسند إليه دور إمبراطور فلن يستطيع تقمص هذا الدور إلا بنفسية التابع.

وكما هو ملاحظ فقد انتهى الأستاذ المفكر مالك بن نبي إلى حكم عام خطير بناه على حدوث تراجع حضاري لا تخلو أي أمة من حصول تفاوت في تأريخها الحضاري بين تقدم وتراجع .. وانتصار وهزيمة .. وحركة وسكون كقاعدة إلهية غير متحولة (وتلك الأيام نداولها بين الناس) فلايمكن لأمة ذات شخصية مستقلة بخصائص وفلسفات ومعتقدات أن يجعل منها تراجعا في سياق التدافع الحضاري أمة قابلة للاستعباد من قبل أمة أخرى لا تلتقي معها في مذهب ولا مشرب .. الغريب نفسه تعرض للاجتياح من قبل الفاتحين المسلمين، وطرد الروم من الشام وشمال أفريقيا، وأخذ منها كرسي الإمبراطورية وهي القسطنطينية وحكم المسلمون الأندلس لمدة 800 سنة، وهزم الغرب في البلقان والقوقاز وغيرها، لكنهم لم يصبحوا أمة قابلة للاستعمار، ولم يحدث لهم استخذاء فقد استمرت الحملات الصليبية تكافح للأخذ بزمام الريادة

([1]) من كتاب وجهة العالم الإسلامي (ص38) مؤسسة الإهداء للنشر والتوزيع القاهرة 1998.

حتى أخذتها مجددا .. والشيء ذاته يحدث للأمة العربية من اجتياح استعماري شمل غالب دول الأمة، وكان الفرق أن الفاتحين المسلمين عندما دخلوا مناطق من أوربا خرجوا منها حين خرجوا وأهلها مسلمون، في حين خرج الاستعمار من الأمة العربية ولم تخرج قرية واحدة عن دينها إلى دين الغازي فأين القابلية للاستعمار؟

لقد اُحتلت الأوطان العربية بسبب فارق التسليح الذي لا يقارن .. فما يفعل السيف أمام مدفع؟ .. وعندما حصلت الشعوب على الدعم كما حصلت الجزائر (بلد مالك بن نبي) على الدعم المصري واجهت الاستعمار، وضحت أكثر من مليون شهيد ونالت استقلالها، وهذا هواري بو مدين رئيس الجزائر الثاني بعد الاستقلال يرفض نظرية القابلية للاستعمار وقال لايوجد لدينا قابلية للاستخراب .. وهذا رائد النهضة الإصلاحية في الجزائر الشيخ عبد الحميد بن باديس (1889–1940) يقول قولته المشهورة:" لو امرتني فرنسا أن أقول لا إله إلا الله لما قلتها" يعبر بذلك عن اعتداد وعزة وإباء فلا يقبل بمجاراة الاستعمار حتى فيما هو أول أركان دينه.

من هنا فمقولة (قابليتنا للاستعمار) في واقع الأمر خاطئة 100% بأدلة التاريخ والوقائع، ولكن للأسف منذ أطلقها مالك بن نبي تلقفها بالتبني والنشر كما قال الدكتور غازي التوبة أمثال جودت سعيد مفكر سوري، وخالص جلبي سوري كندي الجنسية اللذين هما من أنصار نظرية (اللاعنف) وإلغاء الجهاد ويقول عنه جودت: أعظم مفكر في التاريخ".

كأنما نظرية اللاعنف هذه تقتضي الترويج لوجود ذنب فينا هو القابلية للاستعمار لا في الاحتلال نفسه، لذلك استقبل التغريبيون هذه المقولة المضللة في الواقع بالترحاب، فكانت ولا تزال تفعل فعلها الخطير كرسالة سلبية قامعة لمحاولة النهوض المستقل، ومرسخة لمفهوم الذيلية ولاكوها باستمتاع، متشبثين بالتصور الخادع أننا أمة نستمرئ العيش في ظل حاكمية الغرب وتدخلاته، وأن وضعنا الطبيعي حيث تمليه السجية المتطبعة على الخنوع والاستسلام.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا متى غابت عن الأمة مفاهيم العزة الدينية التي يغذيها كتابهم من نحو قول الله تعالى: (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) (لايتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء). (أشداء على الكفار رحماء بينهم) وغير ذلك من الآيات.

لقد قوبلت هذه الهفوة من مفكر كبير بالرفض منذ بدء ظهورها ومن غير شخصية ومؤسسة، وممن نقده الدكتور غازي التوبة في محاضرة بعنوان (مالك بن نبي ماله وما عليه) بتاريخ 8- 11- 2015م جاء منها إنّ فكرة "القابلية للاستعمار" أضعف أفكاره، وأقلّها صواباً" وقال:"إن الزعم بأنّ العقل العربي توقّف عن النشاط والإبداع فأبرز ما يدحضه توصّل الدكتور جورج صليبا في كتاب جديد له صدر بتاريخ عام 1999 تحت عنوان "الفكر العلمي: نشأته وتطوّره" إلى نتائج مخالفة لما طرحه مالك بن نبي؛ لأنه اتبع منهجية جديدة في دراسة العلوم العربية، قامت هذه المنهجية على رصد التطورات العلمية للعلوم العربية، وعلى عدم الانطلاق من نظريات مسبقة، وطبق ذلك على علم الفلك فتوصّل إلى أنّ العصر الذهبي لعلم الفلك العربي هو العصر الذي يطلقون عليه عصر الانحطاط بالنسبة للعلوم العربية بشكل عام" .. وأردف بالقول:" إنّ قول مالك بن نبي بانحطاط الأمّة منذ عهد الموحّدين هو الذي أدّى إلى القول بـــ (القابلية للاستعمار)، وقد اعتبر مالك بن نبي استعمار بلادنا قدراً محتوماً (وضرورة تاريخية)، وهذا كلام غير صحيح بدليل أن فرنسا التي استعمرت الجزائر عام 1830م لم تستطع أن تستعمر مصر عندما غزاها نابليون عام 1798م، وليس معنى ذلك أن الجزائر كانت ذات قابلية للاستعمار، في حين أن مصر لم تكن ذات قابلية للاستعمار، فإن النسيج الثقافي واحد في كلا البلدين، لكننا يمكن أن نفسّر نجاحه في الجزائر وإخفاقه في مصر بعوامل خارجية سياسية واقتصادية، ساعدت على نجاح الاستعمار في الجزائر ولم تساعده في مصر، من مثل انشغال الخلافة العثمانية بحرب البلقان حين احتلال فرنسا للجزائر" [1].

ولعل ما يجدي لفت النظر إليه هاهنا أن سبب اطمئنان الكثير إلى مصداقية هذه المقولة وتداولها كمسلّمة هو الاستشكال الحاصل من ميل المؤسسة الرسمية إلى الارتهان للغرب، ودوما يكمن هنا الفخ المميت وهو الخلط بين شعوب عظيمة اجتباها الله لأعظم رسالة، وبين كيانات صنعها الاستعمار واطمأن إلى أنه خرج من المنطقة شكلا وبقي مضمونا .. ولاشك إن حالة التبعية هذه مربكة، ولذلك تظل قصة لدورة أخرى من التحرير، فلئن ذهب الاستعمار

([1]) ينظر موقع منبر الأمة الإسلامية http://al-ommah.org/?p=485

الخارجي فلايزال الاستعمار الداخلي فمتى انتهى هذا الواقع عادت الأمة كما أراد لها الله أن تكون، ذات قابلية لا للاستعمار بل لنشر حضورها الحضاري من جديد ولو بفلسفة تتجاوز ترسانة المادة المستنفدة.

***صدر للمؤلف:**

- تحفة الأحباب في شرح ملحة الإعراب مكتبة الإرشاد ودار بن حزم– لبنان
- دليل المعلم الناجح عن مكتبة الإرشاد – صنعاء
- رحلة قبل الرحيل عن مكتبة الإرشاد ودار ابن حزم – لبنان
- لغة الخطاب الدعوي ضمن سلسة الأمة القطرية رقم (143) – قطر.

***كتب جاهزة للطبع:**

- علم المعاني كتاب منهجي.
- الحرية من منظور إسلامي.
- الفروق الدلالية للمواقع الإعرابية.
- شر البلية – مجموعة مقالات صحفية ساخرة.
- النحو الدلالي.
- دراسات نحوية.
- تأملات فكرية.
- تأملات سياسية.
- شبهات وردود.
- كتاب إشراقة الروح (قصة).
- الخيط الأبيض– ديوان شعر.